أوراق

حرية التعبير دون قيد أو شرط

مجلة تعنى بشؤون الفكر والثقافة والإبداع

تصدرها رابطة الكتاب السوريين

رئيس التحرير: د.صادق جلال العظم

مديرا التحرير: حسام الدين محمد وخطيب بدلة.

هيئة التحرير: عادل بشتاوي، فرج بيرقدار، عبد الرحمن حلاق، ابراهيم اليوسف، حليم يوسف، ابتسام تريسي، احمد عمر.

الإخراج الفني: خالد سليمان الناصري

المراسلات: باسم مجلة أوراق على العنوان التالي:

AWRAQ
Lionel Road North 11
BrentfordMiddlesex TW8 9QZ/UK
هاتف: 00442087589223
Email: awraq@syrianswa.com / awraq@syrianwa.com
Website: www.syrianswa.com / www.syrianwa.com

الاشتراك السنوي: الأفراد في البلدان العربية(100) دولار أمريكي، وفي البلدان الأوروبية (130) دولارا أمريكيا، وفي أمريكا وباقي بلدان العالم الأخرى (180) دولارا أمريكيا. **المؤسسات:** في البلدان العربية (130) دولارا أمريكيا، وخارج البلدان العربية (200) دولار أمريكي.

صدر هذا العدد برعاية من

مؤسسة "بناة المستقبل"

بناة المستقبل
"Builders of Future"

وبالتعاون مع

المتوسط لتنمية القراءة والتبادل الثقافي

ALMUTAWASSIT
المتوسط

حسام الدين محمد
بلاغة البيت..... ٤

عزمي بشارة
مسألة الطائفية وصناعة الأقليات في المشرق العربي الكبير..... ١٠

أوراق البحث ٢١
د. محمد عناد سليمان / في تناقضات مسألة الخلافة..... ٢٢
علي العبدالله / أوكرانيا: بؤرة صراع ٢٩

أوراق الملف ٣٧
أحمد عمر / العدوّ داخل البيت..... ٣٨
زينة أرحيم / بيت... أيّ بيت؟ ٤٠
خطيب بدلة / الدار الكبيرة ٤٤
بشير البكر / باب البيت ٤٩
فرج بيرقدار / البيت الأم ٥٢
سليم البيك / بيت سوريا الفلسطيني ٥٤
غسان جباعي/ البيت شهقة الحرية الأولى للبشرية..... ٥٧
سوسن جميل حسن / مفتاح العودة..... ٦١
عبد السلام حلوم / شهادة رحيل ٦٥
رامي سويد / بيوت أم أحمد ٧٠
راتب شعبو / بيتنا القديم والإسفلت ٧٣
هاشم شفيق / الأسفار المعطلة..... ٧٦
عبد الله صخي / غرفة اللاجئ العراقي..... ٨٢
عبد الله العتيبي / سقف إيران ٩١
هبة عز الدين / صرّة الذهب..... ٩٦
فادي عزام / بيوت تحرّها الرهافة وتعجز عن قطعها السكين..... ١٠١
أحمد عمر / في شهوة البكاء على الأطلال ١٠٧
ناصر فرغلي / حيطان مؤقتة..... ١١٠
غالية قباني / وطن مؤقت ١١٩

حسام الدين محمد / ماذا يعني «البيت»؟: نازحو سوريا يتحدثون.... ١٢٢
عبده وازن / المفاتيح ١٢٥
هشام الواوي / كيف تبني بيتاً؟ ١٢٧
حليم يوسف / أبي البيت وأختي سوريا ١٣١
إبراهيم اليوسف / القرية..... ١٣٤

أوراق السرد..... ١٣٩
ألبرتينه لوكيليان / العم سليمان والمعلمة ١٤٠
ماهر حميد / أبو مستو العرصة..... ١٥٨
محمد فطومي / النّاعورة والحجر الأملس..... ١٦١
عبير درويش / صراع على الورق..... ١٦٥

أوراق الشعر ١٧١
كريم عبد / وجهُكِ يَلوحُ وصوتُكِ يتردّدُ في الوديان! ١٧٢
نادي حافظ / لا شيء أفعله هذا الصباح ١٧٩

أوراق النقد..... ١٨٥
عبد الرحمن حلاق / «مدن اليمام» للروائية إبتسام تريسي ١٨٦

أوراق الحوار ١٩٣
عربيّ يفوز بالجائزة الأولى لمسابقة الرواية في مالطا ١٩٤

أوراق القضايا ٢٠٥
نسرين طرابلسي / سلطة مزدوجة والمثليون في كل مكان: ٢٠٦
«فلاحو سوريا: أبناءُ وجهائهم الريفيين الأقل شأنًا وسياساتهم»..... ٢١٢

لوحات العدد للفنان السوري تمام عزام

حسام الدين محمد

بلاغة البيت

يتناول العدد الخامس من «أوراق» موضوعة «البيت» وما تتضمنه من سياقات البقاء والعبور والشتات، وفي العلاقة العضوية الحميمة بين البشر والمكان من تقديسه إلى الكفر به. يشارك في الملفّ كتّاب عرب وسوريون، قاموا بالعودة الى بيوتهم في الذاكرة والمجاز، وفكّكوا ألغاز بلاغة البيت في نطقه حال وطن مصّغر أو كبير (كما في المفردة الإنكليزية Homeland) وفي تخلخله المديد تحت ثقل الطغيان وتحوّلاته اللاحقة الى خيام وسفن هجرة ومعسكرات نزوح وموت.

يلاحظ أحمد عمر مثلاً بدء التأريخ الإسلامي بالهجرة من الوطن (والبيت ضمناً) باعتبارها حدثاً مؤسساً، ويتناول الذكريات الى البيت باعتبارها سلاحاً يخيف الطاغية، أما هشام الواوي فيفكك من خلال حكاية بناء أبيه بيتاً للعائلة قوام البلد بأكملها، فتنحفر أساسات البيت ثم تبقى مهجورة أكثر من عام «كانت الحركة التصحيحية حينها قد أسست لنفسها بقوة وحفرت لقواعدها جوراً أعمق من جور أبي»، وبعد ثلاثين عاماً من شقاء البناء وجهوز البيت «كان ربيع دمشق

قد أصبح خريفاً»، وفي حين زادت قيمة كل شيء لم تزد قيمة بيت الأب «الذي ظل منفرداً وبعيداً لا يرغب أحد بزيارته ولا الاقتراب منه نظراً لوحشته وابتعاده»، كما لو كان بيت الكاتب تلخيصاً لبؤس ما آلت إليه سوريا كلّها.

سرد بعض كتاب الملفّ، مثل خطيب بدلة وغالية قباني وأحمد عمر وعبد الله صخي وراتب شعبو وسليم البيك وفرح بيرقدار وحليم يوسف وفادي عزام تواريخهم أو تواريخ آبائهم أو أصدقائهم عبر سرد قصص بيوتهم ومدنهم وقراهم التي نشأوا أو عاشوا أو مرّوا بها، فيما تناول آخرون مثل زينة ارحيم وعبد السلام حلوم ورامي سويد حكايا السوريّ المعاصر الممتلئ حنيناً الى منزله، كما في حالة أم احمد من «الأثارب» التي تقول: «البيت يا أستاذة روح، البيت شقا وتعب، ضحك ودموع»، وفي حالة زينة التي صار في بيتها في ادلب عائلة نازحة لن تعرفها عندما تطرق الباب، أو في حالة حلوم الهارب من المنفى نفسه بعد أن اشتد الضيق على السوريين.

وفيما قرأ غسان الجباعي وسوسن جميل حسن المعاني الفلسفية والوجودية للبيت ولمفتاحه الذي هو «الحارس الضامن لأمننا وسكينتنا»، كما اشتغل المصور الإنكليزي برادلي سيكر على تصوير مفاتيح السوريين اللاجئين والهاربين والمنفيين وأخذ تصريح فريد من كل واحد منهم عن معناها، قرأ البعض الآخر البيت شعراً، كما فعل عبده وازن (في قصيدة «المفاتيح») وناصر فرغلي (في «حيطان مؤقتة») وإبراهيم اليوسف (في «القرية»)، وكذلك فعل، تقريباً، بشير البكر، في سرديته الشعرية التي يتذكر فيها ولادته وإخوته كأنهم «أفراخ البوم»، ويتذكر رحيله الى جامعة حلب كما لو كان فراراً، وكذلك محاولة العودة لأول بيت سكنه حين يمتنع ويعتريه خوف شديد ويعود من حيث جاء.

تنفرد هبة عز الدين في مساهمتها باستقراء مؤلم لأفكار وذكريات الغرقى السوريين في البحر في حوار بين أجسادهم التي حالت عظاماً: «نحن هنا كلنا ميتون، لكننا نتناوب بالنوم، كما كنا نفعل أيام معتقلات الأسد»، حيث تخرج إحدى الشخصيات مفتاح بيتها وترميه قائلة لروحها: «لا تقلقي إن أضعت المفتاح. لا قيمة للمفاتيح في عالم الأرواح».

الشاعر العراقي هاشم شفيق يدخل الى الملف، كما فعل عبد الله صخي، بعضاً من الهم العراقي الشبيه، فيتحدث عن الكرادة حيث «الدبابات السمينة تتبختر منتفخة بالبارود، جائية ذاهبة تحرس الضفة الثانية للنطقة الخضراء التي

تجلس فيها الكلاب الأمريكية والهررة الفارسية والضباع العربية، حيث يأكلون معاً من قصعة واحدة فيها ثريد من لحم ودم المواطن العراقي المغلوب والمسلوب الحقوق والإرادة»، وعن السليمانية ويصل الى سقوط الموصل التي كانت في أواسط السبعينات، «مدينة سهر وليل»، وصارت الآن «في يد الظلام»، أما القاص الكويتي عبد الله العتيبي فيفتح بقصة عنوانها «سقف إيران»، المشهد على قوس أوسع في المنطقة العربية وجوارها، ولكنّها تشبه تماماً حكايا السوريين، فسهراب الخارج من قريته «شهر كورد» آملا بالوصول الى الرخاء والمال في الكويت يصارع البحر مع رفاقه هاربا من دوريات خفر السواحل الإيرانية والكويتية، حيث سيرميه صاحب المركب بعيداً عن الساحل الكويتي، ثم سيقضي في سيارة النقل ليجدوا في يده جواز سفره وقرآنا صغيرا ومحفظة مهترئة في داخلها ما يعادل ١٤ دينارا كويتيا و»صورة طفل بالكاد يبتسم، تضمه بحنو شابة تلف رأسها بوشاح أسود».

يضم العدد دراسة كبيرة عن «مسألة الطائفية وصناعة الأقليات» للمفكر العربي عزمي بشارة، التي يقول فيها إن «الطائفية السياسية بمعناها المعاصر وليدة تفاعل المنظومة الاجتماعية القائمة مع الاستعمار الحديث، وطريقة بنائه الدولة التي سترثها الدولة الوطنية المستقلة، أو ستصطدم بها بعده». ويختم بشارة دراسته بالقول «إن مسألة ادعاء الإسلام الحقيقي هي في الأصل زائفة، لأنها تخلط بين الدين – بالأحرى فهم الدين – والتدين، قد وصلت مع «داعش» الى نهايتها القصوى الكارثية، وليس لديّ شك في أنه سوف تجري بعدها مراجعات علنية لأمور كثيرة كان مسكوتاً عنها في تاريخنا».

كما يضم دراسة مهمة لمحمد عناد سليمان حول تناقضات مسألة الخلافة وآخرى لعلي عبد الله عن أوكرانيا باعتبارها بؤرة صراع، وضمن باب السرد يترجم محمد شاويش قصة «العم سليمان والمعلمة» التي تتناول حياة عائلة سورية في المانيا، وقصة «أبو مستو العرصة» للكاتب السوري ماهر حميد، وقصة «الناعورة والحجر الأملس» للقاص التونسي محمد فطومي، وقصة «صراع على الورق» للقاصة السورية عبير درويش، وفي باب الشعر تنشر «أوراق» قصيدة الشاعر العراقي كريم عبد «وجهك يلوح وصوتك يتردد في الوديان»، كما تنشر قصيدة للشاعر المصري نادي حافظ بعنوان، «ماذا أفعل هذا الصباح»، وفي باب النقد يكتب عبد الرحمن حلاق دراسة نقدية عن «مدن اليمام» للروائية

ابتسام تريسي، ويبنّد شخصياتها بين السمو والوضاعة، وفي متابعة، على ما يبدو، لملف سابق في «أوراق»، عن الجندر والاستبداد، تكتب نسرين طرابلسي دراسة شيّقة عن المثليين باعتبارهم سلطة مزدوجة، وفي باب الحوار يلتقي الكاتب والمؤرخ الفلسطيني عادل بشتاوي بالروائي الفلسطيني وليد نبهان الذي فازت روايته «هجرة اللقلق» بجائزة مسابقة الرواية لعام ٢٠١٣، ويقرأ خالد محمود، في باب الكتب، كتاب «فلاحو سوريا: أبناء وجهائهم الريفيين الأقل شأناً وسياساتهم» لحنا بطاطو.

تبدأ «أوراق» في هذا العدد تقليداً جديداً تحتفي فيه بلوحات فنان تشكيلي متميّز، وسيكون العدد مخصصاً هذه المرّة للفنان التشكيلي السوري تمام عزام الذي تتصدّر لوحته «سوريا تحترق»، غلاف المجلة.

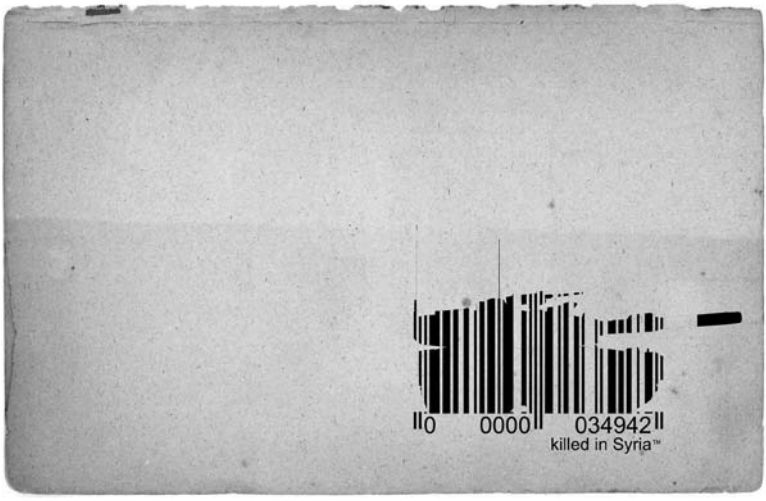

د. عزمي بشارة

مسألة الطائفية وصناعة الأقليات في المشرق العربي الكبير

-١-

قد يَستغربُ حتّى جزءٌ من الباحثينَ المقولةَ التي تفيدُ بأنّ الطائفيّةَ بمعناها المقصودِ في الخطابِ السياسي العربي في عصرنا ظاهرةٌ حديثة. ولتبديدِ بعضِ هذا الاستغرابِ نقولُ إنّ الطوائفَ والعصبيّةَ ليستَ ظواهرَ حديثةً، وكلاهما كامنٌ في مفهومِ الطائفيّة، انطلاقًا من دينامية المحايَثة Immanence الضروريةِ بين الطائفيةِ والعصبية. ولكنّ المقصودَ بالطائفية في الخطابِ السياسي العربي في أيّامِنا سواء أكانَ مفهومًا نحاولُ تأسيسَه ويفيدُ في تحليلِ الظواهرِ الاجتماعيةِ القائمة أَمْ كان حكمَ قيمةٍ تبخيسيًّا معروفًا عن ظاهرةٍ بغيضةٍ، هو أمرٌ مختلفٌ عن التعصّبِ لجماعةٍ، أيِّ جماعة. وهي بالتأكيد أمرٌ مختلفٌ عن الطائفةِ أي الجماعة ذاتها، بمعنى أنّها طائفةٌ من البشر، أو فئةٌ من جماعةٍ أكبرَ. وفي الدلالةِ القرآنيةِ للَفْظِ الطائفة نجدُ وصفًا لامعياريًّا لفئةٍ هي جزءٌ من كُلّ، كما تُظهِر الآياتُ التي تردُ فيها كلُّها. ولم يكتسِبْ مضامينَ معياريّةً سلبيةً إلّا في القرن الرابعِ الهجري/ العاشرِ الميلادي الذي يَتعارفُ المؤرِّخونَ المعاصرونَ على وضعِه في أساسِ تحقيبِهم للعصرِ العبّاسي الثاني؛ طردًا مع انقسامِ الخلافة، وتَضَعْضُعِ سلطتِها العباسيةِ لمصلحةِ إماراتِ الأطرافِ المتغلِّبة، أوْ بما يفيدُ التشرذُمَ مقابلَ الوحدة.

فالطائفيّةُ التي يجري الحديثُ عنها هي بالتحديد عَدُّ أتباعِ الدين، أو المذهب المعيَّن جماعةً تمثِّلُ امتدادًا أو تواصلاً تاريخيًّا (أي أنَّ لها تاريخًا) وذاتَ حدودٍ اجتماعيّة، ولها ناطقون باسْمِها (سواءٌ أكانوا علمانيِّين، أمْ رجالَ دِين) يَذودُونَ عنْها ويصيغون مَصالحَها بلُغةِ التعايشِ والخُصومةِ مع جماعاتٍ أُخرى. ويخلقُ هذا تصوُّرًا عَنْ كيانٍ له أُسطورةُ مَنْشإٍ، وسرديةٌ تتراوَحُ بين صَوْغِ مشاعرِ الغُبْنِ ومَشاعرِ الافتخارِ والكِبْرياء. ولكيْ يَثبتَ التواصلُ التاريخي، غالبًا ما تُسقَطُ على الماضي مصطلحاتُ الطائفةِ في فهمِ ذاتِها ومحيطِها في الحاضر. وهذا ممَّا أصفه باللُّغةِ التاريخيةِ النقديةِ بالمغالطةِ الزمنية، أو اللازمنيّةِ التاريخية.

والأهمُّ من هذا كلِّه أنَّ سياقَ الطائفيّةِ السياسيةِ بمعناها التحاصصي المحدَّد، يرتبطُ بمرحلةٍ تاريخيةٍ جديدةٍ نَشأتْ فيها الدولةُ الوطنيةُ والجماعةُ القوميةُ، وأصبحَ ممْكنًا الحديثُ عن عصبيةٍ لقطاعاتٍ فيها تقومُ على الدينِ والمذهب، وأصبحَ يُمكنُ تصوّرُها والمطالبةُ بحصّةٍ في الدولة، حتّى حيثُ لم تنشَأ الدولةُ بَعد، أيْ قبلَ الاستقلال. فتختلفُ الطائفيةُ السياسيّةُ المعاصرةُ عن الطائفيةِ الثاويةِ في نظامِ المِلَلِ العثماني، في أنَّها تقومُ على المحاصَصةِ السياسيّةِ المؤسسيةِ أو شِبْهِ المؤسسيةِ للطّوائف، بينما كان نظامُ المِلَلِ إطارًا تنظيميًّا قد يَنطوِي على التهميشِ لكنّه لا يَنطوي قَطُّ على المحاصَصةِ وترسيمِها.

وتَتفاوَتُ هذه السرديّاتُ بينَ الطائفةِ بوصفِها جماعةً أهليةً مألوفةً للفردِ من بيئتِه المحليّةِ والطائفيّةِ الأهليةِ المرتبطةِ بها، والجماعةِ الطائفيّةِ المتخيَّلةِ في مرحلةِ ثقافةِ الجماهير، سواءٌ أقُصِدَ بها طائفةٌ غيرُ محلّيةٍ في الدولةِ الوطنيةِ كلِّها أمْ عابرةٌ للدُّول. ونحن نَتعاملُ عادةً مع الطائفيّةِ السياسيةِ والنّظامِ الطائفي بوصفِهما ظاهرَتيْنِ في إطارِ الدُّول، وليسَتَا عابرتَيْنِ لها، ولكنّهما قد تُسخِّران الرابطَ الطائفيَّ العابرَ للدولِ لتَوْثيقِ روابطَ تَضامنيّة، أوْ لغَرَضِ التدخّلِ في دُولٍ أخرى. ويتعلّقُ ذلك باستخدامِ الطائفيةِ في العَلاقاتِ الخارجيةِ التي تنعكِسُ بالضرورةِ على الأوضاعِ الداخلية.

وفي حالةِ الطائفةِ بوصفِها جماعةً متخيَّلةً متجانسةً تتّبِعُ مذهبًا أو دينًا تتخيّلُه متجانسًا أيضًا، تُسقَطُ على التبعيّةِ للدينِ مصطلحاتُ القوميّةِ وتعابيرُها وأدواتُها. وتتحوَّلانِ سَويّةً إلى فعلٍ سياسيٍّ في داخلِ الطائفة، فينعَكِسُ على مستوى الوحدةِ الطائفيّة، وإشراكِ العامّةِ في السياسةِ عبْرَ الهُويّةِ المشترَكةِ المميّزةِ والمحدِّدةِ التي تجمَعُهمْ بنُخبِ الطائفة. ويَبدو الفِعْلُ في هذه المرحلةِ ثَوْريًّا في بعضِ الحالاتِ، وقَدْ يتجلّى على شكلِ مَطالبَ مساواتيةِ الطابَعِ داخلَ الطائفةِ، بالتشديدِ على الاختلافِ عن الطوائفِ الأخرى، والمشترَكِ داخلَ الطائفةِ عينِها.

أمّا على مستوى عَلاقةِ الطائفةِ بالدولة، وبقيّةِ الطوائفِ في المجتمع، فتَظهرُ في الصراعِ مِنْ أجلِ حصّةٍ أكبرَ من الدّولةِ تَرجمةً لوَزنٍ ديموغرافي، أو لقوّةٍ اقتصاديةٍ وثقافيةٍ، أوْ تعويضًا

لغُبْنٍ تاريخيّ أو غيرِ ذلك. وحين يُستَخدمُ التعويضُ عن الغُبنِ التاريخي أداةً لتحصيلِ امتيازاتٍ (وليس حقوقًا مُتساوية)، أو مبرِّرًا للتحالفِ مع قُوًى أجنبيةٍ (وهذا نوعٌ من الامتيازات) تصبحُ كتابةُ التاريخِ من هذه الزاويةِ مسألةَ مصالحَ سياسيةٍ ومُيولٍ أيديولوجيةٍ وضروراتِ ترسيخِ الهُويّة، وباختصارٍ إنّه مسألةٌ خطابيّةٌ (discursive) لِدَواعٍ عمليةٍ أو سياسيةٍ.

لَمْ يَخْلُ عالَمُ الطوائفِ المحلّيةِ من العصبيةِ ومن أنماطِ الإدارةِ الذاتيةِ الاقتصاديةِ والسياسيةِ المرتبطةِ بالتنظيمِ التاريخي للاجتماعِ في المدينةِ الإسلاميةِ بصورةٍ خاصّة، أو حتّى بالمجتمعاتِ الريفيةِ أحيانًا، وفي حالاتٍ مخصوصة. ولا شكَّ في أنَّ الأهميةَ هنا هي للانتماءِ للجماعةِ الأهليةِ سواء أكانتْ عشيرةً أمْ طائفةً، أيْ لنمَطِ الوجودِ الاجتماعي السائدِ ما قَبْلَ الحداثةِ الذي يقومُ مدرسيًّا وبالأَحْرى تنميطيًّا على سيادةِ العَلاقاتِ العموديةِ مقابلَ العلاقاتِ الأُفقية. لكنَّ الطائفيّةَ بمَعنى استثمارِ التَبعيّةِ لدينٍ أوْ لمَذهبٍ ديني لتحويلِ أتباعِ هذا الدينِ إلى جماعةٍ تُحافظُ على نفسِها في وجهِ تحدّي قُطبَي الاندماجِ والتهميشِ بلْ ومخاطرِ الاستئصالِ، اللذَيْن يهدّدانِ الطائفةَ، ثمّ ترجمتها إلى قوّةٍ سياسيّةٍ لها مطالبُ من الدّولة، هي ظاهرةٌ منسوبةٌ للدّولةِ الحديثة. ولكنّها لم تتشكَّلْ من لا شيْء؛ فللطائفةِ السياسيةِ وغيرِها بداياتٌ غيرُ مكتَملةِ التكوُّنِ في الماضي، وهي بداياتٌ كافيةٌ لتكشفَ عن بذورِ هذه الظواهرِ قبلَ ذلك بمَراحلَ. وبكلمةٍ لها جذورٌ تتغذَّى ذاتيًّا بنفسِها في الشروطِ التي تستدعِيها.

وتُعَدُّ الجماعةُ طائفةً أصلاً، أيْ جزءًا من كُلّ، لكنّ الطائفيةَ ناتجةٌ مِنْ أنَّ هذا الكُلَّ الجديدَ مختلفٌ تاريخيًّا وينافسُ الجماعاتِ المحلّيةَ في مَدِّ خطوطِ الانتماءِ إليه ومَساراتِه التي تُمكِّنُه الحداثةُ منها، مثلَ التعليمِ الرسمي، والخدمةِ العسكريةِ، وخدَماتِ الدولة، ووسائلِ الاتصالِ الحديثةِ التي تصلُ الدولةَ مباشرةً بالفرد. أمَّا في الماضي، فلَمْ يُمكِن الكيانيةَ السياسيةَ الإمبراطوريةَ التواصلُ مباشرةً مع القواعدِ البشريةِ المشكِّلةِ للجماعاتِ الأهليةِ، ولا حتّى على مستوَى الوِلاية.

مِن ناحيةٍ أخرى، إذا كان الكُلُّ هو الأمّةُ الإسلاميّةُ أو مجموعُ المِلّةِ كمَا كانَتْ تُسمَّى في مرحلةٍ تاريخيّةٍ سابقةٍ، فلا يمكنُ عَدُّ المسيحيِّينَ واليهودِ طوائفَ داخلَها؛ لأنَّهم ليسوا جُزءًا من كُلٍّ أصْلاً بَلْ همْ «أهلُ ذِمّة»، وهو مصطلَحٌ قابلٌ للتفسيرِ إيجابيًّا وسلبيًّا بحسَبِ المرحلةِ السياسيةِ من الناحيةِ المعياريةِ، لكنّه بوصفِه مفهومًا فقهيًّا أصليًّا هو رَمْيٌ لأهلِ الذِّمّةِ خارجَها. أمَّا إذا كان تعريفُ الكُلِّ قد اختلفَ وأصبحَ مرجعُه اللغةَ والثّقافةَ أو الدّولةَ الوطنيّةَ التي يُفترَضُ أنَّ المواطنةَ وحدتُها الأساسيّةُ أو غيرُ ذلكَ، يصبحُ هؤلاء طوائفَ... وقد يصبحُ المسلمون طائفةً، أو ينقسِمون إلى طوائفَ في سياقِ الصّراعِ على هذا الكُلّ.

ولأنَّ الكُلَّ في الفكرِ القومي أو الوطني هو مرجعُ الشرعيّةِ الجديدُ، سواءٌ أكانَ أمّةً قوميّةً أم دولةً، يصبحُ الانتماءُ له معياريًّا، ويصبحُ تقسيمُه أمرًا مَرْذولًا، فهو بحُكْمِ تعريفِه مَسٌّ بالوحدةِ

الوطنيّة. وحتّى عندَما يختلطُ الفكرُ القومي أو الوطني باللبراليّةِ أو بالديمقراطيّةِ الأهليّة، ويصبحُ التنوّعُ داخلَها أمرًا مشروعًا وحتّى مرغوبًا، يَبْقَى التعصّبُ له وتحويلُه إلى سياساتِ هُويّة أمرًا غيرَ مَحمودٍ على المستوى القِيَمي، وعلى المستوى السياسي.

ولِهذا الحُكمِ المِعياري أَساسٌ في التحليلِ النّظري يتلَخّصُ في أَنَّ تقسيمَ المجتمعِ إلى طوائفَ ذاتِ حدودٍ مرسومةٍ سلَفًا يختلفُ عن تعدّدية التيّاراتِ السياسيةِ والفكريةِ والأحزاب، وهي تعدديةٌ متغيِّرةٌ ومتبَدِّلة. وإذَا حَلَّ هذا التقسيمُ محَلَّ تنوُّعِ الآراءِ والبرامجِ في صَوْغِ مصلحةِ المجموع، تُصبحُ التعدديّةُ الطائفيّةُ عدُوًّا للتعدديّةِ الفكريّةِ والحزبيّة، وتُصبحُ الطائفيّةُ خصْمًا للتعدديّةِ السياسيّةِ وللديمقراطيّة. هذا عَدا أَنَّها تَقمَعُ حرّيةَ الاختيارِ الفردي؛ باختزالِها الفردَ إلى تابعٍ لِطائفة.

وأختمُ هذا البندَ بالذاتِ بالقولِ إنَّه لوْ لَمْ نَكُنْ نعرفُ بوثوقٍ تامٍّ عَلاقةَ الاستعمارِ بنُشوءِ الطائفيّةِ السياسيّةِ التحاصصيةِ في بلادِنا، وتحويلِ المِلَلِ العثمانيّةِ إلى طوائفَ سياسيةٍ تبرِّرُ تدخُّلَ الأجنبي، ومُواصلةِ ذلك أثناءَ الانتدابِ على بلادِنا في المشرقِ العربيّ في تلكَ المراحل، وقيامِ متصرفيّةِ جبل لبنان قبْلَها على أساسِ هذه المحاصَصةِ الطائفيةِ البوَاحِ المحدَّدةِ الحِصصِ والتمثيل، لَكانَ بإمكانِنا الاستعانةُ بالنظريةِ للتأمُّلِ في معنى الطائفيّةِ ونُفورِها من الرابطِ الوطني أو القومي الجامعِ، وتجاوُزِه إلى التعاوُنِ مع خصومِه الدوليّين، وإعاقةِ تكوُّنِه ولا سيَّما في مراحلِ نُشوئِه. لَقدْ كانت ذاتَ جذورٍ تاريخيةٍ، لكنَّ الطائفيةَ السياسيةَ بمعناها المعاصرِ وليدةُ تفاعُلِ المنظومةِ الاجتماعيةِ القائمةِ معَ الاستعمارِ الحديث، وطريقةِ بنائِه الدولةَ التي ستَرِثُها الدولةُ الوطنيةُ المستقلّةُ، أو ستَصطدِمُ بها بعدَه.

ولا شكَّ في نفسي وعقلي أَنَّ المسارَيْنِ التاريخيَّيْنِ النقيضَيْنِ لتَشكُّلِ الطائفيّةِ السياسيةِ في بلادِنا كانَا نُهوضَ العروبةِ أَوْ ربمّا الهُويةَ العربيةَ بالمعنى الثقافي السياسي، قبلَ التحوُّلِ إلى القوميّةِ الأيديولوجيةِ والسياسيّةِ التبريريّةِ السُّلطويةِ لأنظمةِ الحُكم؛ والدّولةَ الوطنيّةَ وبناءَ المؤسّساتِ الوطنيّةِ التي تخترِقُ الجماعاتِ المحليّةَ الأهليّةَ. وليس صدفةً أَنَّ المسارَيْنِ في أماكنِ التقائِهما أو تقاطُعِهما أو حتّى افتراقِهما قَدْ شكَّلَا مَصدرًا لا ينضبُ للأفكارِ النهضويّةِ والإبداعِ الأدبي والفنّي، ولمظاهرَ مدنيّةٍ عابرةٍ للطوائف تثيرُ في بعضِنا الحَنينَ، وغالبًا ما تُعَنْوَنُ بتَسمياتٍ لا تَتوخَّى الدقَّةَ؛ مثلَ المرحلةِ اللبراليّة، والمرحلةِ القوميّة، وحتى «الزمن الجميل»، وغيرِ ذلك.

ولَمْ يُثبتْ لَنا أحدٌ من المشكِّكينَ في تعارُضِ هذَيْنِ المَسارَيْنِ مع الطائفيةِ حتّى الآن أَنَّ الإنسانيّةَ اكتشفَتْ بديلًا عن الثقافةِ القوميّةِ الجامعةِ وأساسُها اللغةُ المشترَكةُ، والدّولةِ الوطنيّةِ وقوامُها المواطنةُ بما فيها الحقوقُ السياسيةُ والاجتماعيةُ، بوصفِها أدواتٍ في الاندماجِ تخترِقُ انقسامَ المجتمعِ إلى جماعاتٍ عشائريةٍ أو جهويّةٍ، أو طوائفَ تبعيةٍ دينيّةٍ ومذهبيّةٍ تُدارُ علاقاتُها

بالتعايُش والاحتراب، وقد تتحوَّلُ إلى أساسٍ للصِّراعاتِ السياسية. والمُلفِتُ أنَّ خُصومَ العربيةِ أو العُروبةِ يُعجَبون بالرابطِ القومي الثقافي وحتّى السياسي عندَ الآخَرين... ومِنْ غرائبِ العصرِ أنْ ينقسِمَ العربُ العراقيّونَ إلى طوائفَ، في حينِ يُصِرُّ الأكرادُ في العراقِ نفسِه على تشكُّلِهم القومي الكُردي المتجاوِزِ للوطنيَّةِ العراقية. وفي الحالةِ السوريّةِ كان الأكاديمي والمناضِلُ الوطني السوري العضوُ الدائمُ في الكُتلةِ الوطنيةِ السوريةِ إدمون رباط يوضحُ منذُ عشرينيّاتِ القرنِ العشرين للجميعِ أنَّ سورية دونَ العروبةِ هيَ طوائفُ وأقلّياتٌ، وأنَّ العروبةَ هيَ طريقُ بنائها كدَوْلة.

هذا واضحٌ بالنّسبةِ إليَّ أكثرَ من أيِّ وقتٍ مَضى، وسبقَ أنْ خصَّصتُ له كتابًا كاملًا هو «المسألةُ العربية». قَدْ يُقالُ لي إنَّ الحَلَّ هو الديمقراطيّةُ واللبرالية وحقوقُ المواطِن. وأقولُ لا أتحدَّثُ عن الحُلول، بَلْ عن السِّياقِ التاريخي والأُطرِ التي تُصبحُ فيها هذه حُلولًا ممْكِنةً؛ فالديمقراطيّةُ واللبراليّةُ كلٌّ على حِدَة، ولِقاؤُهما سويّةً في الديمقراطيّةِ اللبراليّة غيرُ ممكنٍ خارجَ سياقِ الثّقافةِ التي تَجمعُ الناسَ وتَبْني «نحن» عابرةً للجماعاتِ المحليّةِ والطوائف تُتيحُ التعدّدَ داخلَها بدَلَ الانشطارِ في حروبٍ أهليّة؛ ولا خارجَ الدّولةِ الوطنيّةِ الحديثةِ وأساسُها المُواطنة. وأيُّ بحثٍ جدِّي عن صعودِ الطائفيّةِ السياسيةِ في منطقتِنا لا بُدَّ أنْ ينتهيَ بسَطرٍ أخيرٍ طويلٍ عريضٍ هو أنّ الطائفيّةَ السياسيّةَ رَفَعَتْ رأسَها في بلادِنا وازدَهرَتْ معَ فَشلِ هذَيْنِ المَسارَيْن في العقودِ الخمسةِ أو الستّةِ الأخيرة.

ويَبدو أنَّ العروبةَ - وأَرغبُ في الإلحاحِ هنا على ذلك - ليستْ نقيضَ الدولةِ الوطنيةِ في المشرقِ العربي، بل هي من أُسسِ وحدتِها، وأنَّ بديلَها هو التمزُّقُ الطائفي بَلْ والاجتماعي والمناطقي وليس الوطنيّة. فالعروبةُ والوطنيةُ مُتكاملان. ليست القوميةُ العربيةُ هي التي قَوَّضت الوطنيةَ في المشرقِ العربي بَل الاستبدادُ الذي استَخدمَ الأيديولوجيةَ السياسيةَ القوميةَ لخدمةِ سَيطرتِه ونُظُمِه السياسية، وفَرَضَها على العربِ وغيرِ العرب، وأجَّجَ الطائفيةَ، ومَنَعَ تكوُّنَ المواطَنةِ بوصفِها انتماءً للدولة، ومركبًا حقوقيًّا لا يُجبرُ الفردُ على المرورِ عبرَ الطائفةِ أو العشيرةِ أو الولاءِ للسُّلطانِ لمُمارستِه.

وما الأدبياتُ العربيةُ التي يمكنُ تصنيفُها نقديةً إلَّا سيْلٌ من معالجاتٍ لا تتوقَّفُ بتسمياتٍ مختلفةٍ لِفشَلِ هذَيْنِ المسارَيْن. ولَنْ أتطرّقَ هنا إليها. ولكنّي أتوقَّفُ عندَ ملاحظتيْنِ أراهُما مهمّتَيْن:

أُولاهُما، إنَّ القوميةَ العربيةَ على الرغم من عُبورِها الطوائفَ وتبنِّيها خطابًا يسمِّيه البعضُ علمانيًّا بهذا المعنى الفريد، كمُضادٍّ للطائفيةِ بالدولة (وهو ليس المعنى الصحيح تاريخيًّا ومفهوميًّا للعلمانية)، فهي غالبًا ما تملّقَت التديُّنَ الشعبيَّ (وهو نمطُ التديُّنِ الأكثرُ عُرضةً للتطييف)، واتّخذتْ مواقفَ ضِدَّ الأقلّياتِ الدينية، ولا سيَّما أثناءَ صراعِها مع الإسلامِ السياسي،

أوْ ارتكزَتْ إلى أقلّياتٍ طائفية، ولا سيَّما في حالة حَمْلِها أيديولوجيةً تبريريةً بواسطة العسكر الذين تحدَّرُوا من الرّيف واستنَدُوا إلى قواعِدِهم الاجتماعية فيه، وهُمْ في الحُكْم.

ولَمْ يَكْتفِ عديدٌ من مثقّفي الاستبداد العرب بهذا، بل عَدُّوا تأييدَ الاستناد إلى طائفة الأقلّية علمانيةً، ونَقْدَها تجاوزًا للعلمانيّة. لقَد أصبحَتْ طائفيةُ الأقليات تُعَدُّ علمانيّةً، أمَّا تحييدُ الدولة في الشأن الدينيّ فلَمْ يَلْقَ الاهتمامَ اللازمَ، ولا سيّما أنَّ العلمانيةً غالبًا ما تَعْني في عُرفِهم تقديسَ المستبدِّ ودولة الاستبْداد. وفي المقابل وقَعَ عديدٌ منْ مُناهِضي الاستبداد في وَهْم الاستغناء عن الديمقراطية وشَرطِها الأساس حكْم القانون، والمساواة أمامَ القانون، والحقوق المدنية، والاستعاضة عنها بطائفية الأغلبية، بوصفِها شكلًا من أشكال الديمقراطية التي أصبحَتْ مثلَ جراب الكردي مع الاحترام للأكراد.

وثانيتُهما، إنَّ الدولةَ الوطنيةَ فشلَتْ في بناء الأُمّة المواطنية لأسبابٍ عديدة تَفاوتَتْ بينَ الدكتاتوريات العسكرية التي حمَلَتْ غالبًا أيديولوجيةً قوميةً عربيةً، والأنظمة الملَكية التقليدية، واشتركَتْ في الاعتماد على الولاء للحكم أساسًا للامتيازات من جهةٍ والقمْع من جهةٍ أخرى، وليس على المواطنة أساسًا للحقوق.

-٢-

ويَنقسمُ التحدِّي الكبيرُ الذي وضعَتْه ظروفُ المشرق العربي الكبير التاريخيّةُ أمامَ الباحثينَ العرب في موضوع الطائفية، إلى اثنَيْن برَأْينا: أوَّلًا، رَصْدُ تحوُّل الطائفة الاجتماعيّة إلى طائفة سياسيّة تَتخطَّى تمييزات نظام المِلَل وسياساته؛ وثانيًا، رَصْدُ عملية تحويل الجماعات أو الديانات والمذاهب «الأخرى» وتَفكيكِها إلى أقلّيات قياسًا بأكثرية طائفية... أوْ حتّى تصرّف الأكثريات بعقلية طائفية. فهذا لمْ يَكُنْ قائمًا دائمًا. وهذه عمليةُ تحويلٍ تاريخي طويلةٌ ومُعقَّدةٌ للجماعات إلى أقلّيات فيما يَشرحُه مفهومُ (minorization) بما هيَ عمليةٌ في فَهْم تحوُّل الجماعات الأكبر ديموغرافيًّا منْ ناحية الحجْم إلى أقلّيات بالمَعنى العددي في مَنظور الديموغرافيا التاريخية، والتي يُبرهِنُ التاريخُ أنَّها تَتحوَّلُ غالبًا إلى ديموغرافيا جهوية وجبلية «منعزلة». وثمّةَ صيرورةٌ أخرى في تحويل المواطنينَ إلى أقلّيات منْ دون تَغيُّر وزْنِهم الديموغرافي، وذلك بالتعامُل معَهم بتصنيفهم بحسب انتماءَاتهم الدينية في الخطاب السياسي السائد. هذا وحدَه كفيلٌ بتحويلِهم منْ مواطنينَ إلى أقلّيات.

بإمكاننا نظريًّا تَخيُّلُ طائفة اجتماعيّة لها بنيةٌ ووظيفةٌ وحدودٌ على مستوى المجتمع الأهلي، وهي وظيفة مشروعة، وقد تكون ضرورية في حالات. ولَيس بالضرورة أن تَتحوّلَ إلى طائفة على

المستوى الوطني، ثمّ إلى قوّةٍ سياسيّةٍ ذاتِ مظالمَ ومطالبَ متعلّقةٍ بها، وأخرى متعلّقةٍ بمشاركتِها في الحُكمِ، وتغييرِ نظامِ الحكم ليس إلى نظامٍ أعدلَ، بل إلى نظامٍ يَضمَنُ مشاركتَها مقياسًا وحيدًا للعدالةِ التي تَفهمُها.

والبنَى والوظائفُ والحدودُ الاجتماعيّةُ للطوائفِ معروفةٌ في سياقِها الاجتماعي التاريخي، سواء على مستوى الحمايةِ والتضامنِ، أو على مستوى الطقوسِ والشعائرِ التي تُعيدُ إنتاجَها، أوْ على مستوى مَنْعِ الزّواجِ المختلطِ مع الطوائفِ الأخرى، وحتّى التخصّصِ بوظائفَ اقتصاديّةٍ معيَّنةٍ في بعضِ الحالاتِ بحَسبِ علاقتِها بمسائلَ مثلَ ملكيّةِ الأرضِ والحِرَفِ والتجارةِ، وغيْرِها. كَما أنَّ الطائفةَ الاجتماعيّةَ بحُكمِ تعريفِها برأينا ذاتُ طابعٍ محلّيٍّ. تكمن المشكلة في تحويلِها إلى طائفةٍ تتجاوَزُ حدودَ الجماعةِ المحليةِ، فهذه غالبا مع تترافق معَ نُشوءِ أدواتِ بناءِ الجماعةِ المتخيَّلةِ، كمَا في حالةِ القوميّة. وتُرافَقُ عادةً ببَدْءِ نُشوءِ المجتمعِ الجماهيري بأفرادِه المُتذرِّرينَ، أي المتحرِّرينَ من التبعيّةِ للْجماعةِ العضويّة.

في ظروفِ نُشوءِ مجتمعِ الجماهير، لا يُمكنُ إعادةُ إنتاجِ الطائفةِ بأدواتِ الانتماءِ إلى الجماعةِ المحليّةِ فقَط، وتَنْشَأُ هنا حالاتُ أدلجةِ الطائفةِ بواسطةِ إعادةِ إنتاجِها جماعةً متجانسةً عابرةً للمكانِ والزّمانِ، وتدبيرِ ذلك بأدواتِ الاتّصالِ والتنظيمِ الحديثة، ويَرتبِطُ هذا غالبًا بدَوْرٍ سياسي ووظيفةٍ سياسية، لا سيَّما أنَّ الجماعةَ المتخيَّلةَ قائمةٌ على أساسِ التبعيّةِ لمذهبٍ أو لدينٍ تُنافسُ طوائفَ أخرى، وجماعاتٍ متخيَّلة مثلَ القوميّةِ والحزبِ السياسي والأيديولوجياتِ على أنواعِها. برَأْينا، يمكنُ بسهولةٍ مراجعةُ ذلك تاريخيًّا في كيفَ تَحوّلَت الطوائفُ المحليّةُ في البلداتِ أو المدُنِ، إلى طوائفَ ذاتِ طابعٍ قُطْري (وأحيانًا قليلة متجاوزٍ للدول) في تيّاراتٍ مذهبيةٍ سياسيّةٍ ترْعاها دُوَلٌ إقليميةٌ في بعضِ الأحيان؟ ومتى؟ ولماذا؟ وليس بالضرورةِ أن يكونَ هذا التتابعُ النظري تاريخيًّا؛ فمَجْرى الأمورِ التاريخي مختلفٌ عن النظري، ولا توجدُ فيه نماذجُ نقيّةٌ عن الطائفيّةِ الاجتماعيّةِ أو السياسيّة. فهذه وظائفُ انفصلَتْ تدريجيًّا، ولم توجَدْ في الواقعِ التاريخي نماذجُ نقيّةٌ قائمةٌ بذاتِها.

يمكنُنا رَصْدُ نشوءِ المذاهبِ الإسلاميةِ تاريخيًّا بسهولة. وثمّةَ دراساتٌ متقدّمةٌ في هذا الموضوع. ولكنّ مهمّةَ رَصْدِ تَحوُّلِ أتباعِها إلى طوائفَ اجتماعيّةٍ منفصلةٍ ذاتِ حدودٍ ثابتةٍ نسبيًّا هي مهمّةٌ أصعَبُ في التاريخ، مثلًا في تاريخِ بغداد في القرنِ الرابعِ الهجري بصورةٍ خاصّة، ومِنْ ثَمَّ في تبريراتِ الصراعِ العثماني ـ الصفَوي الطويل، وآثارِه، وما صاحبَه من تسنينٍ وتشييعٍ بقوّةِ السَّيف. ولكنّني أدعو إلى تأمُّلٍ نقدي في فكرةِ تحوُّلِ هذه الطوائفِ إلى جماعاتٍ ذاتِ وظيفةٍ سياسيّةٍ تَطمحُ للمحاصصةِ وتَعملُ من أجْلِها؛ لأنَّ السياسةَ في ذلك العصرِ لمْ تكُنْ وظيفةً قائمةً بذاتِها، ولا كانت الدّولةُ قائمةً كوظيفةٍ منفصلةٍ عن المجتمع. ولكن يصحُّ هذا إذَا كان المقصودُ

الصراعَ على الاعترافِ بحقِّ تفسيرِها النصّ، وحقِّها في مُمارسةِ عاداتِها... والأهمُّ مِن هذا وذاك الصراعُ على السُّلطان، أوْ على الحُظْوَةِ لديهِ والقُربِ منه.

ومع ذلك، يُمكنُ ملاحظةُ بدايات هذا التحوُّلِ في نُشوءِ الدّولةِ الفاطميّةِ كمرحلةٍ أُولى، وتحوُّلِ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ مِنْ جماعةٍ من العلماءِ المعارضينَ للمعتزلة أو للتصوُّف أو لغيرِها من «البِدَع» إلى «فِرقةٍ ناجيَة»، أوْ تعبئةِ العامّةِ كملّةٍ مستنفرةٍ ضدَّ الدّولةِ الفاطميّةِ تارةً أخرى. ويُمكنُنا أنْ نُحدِّدَ بدقّةٍ متى نَشأَ المذهبُ الإثنَيْ عشري وتحوَّلَ إلى مذهبٍ فِعلاً في التاريخِ أيضًا في المرحلةِ التاريخيّةِ نفسِها. ولكنْ، يَصعُبُ أكثرَ تحديدُ متَى تَحوَّلَ أتباعُه إلى طائفةٍ. ويُمكنُنا القوْلُ إنّه تَبلوَرَ أوّلًا مذهبًا ضدَّ الإسماعيليّة وليس ضدَّ السُنّة، ولكنَّ تحوُّلَه الرئيسَ بوصفِه طائفةً جَرى بين مدٍّ وجزْرٍ، وتحوّلاتٍ كبرى ذاتِ علاقةٍ بالتغيُّراتِ السكّانيةِ والجغرافية، ولكنَّه صعدَ على مسارِ التطييفِ بمَعنى تحويلِه إلى ممارساتٍ يمكنُ لجماعةٍ كبيرةٍ من البشَرِ الالتزامُ بها في خِضمِّ الصراعِ بين الدّولةِ العثمانيّةِ والدّولةِ الصفَويّةِ على العراق. وهذا هو الأخطرُ والأكثرُ تأثيرًا، على الرغم من فُصولِ السّلامِ والمُعاهداتِ الدوليةِ بين العثمانيِّين والإيرانيِّين.

أمّا المرحلةُ الثالثة، فهي مرحلةُ التنظيماتِ وبَدْءُ تحويلِ أهلِ الذّمّةِ إلى جُزْءٍ من كُلٍّ بالمعنَيَيْن، طوائفَ ومواطنين جزئيًّا في الوقتِ عينِه، ثمّ تدخُّلُ الاستعمارِ لحمايةِ ما أصبحَ يُعرفُ فجأةً بالأقلّيات (بلغةِ الأوروبيِّين) وقيامُه بمَأْسسةِ المحاصَصةِ الطائفيةِ في إدارةِ مجلسِ جبل لبنان إثْرَ مذابحِ عامِ ١٨٦٠.

وفي هذه المرحلةِ يَندرجُ تحوُّلُ الطوائفِ الاجتماعيّةِ من جبل لبنان إلى نوْعٍ من الطوائفِ السياسيةِ معَ إعادةِ تعريفِ الغربِ أو استغلالِه لنظامِ الامتيازاتِ ولحمايةِ الطوائفِ في المراحلِ الأخيرةِ من تاريخِ الدولةِ العثمانية، ثمّ تَسْييسِها تمامًا في النظامِ الطائفي السياسي الوحيدِ في المنطقةِ العربيّةِ في لبنان منذُ نشوءِ نظامِ المتصرفيّة وحتّى الآن، على الرغم مِنْ أنَّ الدستورَ اللبنانيَّ الراهنَ المنبثقَ عن اتّفاقِ الطائفِ يقومُ على ضرورةِ إلْغاءِ الطائفيةِ السياسية، ولكنّه يُعيدُ إنتاجَها. وحتّى في التاريخِ اللبنانيّ ما بعدَ الاستقلالِ بعدّةِ سنواتٍ كان التوزيعُ الطائفيُّ عرْفًا، وكان يمكنُ لمسيحي أرثوذكسي مثلَ حبيب أبو شهلا في عامِ ١٩٤٧ أنْ يشغَلَ منصبَ رئيسِ مجلسِ النوّاب، لكنّ الدولةَ اللبنانيةَ مَأْسسَت المحاصَصةَ الطائفيةَ في بناءِ أجهزتِها، كمَا مَأْسَست تشكيلَ المجالسِ الطائفيةِ ذاتِ السلُطاتِ في نطاقِ طوائفِها بأعلى بكثيرٍ ممَّا مارسَتْه سلطاتُ الانتدابِ الفرنسي التي زَرَعت عمليةَ المَحاصصةِ الطائفية.

ويمكنُ مراجعةُ تاريخِ الطوائفِ والطائفيّةِ في العراق والاستنتاجُ بسهولةٍ أنَّه ليس له تاريخٌ في الطائفيّةِ السياسيّةِ، على الرغمِ من أنَّه لَمْ يَخْلُ من الخصومةِ الطائفية، وأنَّ تحويلَ الطائفيّةِ الاجتماعيّةِ إلى طائفيّةٍ سياسيّةٍ هو مِنْ نتائجِ التدخُّلِ الأميركي في العراق وضَرْبِ الدّولة، والتدخُّلِ

الإيراني في المعارضة العراقية قبلَ ذلك، وبعدَه في النظام الذي قامَ بعدَ الاحتلال. ولمْ يتحوَّل النظامُ العراقيُّ إلى نظامٍ سياسيٍّ طائفيٍّ دستوريًّا، بَلْ حصلَ ما هو أسوَأُ؛ فالنظامُ الطائفيُّ الدستوريُّ يمَنَعُ التحوُّلَ الديمقراطي، ويصلبُ المحاصصَةَ لتصمُدَ في وَجْهِ المتغيّراتِ حتّى الديموغرافية، ولكنَّه يضمَنُ على الأقلِّ تمثيلَ الأقلّياتِ وحقوقَها، وغالبًا ما يحميها التوافقُ الطائفيُّ المنظَّمُ إلى أنْ تَثبتَ هشاشتُه؛ ففي العراقِ جرَى تبنِّي نظامٍ ديمقراطي مِنْ حيثُ الشّكْل، فرضه الاحتلال وفرض معه تنظيم السكّانِ سياسيًّا على أساسٍ طائفيٍّ ، وتعامُلِ الدولةِ معَهم على الأساسِ نفسِه، ما جعَلَ الديمقراطيةَ أداةً في تطييفِ الدولةِ وأجهزةِ القمْعِ مع تهميشِ الطوائفِ الأخرى. وهذا بالطبعِ أسوَأُ مِن النظامِ الطائفي. إنّها سياسةٌ طائفيةٌ تُسخِّرُ الديمقراطيةَ الشكليّةَ ولا تقدِّمُ أيَّ حمايةٍ للأقلّياتِ على أنواعِها. وفي العراقِ اعترف مجلس الحكم بالكردِ كقوميةٍ مع أنَّ معظمَهُم سُنّةٌ، بينَما عُدَّ العربُ شيعةً وسنَّة.

-٣-

يُثْبتُ تاريخُ المشرقِ العربي أنَّ التديّنَ السياسي، بغَضِّ النظرِ عَنْ نُشوئه، إذَا وقعَ في مجتمعاتٍ متعدّدةِ الطوائفِ وتُعاني أصلًا مِنْ عدمِ استقرارٍ في هُويّتِها الوطنيةِ أو القوميةِ، فإنَّه يَؤُولُ بالضرورةِ إلى طائفيةٍ سياسيةٍ، حاملًا معه فكرَه السياسيَّ الديني، سواءٌ أكانَ سلَفيًّا أمْ أصوليًّا أمْ إصلاحيًّا... ويَستخدِمُ الطائفيّةَ في التحشيدِ خلْفَه. وفي حالةِ السلفيّةِ الجهاديةِ التي امتدَّتْ مؤخّرًا إلى دولِ المشرقِ والْتقَتْ مع صعودِ قوّةِ الطائفيةِ وتراجُعِ الدولةِ الوطنيةِ وضعفِها في زمَنِ الثّورات، ولا سيَّما حيثُ ارتبطَتْ وحدةُ الدولةِ بالاستبدادِ، وقَعَ لقاءٌ شديدُ الانفجارِ بين السلفيّةِ الجهادية والطائفيّة.

قبْلَ حصولِ هذا اللّقاءِ، حادَتْ الطائفيةُ الاجتماعيةُ والسياسيةُ المتولّدةُ عَنْ تهميشِ الغالبيةِ في ظلِّ استبدادٍ في مجتمعٍ متعدِّدِ الطوائف، بالنضالِ التحرُّري عن هدفِه الأصلي، وهو التحرّرُ من الاستبدادِ وإقامةُ نظامٍ سياسي يحفظُ حقوقَ الناسِ المدنيةَ وكرامتَهم وحرياتِهم. ولكنَّ السلفيةَ الجهاديةَ في حالةِ السياسةِ الطائفية، لا تُهمِّشُ عنصرَ التحرّرِ في النضالِ ضدَّ الاستبدادِ وحَسْب، ولا تَحْرفُ النضالَ الثوريَّ عَنْ هدَفِه الأصلي من أجلِ التحرُّرِ من الاستبدادِ إلى نزعاتٍ طائفيةٍ وحَسْب، ولا تكتفي بالمطالبةِ الطائفيةِ بإشراكِ الطوائفِ المضطَهَدةِ بحصّةٍ أكبرَ، بَلْ تذهبُ إلى نَفْيِ الآخرِ وتكفيرِه. وليس ذلك من شروطِ اللُّعبةِ الطائفية.

إنَّها لا تَعترفُ بالطوائفِ الأخرى أصْلًا، بل تجري عليها أحكام أهلِ الذّمّةِ في أسوَإِ تفسيراتِها الفقهيّةِ والسلوكيةِ وأفظَعِها، مستلهمةً مِن أسوإِ المراحلِ في تطبيقِها في التاريخِ الإسلامي، والتي

غالبًا ما تنسب إلى أكير الحكَّام تَقْوى في خِطاب الجماعات الإسلامية، وأكثرُهمْ تقرُّبًا من العلماء المتشدِّدينَ والعامّة بحْثًا عن الشرعيّة. (عمر بن عبد العزيز، والمتوكّل، وفتاوى ابن تيمية في مذبحة كسروان في عام ٥٠٧ هـ/١٣٠٥م، وتعصّب سياسات سلاطين المماليك ضدَّ الجماعات الأخرى مسيحيةً وإسلامية).

يُضافُ إلى ذلك أنَّ الطائفيةَ ترتبطُ تاريخيًّا بموجب تحليلنا برَسْم حدود الطوائف واستقرارها ثمّ سَعْيها لتحصين منزلة ومكانة وحصّة ضمنَ الكُلِّ الجديد ألَا وهو الدولةُ الوطنيّةُ، ولَوْ على حساب حقوق أفرادها. أمَّا هذا النمطُ الهَجينُ من الطائفية والسلفيّة الجهادية، فتقليد مشوه مسيس للفتوحات وحملات الدعوة ونشْر الدين. وهذا ليس مرتبطًا بالضرورة بالطائفية. هذا إذا استثنينا تركيب الظاهرة سياسيا من قبل عوامل سياسية. وعلى كل حال اجتذبت هذه الظاهرة الفظيعة من الاهتمام الإعلامي والمخاوف الحقيقية والمضخمة ما غطى على جرائم أفظع بكثير (كما ونوعا، إذا صح هذا التصنيف) ارتكبها الاستبداد.

كمَا أنَّ هؤلاء قَتلوا مِنْ السنة في سورية والعراق، أي «طائفتهم» المفترَضة المتخيَّلة، أكثرَ ممَّا قتَلُوا من أبناء الطوائف الأخرى؛ فَهُمْ تكفيريّونَ وليسُوا طائفيِّينَ فحَسْب. إنَّهم يمثِّلون نُكوصًا إلى مرحلة ما قبلَ الطائفية التي نَعرفُها إلى مرحلة الحروب الدينية. هذا إضافةً إلى أنَّهم لا ينتَمونَ لأيِّ حدود معروفة لطائفة، بل يمثِّلونَ إحياءً كارثيًّا مشوّهًا لمَفهوم الأمّة والخلافة، ما قبْلَ الدولة، وما قَبْلَ حتّى الطائفية المعترضة على الدولة. ولا يُمكنُ أنْ تنتهيَ هذه الردَّةُ الكبرى عن التمدُّن العربي إلّا بمَأْساة.

وهي تثيرُ نقاشًا مستمرًّا بخصوص تشويهها الإسلامَ الحقيقيَّ. فهَلْ مِنْ شيءٍ اسمُه الإسلامُ الحقيقي؟ لا شكَّ في أنَّ كلَّ ممارسة يقومُ بها تنظيمُ الدولة الإسلامية في العراق والشام يوجدُ لها سنَدٌ في كتابات السلَف، وفي ممارسات بعضِ السلَف. مع أنَّه سنَدٌ انتقائيٌّ واستنسابيٌّ واستدعائيٌّ خارجَ تاريخه بكلِّ تأكيد... وبرَأْيي، فإنَّ مسألةَ ادِّعاء الإسلام الحقيقيِّ هيَ في الأصل زائفةٌ؛ لأنَّها تخلطُ بينَ الدّين - بالأحرَى فَهْم الدّين - والتديُّن، قَدْ وصلَتْ معَ «داعش» إلى نهايَتها القُصْوَى الكارثيَّة، وليس لدَيَّ شكٌّ في أنَّه سوف تَجري بعدَها مُراجعاتٌ علَنيّةٌ لأُمورٍ كثيرةٍ كان مَسكوتًا عَنْها في تاريخِنا.

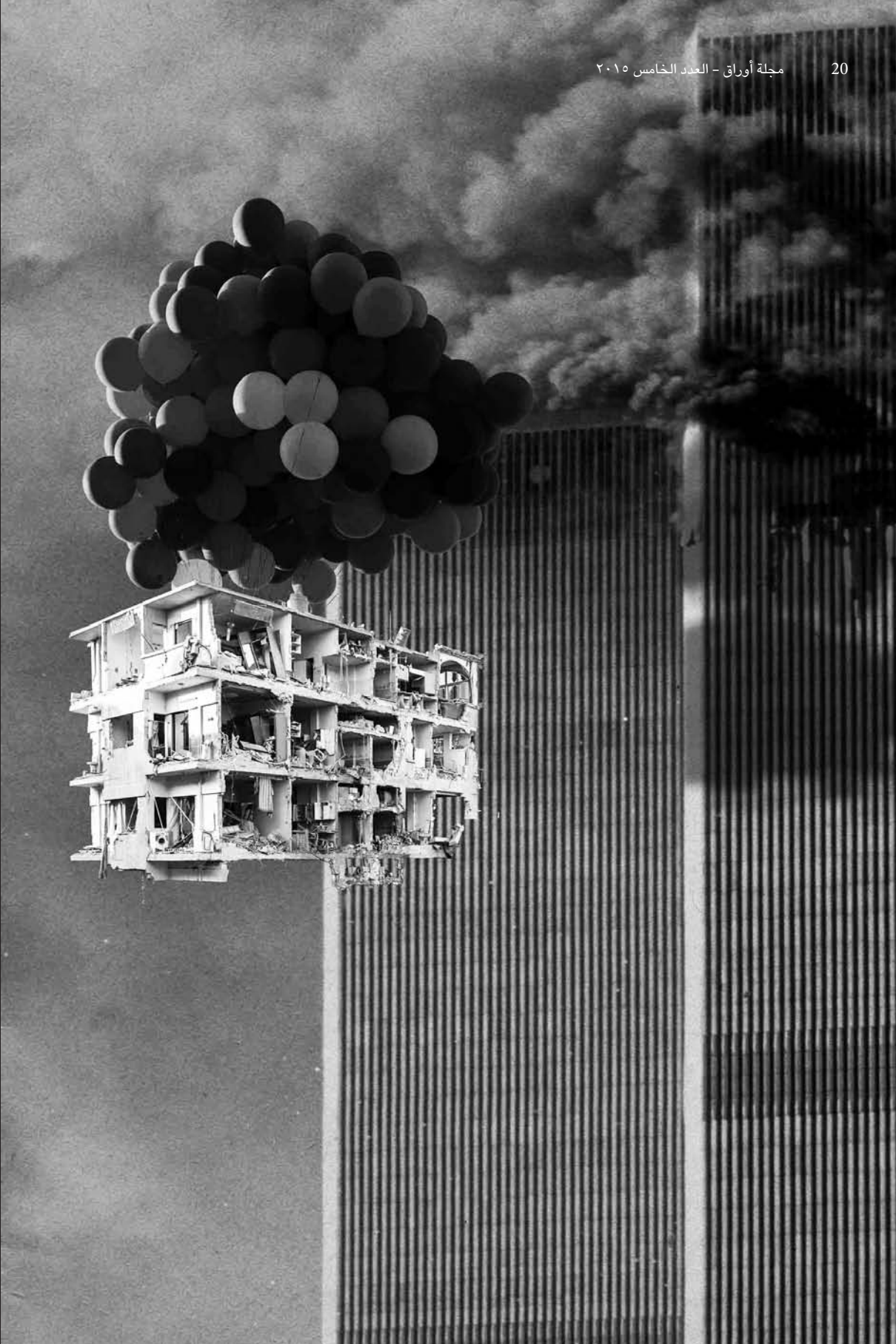

أوراق البحث

د. محمد عناد سليمان

اصطلاح لـم يكـن مسـتخدماً أيـام الصحابة فمـن أيـن جاء؟ في تناقضات مسألة الخلافة

إنَّ موضوع «الخلافة» وما أثيرَ حوله من خلافات كبيرة تجعل من الأهميّة بمكان البحث في مضمونه، ومعرفة حقيقته، وتمييز غثِّه من سمينه، وترك غثِّه، وما علق به من أوهام بعض العلماء، فكانت السِّياسة حاضرة فاعلة، ممَّا دفع بعضهم إلى اتِّخاذ سبيل التَّأويل المتناسب مع ما تراه كلُّ طائفة منهم.

وأرى أنَّ مسألة «الخلافة» كانت سببًا في انقسام الأمَّة الإسلاميَّة بعد وفاة النَّبيّ صلى الله عليه وسلم، وما جرى من حوادث تاريخيَّة، لا تزال آثارها مستمرَّة إلى اليوم؛ بل إنَّ معظم ما تعيشه الأمَّة في عصرنا من ويلات ومصائب تكاد تعود إليها.

ونشير إلى أنَّ المقال لن يتطرَّق إلى خلافات «السنَّة» و«الشِّيعة» في مسألة «الخلافة»، وأحقيَّة كلّ منهما، أو البحث في شروط «الخليفة» التي بلغت «أحد عشر» شرطًا، وأدلَّة كلّ فريقٍ منهما في جعل جادة الصَّواب تميل إليه، بل قد نكتفي بما يحتاجه البحث من ذلك على سبيل الاستشهاد، وليس على سبيل البحث والنَّقد والتَّفنيد.

وإنَّما القصد من المقال التَّحقيق في أصل المسألة، ووجودها، وهل أصاب الفريقان في الذهاب إلى القول بها، والبحث في الأدلَّة التي زعموا أنَّها تشير إليها، ومن ثمَّ بنوا خلافاتهم عليها.

والحقُّ الذي نراه كما سيأتي بيانه، أنَّ المسألة في رمّتها غير واقعة، ولا وجود لها؛ بل إنَّ القوم ابتدعوها في عصور متأخّرة، ثمَّ حاولَ كلُّ فريق منهم أن يثبت وجهة نظره من خلال إخضاع «القرآن الكريم» لتأويل يتناسب مع ما يذهب إليه، إو إيجاد الأحاديث ونسبتها إلى النَّبيّ صلى الله عليه وسلم، لتثبيت رأيه، وأنَّ «الخلافة» من نصيب من يراه كلُّ منهم.

وعند العودة إلى ما اعتمدوه من أدلَّة وجدناهم قد اتَّخذوا من قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} البقرة. ٣٠، دليلا على ضرورة وجود «خليفةٍ» في الأرض يقوم بمهمة استلام زمام الأمور فيها، وتؤول العباد إليه في أمورها وشؤونها، ثم حاول الفريقان إثبات أنَّ «الخلافة» مختصَّة بعد وفاة النَّبي صلى الله عليه وسلم بما يراه كلُّ فريق أنَّه صاحب الحقّ في ذلك، وعليه درجت الأمَّة في خلافها حتى يومنا الحاضر.

ومن ذلك ما نصَّ عليه القرطبيُّ بقوله: «هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة، يسمع له ويطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمَّة، ولا بين الأئمَّة، إلا ما روي عن الأصم، حيث كان عن الشَّريعة أصم، وكذلك من قال بقوله، واتَّبعه على رأيه ومذهبه، قال: إنَّها غير واجبة في الدِّين، بل يسوغ ذلك، وأنَّ الأمَّة متى أقاموا حججهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفيء والصَّدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه، أجزأهم ذلك، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماما يتولَّى ذلك». ولا أدري سبب تحامل القرطبيُّ رحمه الله على الأصمّ حتى يردَّ عليه بمثل ما قال!

وللوقوف على حقيقة هذه المسألة وجوهرها، وهل يصحُّ أن تكون هذه الآية دليلا على قضيَّة الخلافة أم لا، رأينا أن نعود إلى البحث في تفسيرها، ومعرفة معانيها، من خلال ما تضمَّنته كتب التَّفاسير، وما عوَّلتْ عليه في ذلك، ومحاولة إيضاحها اعتمادًا على منهجنا في «تفسير القرآن بالقرآن».

قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}:

اختلف أهل العلم من النّحويِّين واللُّغويِّين في إعراب «إذ» في مطلع الآية على أكثر من وجه، وكلٌّ له مبرِّراته وأسبابه، وكلُّ يُرد عليه، والإعراب مفضٍ إلى المعنى، لا أن يكون المعنى مطواعًا له.

الأول: ذهب أبو عبيدة وابن قتيبة إلى أنَّها زائدة، وردَّه الطَّبريّ بقوله: «والأمر في ذلك بخلاف ما قال، وذلك أن «إذ» حرف يأتي بمعنى الجزاء، ويدلّ على مجهول الوقت، وغير جائز إبطال حرف كان دليلاً على معنى الكلام». وكذلك ردَّ النَّحَّاس ما ذهبا إليه فقال: «هذا خطأ». وقال الزَّجَّاج: «هذا اجتراء من أبي عبيدة». وقال القرطبيّ: «ردَّه جميع المفسِّرين». أمَّا أبو حيّان

فقد وصف هذا الوجه بأنه «ليس بشيء» بل زاد فقال: «وكان أبو عبيدة وابن قتيبة ضعيفين في علم النَّحو».

الثَّاني: أنَّ «إذ» هنا بمعنى «قد»، والتّقدير: وقد قال ربُّك، وقال أبو حيَّان: «وهذا ليس بشيء».

الثَّالث: أنَّها متعلِّقة بفعل تقديره «اذكر»، وقال أبو حيَّان: «هذا ليس بشيء؛ لأنَّ فيه إخراجها عن بابها، وهو أنَّه لا يتصرَّف فيها بغير الظرفيَّة، أو بإضافة ظرف زمان إليها. إلا أنَّ الزمخشريّ في الكشاف، وابن عطية في المحرَّر قد أجازا ذلك».

الرَّابع: أنَّها ظرف، في موضع الرَّفع والتّقدير: ابتداء خلقكم، أو في موضع نصب، والتّقدير: وابتداء خلقكم إذ قال ربُّك. وهو مناسب لقوله تعالى: «خلق لكم ما في الأرض جميعا».

الخامس: إنَّ «إذ» متعلّقة بالفعل «قال» بعدها، وردَّه أبو حيَّان، معلِّلا ذلك بأنَّ «إذ» مضافة إلى الجملة بعدها، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف.

السَّادس: أنَّ «إذ» متعلِّقة بالفعل «أحياكم»، والتَّقدير: وهو الذي أحياكم إذ قال ربُّك، ووصفه أبو حيَّان بقوله: «ليس بشيء؛ لأنه حذفٌ بغير دليل، وفيه أنَّ الإحياء ليس واقعًا في وقت قول الملائكة، وحذف الموصول وصلته، وإبقاء معمول الصِّلة».

السَّابع: أنَّ «إذ» معمول لـ«خلقكم» والتَّقدير: اعبدوا ربَّكم الذي خلقكم إذ قال ربُّك، وعليه فإنَّ «الواو» حينئذٍ زائدة، ويكون قد وقع الفصل بين العامل والمعمول بهذه الجمل.

وقد استطردتُ في ذكر هذه الوجوه لنعلمَ حجمَ الاختلافات التي وقع فيها أهل العلم في تفسير كثير من آيات «القرآن الكريم»، والذي بنوا عليه فيما بعد خلافات فقهيَّة أدَّت إلى توسيع الفجوة بين الأمَّة، وراح كلُّ فريق يدعم رأيه بتأويله الذي يراه مناسبًا، فابتعدوا في جملتهم عن جادَّة الصَّواب، فوقعوا فيما أسميناه «تحريف القرآن بالتَّأويل».

إضافة إلى أنَّه يُردُّ على من يرى أنَّ قولهم لا يُردُّ، وأنَّ ما جاؤوا به هو الحقُّ الذي لا مِراء فيه، وهذا أبو حيَّان يقول بعد كل هذه الوجوه: «فهذه ثمانية أقوال ينبغي أنْ ينزَّه كتاب الله عنها»، ثم يذكر الوجه الذي يراه مناسبًا لسياق الآيات. وما أدري كيف جاز له أن يطلق مثل هذا الحكم والقائل ببعض هذه الوجوه من أكابر علماء اللُّغة والنَّحو والتَّفسير؟! بل إنَّه يجعل الوجه الذي ذهب إليه لم يسبقه أحدٌ فيه، فيقول: «فانظر إلى حسن هذا الوجه السَّهل الواضح، وكيف لم يوفَّق أكثر النَّاس إلى القول به، وارتبكوا في دهياء، وخبطوا خبط عشواء».

والمرجَّح عندنا عدم القول بزيادتها؛ لأنَّ ليس في «القرآن» ما ليس له معنى، ولا يجوز القول بالزِّيادة في أي حرف فيه، والله تعالى أعلم.

أمَّا قوله تعالى «جاعل» فذهبوا فيه مذهبين:

الأوَّل أنَّه بمعنى «خلق»، وهو حينئذ متعدٍ إلى مفعول واحد، وهو قول أبو روق، حيث يرى أنَّ كلَّ شيء ورد في القرآن بلفظ «جعل» فهو بمعنى «خلق»، وإليه ذهب الحسن وقتادة فيما يرويه الطَّبريّ والقرطبيُّ وابن كثير في تفاسيرهم.

الثَّاني: أنَّه بمعنى «صيَّر»، وهو حينئذٍ متعد إلى اثنين، وهو قول الفرَّاء والزَّمخشري والرَّازيّ، ورجَّح أبو حيَّان القول الأوَّل، حيث قال: «وكلا القولين سائغ، إلا أنَّ الأوَّل عندي أجود، لأنَّهم قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها، فظاهر هذا أنَّه مقابل لقوله: جاعل في الأرض خليفة، فلو كان «الجعل» على معنى التَّصيير لذكره ثانيًا».

والذي نراه أنَّه بمعنى «صيَّر» كما ذهب إليه الطبَّريّ، خلافًا لأبي حيَّان ومن وافقه، لأنَّ منهج «تفسير القرآن بالقرآن» يدلُّنا عليه، فقد ورد في هذا المعنى قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً} البقرة ١٢٤. وقوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} آل عمران٥٥. وقوله أيضًا: {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً} الكهف ٨. وقوله: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } القصص٧. وقوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ} فاطر١.

وذهب قوم إلى أنَّ المقصود بـ«الأرض» «مكة المكرَّمة»، رواه الطَّبريّ عن عطاء عن ابن سابط مرفوعًا إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم حيث قال: «دحيت الأرض بمكَّة، وكانت الملائكة تطوف بالبيت، فهي أوَّل من طاف به، وهي الأرض التي قال الله: إنِّ جاعل في الأرض خليفة». وعلَّل ذلك بـ«أنَّ النبيّ إذا هلك قومه، ونجا هو والصَّالحون أتاها هو ومن معه، فعبدوا الله بها حتى يموتوا، فإنَّ قبر نوح، وهود، وصالح، وشعيب، بين زمزم والركن والمقام». وقال بعضهم: لذلك سمِّيت «بكَّة»؛ لأنَّ الأرض بكت من تحتها.

وقد سرد أهل التَّفسير فيها أقوالا كثيرة، منها أنَّ «مكَّة» أوّل بيت وضع للنَّاس، وأنَّ الله خلق البيت قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدة بيضاء على الماء، فدحيت الأرض تحته. وقيل: هو أوَّل بيت بناه آدم في الأرض. وقيل: لما أهبط آدم إلى الأرض قالت له الملائكة: طاف حول هذا البيت، فلقد طفنا قبلك بألفي عام، وغير ذلك من الأقاويل التي لا تثبت عند التَّحقيق، والله تعالى يقول: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} البقرة ١٢٧. ويؤيِّده حديث أبي ذر، «قلت يا رسول الله، أيُّ مسجد وضع أوَّل؟ قال: المسجد الحرام. قلتُ: ثمَّ أيّ؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة»، ممَّا يدلُّ

على موافقته للآية السَّابقة من أنَّ «إبراهيم» عليه السَّلام أوَّل من بنى البيت الحرام. والله أعلم.

والرَّاجح أنَّ الأرض في ظاهرها مرادٌ بها العموم، وليستْ أرضًا خاصَّة بها؛ لأنَّ «القرآن الكريم» قد أورد هذه اللّفظة في جميع آياته بمعنى العموم وليس الخصوص، إضافة إلى أنَّه لو وجب القول بأنَّ المقصود «مكَّة» بعينها للزم على ذلك أن يكون «الخليفة» فيما بعد خاصًّا بها دون غيرها، وهو بعيد، والله تعالى أعلم.

أمَّا قوله تعالى «خليفة» فهي المراد في هذا البحث، والتَّعويل عليها؛ لأنَّ القوم جعلوا منها دليلا على ضرورة وجود «خليفة» في الأرض يقوم بأحكامه وتنفيذ وصاياه، وسنذكر ما قالوه في ذلك، ثم نبيِّين ما هو الرَّاجح فيها، والمقصود منها.

وكما أنَّهم درجوا على الاختلاف في التَّفسير وبناء الأحكام في معظم آيات «القرآن الكريم فكذلك اختلفوا في معنى «الخليفة»، فرأتْ جماعة من أهل العلم كالطَّبري والرَّازي والبغويّ أنَّ «الخليفة» بمعنى «خالف»، أي: يقوم مقام غيره في أمر من الأمور، بينما ذهب آخرون إلى أنَّها بمعنى «مفعول» أي: مخلف، كما في قولهم: ذبيحة، بمعنى: مذبوحة. وذكر هذان الاحتمالان القرطبي وأبو حيَّان.

والصَّحيح أنَّها بمعنى «مفعول»؛ لما ذكره المبرِّد في مقتضبه حيث قال: «وذلك أنَّ فعيلاً هو اسم الفاعل من الفعل الذي لا يتعدَّى، أي: الفعل اللازم الذي لا يحتاج مفعولا به، وعليه فإنَّ «فعيل» لا يكون اسم «فاعل» من الفعل المتعدِّي ك«خَلَفَ»، ويمكن أن يُصاغ منه اسم «المفعول» بمعنى «فعيل»، و«خليفة» على وزن «فعيل» لكن بمعنى «مفعول».

وتفرَّع عن اختلافهم في معنى «الخليفة» اختلافهم فيمن هو «الخالف»، فذهب بعضهم كابن مسعود وابن عبَّاس والسُّدّي وكثير من أهل العلم إلى أنَّه آدم عليه السَّلام، وأنَّه خليفة الله «في إمضاء أحكامه وأوامره؛ لأنَّه أوَّل رسول إلى الأرض»، وذكره القرطبيّ ومال إليه، وادَّعى أنَّ هذا القول هو مذهب جميع أهل التَّأويل.

ونلاحظ أنَّ القرطبيَّ رحمه الله قد حاول بقوله: وهو مذهب جميع أهل التَّأويل، أن يغضَّ الطَّرف عمَّن خالفهم في ذلك، أو يكون رأي المخالف لم يصله بعد، وهو بعيد، وما قاله ليس بصحيح.

ثمَّ ذكر حديثًا لأبي ذرّ فقال: «قلت: يا رسول الله، أنبيًا كان مرسلا؟ قال: نعم. ويقال: لمن كان رسولاً ولم يكن في الأرض أحد؟ فيقال: كان رسولاً إلى ولده، وكانوا أربعين ولدًا في عشرين بطنًا، في كل بطن ذكر وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا»، ثم قال: «هكذا ذكر أهل التَّوراة وروي عن وهب بن منبه أنَّه عاش ألف سنة». ولا شكَّ أنَّ هذا بعيد، وكما أشار أنَّه مأخوذ عن أهل التَّوراة. وكذلك رأى البغوي أنَّه الصَّحيح، فقال: «والمراد بالخليفة هنا آدم، سمَّاه خليفة؛

لأنَّه خلف الجن، أي جاء بعدهم، وقيل: لأنه يخلفه غيره. والصَّحيح: أنَّه خليفة الله في أرضه؛ لإقامة أحكامه، وتنفيذ وصاياه».

ولا شكَّ أنَّ اختلافهم في ذلك نابع من فهمهم لمعنى «الخليفة» من أن يكون «خليفة» لسابق، فوقعوا في أشياء عجيبة لا تثبت عند التَّحقيق، من ذلك أنَّ «آدم» عليه السَّلام جاء ليخلفَ «الجنّ» بعد أن نفاهم الله من الأرض، كما أشار البغويّ، أو يخلف «الملائكة»، أو يخلف «الله» سبحانه وتعالى في الحكم بين المكلَّفين من خلقه، وهو مرويّ عن ابن مسعود، وابن عبّاس، والسُّدِّي. بل قال أبو حيَّان: «وقيل: الخليفة اسمٌ لكلِّ من انتقل إليه تدبير أهل الأرض، والنَّظر في مصالحهم، كما أنَّ كلّ من ولي الرُّوم: قيصر، والفرس: كسرى، واليمن: تبَّع». وقال ابن كثير أيضًا: «ومن ذلك قيل للسُّلطان الأعظم خليفة؛ لأنَّه يخلف الذي كان قبله». وما قالاه بعيد لما فيه من التكلُّف، وإيجاد معنى جديد لم يألفه أهل اللُّغة.

بينما ذهب آخرون إلى أنَّ المراد «بنو آدم»، ومنهم ابن كثير حيث قال: «وليس المراد هنا بالخليفة آدم عليه السَّلام فقط»، «بل الخلاف في ذلك كثير، حكاه فخر الدّين الرَّازي في تفسيره وغيره، والظَّاهر أنه لم يردْ آدم عينًا».

وما ذهب إليه ابن كثير هو الرَّاجح الذي نراه صوابًا لسببين:

الأوَّل: ما ذكره علماء اللغة والنَّحو وبعض أهل التَّفسير من أنَّ «خليفة» بمعنى «مفعول» ويكون المعنى: سيخلف آدم من بنيه جيلا بعد جيل، وهو المناسب لتتمَّة الآية في قوله تعالى: {قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} البقرة ٣٠. وبالاعتماد على منهج «تفسير القرآن بالقرآن» نجد ما يؤيِّد ذلك كقوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} ص٢٦. ومن المعلوم أنَّ «داود» عليه السَّلام لم يخلفْ أحدًا، ولم يسبقه أحدٌ في الحكم ليكون «خليفة» له. وقد ورد هذا المعنى بلفظ الجمع في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} الأنعام ١٦٥، وزعم السِّيوطي أنَّ المراد جمع «خليفة»، أي: يخلف بعضكم بعضًا، ومنه قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} يونس١٤. وقوله: {فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ} يونس٧٣. ومنه أيضًا: {هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً} فاطر٣٩.

ومن هنا نجد أنَّ «آدم» عليه السَّلام مخلوق ليكون «خليفة» في الأرض، أي تخلفه أجياله التي تتوارث الأرض بعده، وتسكنه جيلا بعد جيل، فهو ليس بديلا مكان أحد في الأرض، وبهذا المعنى يمكن نفي جميع المعاني التي اصطنعها المفسِّرون، واجتهدوا في إيجادها، فابتعدوا

عن المعنى المراد منها، كما يقتضيه السِّياق، وكما يفسِّره «القرآن» نفسه، وهو ما ذهب إليه الحسن البصريّ.

الثَّاني: عند التَّحقيق في معنى «خليفة» لغويًا نجد أنَّها لم تأتِ بمعنى الحاكم، أو صاحب الولاية كما نحا إليه المفسّرون ومن ذهب مذهبهم، فقد قال ابن فارس في مقاييسه: «خَلَفَ، الخاء، واللام، والفاء، أصول ثلاثة، أحدها: أن يجيء شيء بعد شيء، يقوم مقامه. والثَّاني: خلاف قدَّام. والثَّالث: التَّغير ومنه الحديث: لخلوف فم الصَّائم أطيب عند الله من ريح المسك».

فلا نجد عنده ما ذكره الطَّبريُّ وأبو حيَّان وابن كثير وغيرهم من أنَّ «الخليفة» بمعنى السُّلطان الأعظم، مما يشير إلى أنَّه معنى طارئ، ومستحدث، لم يكن معهودًا لدى أهل العلم فيما سبق، إضافة إلى أنَّ الآية الكريمة السَّابقة تأباه، ولا تحتمل إلا الوجه الثَّالث في نصِّ ابن فارس، ويدعم ما ذهبنا إليه من أنَّ المراد بـ«جاعل» معنى «صيَّر».

إضافة إلى أنَّ أحدًا لم يسمِّ أبا بكر رضي الله عنه بـ«الخليفة» المراد بها السُّلطان الأعظم؛ يدلُّنا عليه أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه لما تولَّى زمام الأمور استبدلها بكلمة «أمير المؤمنين» لعلمه أنَّها لا تعني الحاكم أو صاحب السُّلطة.

وبالتَّالي إسقاط نظريَّة ضرورة «نصب خليفة» كما ذهب إلى ذلك ثلَّة من العلماء، وخالفهم «الأصمُّ» في ذلك، إضافة إلى ما عليه واقع الحال من أنَّ معظم من يدَّعي من أهل العلم أنَّ الحاكم القائم هو «الخليفة» هو مخالف لأحد الشُّروط المعروفة أن يكون «قرشيًا».

ولعلَّ من أقوى الأدلَّة على بُعد ما ذهبوا إليه في تفسير الآية السُّؤال التَّالي: إذا كان المقصود بـ«الخليفة» أن يقوم بأوامر الله وتنفيذ وصاياه في الأرض، أليس رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى النَّاس بهذا اللَّقب؟! لمَ لمْ نجد وثيقة تاريخيَّة أو دينيَّة تثبت لنا تسميتَه بذلك؟ لماذا لا نجدُ وثائق تاريخيَّة أيضًا تشير إلى أنَّ «الخلفاء» قد سمُّوا فترة حكمهم بعهد «الخلافة»؟! أليس من أطلق «الخلافة الرَّاشدة» أراد أن يدخل نفسه في حيِّز «الخلافة» وإن لم تكن راشدة؟ إذا كانت تسمية الخلافة أو الإمامة غير معروفة في عهد الصحابة الأوَّل فمن أين جاءت؟ ومن أراد لها أن تكون موضع خلاف سياسيّ في الأمَّة لا ينتهي إلا بانتهائها؟

علي العبدالله

أوكرانيا: بؤرة صراع

ظهرت أوكرانيا كدولة مستقلة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١ وقد كانت، بسبب موقعها وعدد سكانها (٤٦ مليون نسمة)، تحتل موقعاً هاماً في حلف وارسو، بما في ذلك المشاركة في تقسيم عمل في مجال الصواريخ النووية، ونشر شبكة صواريخ بالستية تحمل رؤوساً نووية على أراضيها، ناهيك عن علاقات تاريخية عميقة مع روسيا: ولادة الأمة الروسية والكنيسة الأرثوذوكسية، التي غدت الكنيسة القومية الروسية بعد اعتناق الأخيرة للمسيحية، في اوكرانيا، فقرب ميناء سيفاستوبول في شبه جزيرة القرم، تقول الأسطورة الروسية، تم تعميد الأمير فلاديمير في عام ٩٨٨، في أولى خطوات دخول المسيحية لهذه البلاد. وقد مثّل استيلاء الروس على جزيرة القرم في ١٧٧٣ تطوراً كبيراً في مصائر روسيا، التي أصبح لها للمرة الأولى ميناء في المياه الدافئة وأسطول قرب المتوسط[١].

تغيرت معادلة القوة بين روسيا وأوكرانيا بفعل التحول والتغير الذي طرأ على روسيا وتوسعها على حساب شعوب الجوار، ولكن العلاقة بينهما ظلت متينة، فقد غدا لروسيا نفوذ كبير فيها، سواء على مستوى الأشخاص النافذين أو على مستوى المؤسسات. ولكن قاعدتها الأكثر وثوقاً وقوة تمثلت في الأقلية الروسية، التي تصل نسبتها إلى ١٧,٣ في المائة من السكان، وتتمركز في شبه جزيرة القرم وأقاليم الشرق المحاذية لروسيا، ففي هذه الأخيرة، على وجه الخصوص،

لا تتحدث أغلبية السكان اللغة الروسية وحسب، بل إن صلات السكان التجارية، الصناعية، العائلية بروسيا عبر الحدود، تمتد إلى عقود طويلة، وربما قرون.

تشابك مصالح

كانت روسيا وما زالت حريصة على تعزيز هذا النفوذ، وبناء علاقة سياسية مستقرة ودائمة مع أوكرانيا، سواء على مستوى العلاقات الثنائية، أم ضمن إطار الاتحاد الأوراسي، الذي تصور الرئيس الروسي فلاديمير بوتين أن أوكرانيا ستكون حجر زاويته. بدون أوكرانيا، في الحقيقة، يفقد الاتحاد الأوراسي معناه كلية، بسبب الأهمية الجيوستراتيجية الكبرى لأوكرانيا، باعتبارها الممر السهلي لروسيا باتجاه أوروبا الغربية، وقد قال زبيغنيو بريجنسكي، مستشار الأمن القومي الأمريكي في إدارة الرئيس جيمي كارتر ١٩٧٧- ١٩٨١: «دون أوكرانيا لن تكون روسيا دولة عظمى». فأوكرانيا، بالنسبة للرئيس الروسي، تقع في نطاق دبلوماسية «الجوار القريب» التي اعتمدتها روسيا منذ عهد القياصرة. وهذه الدبلوماسية اتخذت، بعد الحرب العالمية الثانية، شكلين ظاهرين؛ إما بسط هيمنة موسكو بـ«الواسطة» على دول «الجوار القريب» - كما كان الحال مع أوكرانيا وما هو حالياً مع طاجيكستان وأبخازيا وأوسيتيا الجنوبية في منطقة القوقاز- أو تحييدها قسراً ومنع انضمامها إلى حلف الناتو، كما هو الحال مع فنلندا وبيلاروسيا[٢].

والعلاقات الروسية – الأوكرانية لا يمكن حصرها، كما ذهب البعض، بالمكاسب أو الخسائر الاقتصادية المتوقعة تبعاً لطبيعة التقارب أو التباعد بين البلدين، لأن الترابط العضوي الذي ترسخ على مدى قرون يضع أوكرانيا في رأس قائمة أولويات روسيا. فقد ظلت العلاقات بين البلدين أشبه بعلاقات بلد واحد تفصل أطرافه حدود وحواجز وقوانين محلية، فقرابة نصف سكان الأقاليم الشرقية يتكلمون اللغة الروسية ويتطلعون إلى تعزيز التقارب مع موسكو، وهذا لعب دوراً رئيساً في تحويل أوكرانيا إلى ساحة نفوذ أساسية للروس، ونافذة حيوية على أوروبا لا يمكن فصلها من دون إلحاق أضرار كارثية بروسيا نفسها، لأن التحاق أوكرانيا بالاتحاد الأوروبي سيعني التزامها بعدد من المواثيق المشتركة، التي من بينها اتخاذ سياسات دولية وإقليمية تعارض مصالح موسكو، كما يرجّح كثيرون أن الخطوة التالية ستكون الانضمام إلى حلف الناتو، ما يعني إحكام تطويق روسيا عسكرياً، ونشر الصواريخ الغربية تحت نوافذ الكرملين مباشرة[٣].

وعلى الصعيد الاقتصادي – الصناعي، ثمة خسائر لا تعوض أيضاً. إذ تميز النموذج السوفياتي بإقامة مجمعات صناعية ضخمة موزعة في فضائه، وبعد انهيار الدولة السوفياتية تلاشت غالبية هذه المجمعات العملاقة، إذ لم يعد ممكناً استمرار مجمع صاروخي في العمل مثلاً عندما تنتج أجزاء منه في ضواحي موسكو وأجزاء أخرى في كازاخستان أو في أوكرانيا أو بيلاروسيا. أما المجمعات الأخرى التي ورثتها أوكرانيا وما زالت تشكل قاعدة صناعية كبرى فظلت مرتبطة

بصناعات مختلفة في بلدان أخرى على رأسها روسيا. مثلاً تقوم مصانع أوكرانية بتقديم تقنيات لازمة لصناعة المحطات الكهروذرية الروسية، ولمجمعات الصواريخ وغيرها من الصناعات الحيوية لاقتصادي البلدين. ما يعني أن تداعيات انضمام أوكرانيا إلى الاتحاد الأوروبي ستكون كبيرة وخطيرة. في الوقت ذاته، فإن السوق الأوكرانية من أضخم الأسواق بالنسبة إلى الصناعات الروسية التي لن تكون في الغالب قادرة على منافسة الصناعات الأوروبية إذا سارت الأمور وفق السيناريو السيئ للروس، ما يعني خسائر كبيرة لقطاعات مهمة وحيوية سيكون عليها البحث عن أسواق جديدة لتعويض خسائرها الفادحة[٤].

وما زاد في تعقيد الحالة حجم التداخل الاقتصادي الروسي الأوكراني الأوروبي، فالتجارة الأوكرانية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بروسيا وأوروبا على حد سواء، فنحو ٦٠ في المائة من حجم التجارة الأوكرانية تتم مع بلدان الاتحاد السوفياتي السابق، كما أن أغلب منتجاتها الصناعية تأتي من المناطق الشرقية للبلاد ذات الكثافة الصناعية الكبيرة، هذا بالإضافة إلى الروابط الشخصية التي تجمع عدداً كبيراً من المواطنين الأوكرانيين في الأقاليم الشرقية بروسيا المجاورة، فيما تظل أوروبا بالنسبة لهؤلاء بعيدة جداً[٥]. أوروبا من جهتها ما زالت تعتمد اعتماداً كبيراً على الغاز والنفط الروسيين. فالاتحاد الأوروبي يُعَد من الشركاء الاقتصاديين والتجاريين الكبار لروسيا، حيث تبلغ حصته في التجارة الخارجية الروسية نحو ٥٠ في المائة. ونلاحظ هنا أن موارد الطاقة تمثل أساس هذه العلاقات عموماً، فنحو ٣٦ في المائة من الغاز، و٣١ في المائة من النفط، و٣٠ في المائة من الفحم من واردات دول الاتحاد الأوروبي مصدره روسيا. وهذا يمثل ٨٠ في المائة من إجمالي صادراتها النفطية، و٧٠ في المائة من إجمالي صادراتها من الغاز، و٥٠ في المائة من إجمالي صادراتها من الفحم، بينما تؤلف حصة الآلات والمعدات الروسية (السلع الاستثمارية) أقل من ١ في المائة. فروسيا تحتل المركز الثالث بعد الولايات المتحدة والصين في التجارة الخارجية للاتحاد الأوروبي بحصة تعادل ٧ في المائة في صادراته و١١ في المائة في وارداته. وبهذا الشكل يوفر التعاون مع الاتحاد الأوروبي إيرادات مهمة للغاية لخزينة الدولة الروسية.

في الوقت نفسه يصل من بلدان الاتحاد الأوروبي إلى روسيا منتجات البتروكيماويات ١٨ في المائة والمواد الغذائية ١٠ في المائة والسلع الاستثمارية والتكنولوجية من معدات وآلات نحو ٤٥ في المائة. وفيما يتعلق بالتعاون الاستثماري، فإن ٧٠ في المائة من الاستثمارات الأجنبية في الاقتصاد الروسي تعود إلى دول الاتحاد الأوروبي. وهذا يعكس الترابط العضوي بين الاقتصاد الروسي واقتصاد بلدان الاتحاد الأوروبي. وقد ظهر عمق التأثير المتبادل بين الاقتصادين الروسي والأوروبي في ضوء الإجراءات العقابية الأولى التي أتخذها الاتحاد الأوروبي ضد شخصيات روسية وأوكرانية موالية لروسيا حيث اهتز الاقتصاد الروسي بقوة، فقد تراجعت السوق المالية الروسية

«مايسكس»، وفقدت ٦٦ مليار دولار من أصولها منذ اندلاع الأزمة، كما فقد الروبل ١١ في المائة من قيمته، مما اضطرّ البنك المركزي الروسي للتدخّل وضخّ ١٦ مليار دولار لاستقرار العملة (لدى البنك المركزي الروسي احتياطيات تقدر بـ٤٩٤ مليار دولار من العملات والذهب). كما انسحبت استثمارات تُقدّر بـ ٥٠ مليار دولار من الأسواق الروسية، ويُتوقّع أن ينكمش الاقتصاد الروسي في هذا العام، وأن تدخل روسيا في أزمةٍ اقتصادية جديدة.[٦]، علاوة على ذلك، فإن التبادل التجاري بين روسيا وأمريكا يزيد عن ٤٠ مليار دولار.

خلفية الصراع الغربي الروسي

مع نهاية الحرب الباردة (قمة مالطا بين الرئيسين بوش الأب وغورباتشوف ١٩٨٩) وانهيار الاتحاد السوفياتي (١٩٩١) شهد العالم توجهاً سياسياً دعا إلى تصفية بؤر التوتر والحروب وإقرار السلم العالمي. فقد سادت، لفترة وجيزة، أدبيات البيروسترويكا التي بشّر بها آخر رئيس سوفياتي: ميخائيل غورباتشوف، والتي تدعو إلى إقامة نظام دولي يعتمد «توازن المصالح» قاعدة له، وتعطي الأولوية للتعاون الدولي، ما يعني تراجع العامل العسكري وإعطاء الصدارة في العلاقات الدولية للعاملين السياسي والاقتصادي. قاد هذا المناخ إلى بروز دعوات أوروبية إلى حل حلف الناتو بعد أن غدا، بفعل نهاية الحرب الباردة وحل حلف وارسو وانهيار الاتحاد السوفياتي، بلا معنى أو هدف، وإلى قبول دعوة غورباتشوف إلى إقامة أوروبا واحدة من الأورال إلى الأطلسي، وإلى حل النزاعات الإقليمية بالطرق السلمية، وتقديم يد المساعدة للدول الفقيرة لإخراجها من حالة الانهيار الاقتصادي والصراعات العرقية والسياسية.

غير أن أمريكا رفضت هذا التوجه وقاومته بقوة، فالمحافظة على «توازن القوى» قاعدةً للعلاقات الدولية، وعلى حلف الناتو وتوسيعه وتعديل استراتيجيته وساحة عمله، اعتُبرت مصلحة أمريكية. لذا تبنت سياسات مراوغة ودفعت باتجاه تأزيم النزاعات، ودفع أطرافها إلى اعتماد الخيار العسكري، ولعل ما حدث في يوغسلافيا آنذاك خير مثال على هذا السلوك، حيث كشفت الهيرالد تريبيون (١٥-١٦/٥/١٩٩٢) ما قاله جيمس بيكر، وزير الخارجية الأمريكية، عام ١٩٩٠ للرئيس اليوغسلافي ميلوزوفيتش: «إن واشنطن مع يوغسلافيا موحدة أرضاً وشعباً»، وهذا شجع الأخير على الاندفاع في حرب مجنونة دمرت بلاده وشعبه وقادته إلى محكمة جرائم الحرب (يذكرنا هذا بلقاء السفيرة غلاسبي مع الرئيس العراقي صدام حسين قبل اجتياح الكويت، وإعلان ريتشارد ارميتاج، مساعد وزير الخارجية الأمريكية، في دمشق عام ٢٠٠٤ أن قضية التمديد للرئيس اللبناني إميل لحود قضية تحل بالتفاهم بين سورية ولبنان).

وقد عملت أمريكا في القمة الخمسينية للحلف في واشنطن عام ١٩٩٩ على إلزام الحلفاء بتنفيذ مقرراته والتي تبنت تحويل الحلف إلى مرجعية لقرار الحرب والسلم في العالم. فأمريكا

تنطلق من تصور مبني على ضرورة الوجود العسكري المباشر في عدد من الأقاليم حول العالم، ولاسيما الشرق الأوسط وآسيا الوسطى ومحيط البحر الأسود، بهدف السيطرة على التفاعلات الإقليمية السياسية والاقتصادية والتحكم بالخريطة الجيوستراتيجية في هذه الأقاليم من خلال ذلك، ما جعل هدف توسيع الحلف يحتل موقعاً مركزياً في هذه الخطة.

لم يستمر حلف الناتو ويوسع ساحة عمله فقط بل واندفع بتوسيع عضويته بضم دول أوروبا الشرقية(*)، حيث ضم أحد عشر بلداً من بلدان أوروبا الشرقية، بما فيها بولندا وبلدان البلطيق الثلاثة: لاتفيا وإستونيا وليتوانيا، وكان هناك حديث عن انضمام أوكرانيا إلى الحلف، بالإضافة إلى دول أخرى محاذية لروسيا مثل أرمينيا، والاقتراب من الحدود الروسية أكثر فأكثر، مستغلاً ضعف روسيا وارتباكها ودخولها في حالة انعدام وزن خلال فترة حكم يلتسين، وقد جاء نشر أجزاء من الدرع الصاروخي في تشيخيا ورومانيا وتركيا، وأجزاء أخرى متحركة على ظهر ناقلات في دول البلطيق ليثير مخاوف روسيا، لأنه يمنح أمريكا فرصة توجيه الضربة الأولى ويشل قدرة روسيا على الرد. ففي ذهن الروس مقولة هنري كيسنجر «روسيا ما زالت كبيرة لذا فهي خطيرة».

تحفظت روسيا على عمليات التوسع لجهة تعارضها مع التفاهم الذي تم بين الغرب والاتحاد السوفياتي خلال مفاوضات توحيد ألمانيا، لكن موسكو، مع التصريحات الرسمية الروسية الحادة التي ترفض توسع الحلف، رضخت ووقعت مع الحلف في ١٩٩٧، عهد الرئيس يلتسين، «ميثاق باريس» الذي فتح الباب أمام انضمام بولندا وتشيخيا والمجر إلى صفوف الحلف كدفعة أولى. وبعد ذلك، وفي عهد الرئيس بوتين، تم التوقيع على «إعلان روما» في ٢٠٠٢، الذي جرى بموجبه تأسيس مجلس «روسيا ـ الناتو» ومواصلة الحلف ضم المزيد من دول شرق أوروبا. لقد تقبل القادة الروس عمليات التوسع حتى أن بوتين عندما وصل إلى السلطة تحدث عن احتمال انضمام روسيا ذاتها إلى الحلف.

مع رئاسة فلاديمير بوتين الثالثة تبنت روسيا، مدفوعة بنزوع قومي روسي لإعادة الاعتبار لروسيا والثأر من مرحلة الضعف والاحتقار الغربي، رؤية قائمة على قوة الدولة وضمان ولاء الكنيسة الأرثوذكسية والتمسك بالقيم الثقافية العريقة، واستراتيجية هجومية بهدف فرض هيبتها ودورها الإقليمي والدولي، وعملت على تعزيز الوجود العسكري الروسي في الساحة السوفياتية السابقة من خلال قواعد عسكرية في طاجيكستان وقرغيزيا بيلاروسيا وأوكرانيا وأبخازيا وأوسيتيا

*) كان عرّاب الحقبة السوفياتية ومهندس الحرب الباردة جورج كينان قد أعلن عام ١٩٩٩ أنه يعارض فكرة توسّع حلف الناتو نحو الشرق، وأخبر زميله توماس فريدمان حينئذ «بأن التوسع باتجاه الشرق سيكون «خطأً مأساوياً» لأن العدو في ذلك الوقت لم يكن روسيا، بل الحزب الشيوعي السوفياتي. ولم يكن من الضروري توسيع حلف الناتو، لأن ذلك سوف يجبر روسيا على العودة للعب دورها باعتبارها الطرف المعادي للغرب، وقد تسعى لإشعال أوار حرب باردة جديدة. وبالإضافة لكل هذا ليست لدينا نيّة للذهاب إلى الحرب بسبب تلك البلدان النائية».

الجنوبية وأرمينيا، ومن خلال تقوية منظمة معاهدة الأمن الجماعي، التي تضم حالياً ست دول، هي روسيا وبيلاروسيا وكازاخستان وقرغيزيا وطاجيكستان وأرمينيا، ودعت إلى تشكيل اتحاد جمركي يضم دول الاتحاد السوفياتي السابق تحت اسم الاتحاد الأوراسي، كإطار مواز ومنافس للاتحاد الأوروبي، يمثل برأيها عالماً بديلاً قائما على رفض القيم الغربية، ومبني على تصور لا يسمح لأية دولة فيه أن تصوغ سياساتها وتحدد أطر مستقبلها بشكل منفرد، ويقع تحت السيطرة الروسية الكاملة[٧].

وأطلقت، مستفيدة من تحسن سعر النفط والغاز الذي مكنها من تجاوز حالة العجز التجاري والمالي وحولها إلى وضع إيجابي مع احتياطي نقدي كبير، سمح برفع الموازنة العسكرية، برامج اقتصادية وعسكرية لإعادة التوازن لوضعها الداخلي وزيادة قدرتها على التحرك الإقليمي والدولي. وهذا أجج الخلافات مع الغرب بعامة وأمريكا بخاصة، وقد جاءت تحولات الربيع العربي والتصرف الغربي في ليبيا، وانفجار الثورة السورية على الضد من هوى الكرملين لتزيد في سخونة المواجهة، في ضوء خشية موسكو فقدان آخر معاقلها في المتوسط، فتبنى موقفاً منحازاً للنظام السوري في محاولة لتحقيق هدفين، الأول حماية مصالحه ووجوده في المتوسط (قاعدة طرطوس)، والثاني الانتقام من حرمان روسيا من الكعكة الليبية.

تزامن هذا التحرك مع إدارة أمريكية تبنت لاعتبارات داخلية (الرفض الشعبي للحروب الخارجية بسبب الضحايا والتكلفة المالية العالية حيث قدر اجمالي خسائر الحرب في أفغانستان والعراق بـ ٨ تريليون، خلل مالي، مشكلات اقتصادية: بطالة تضخم، تآكل البنى التحتية) خيارات الحد من التدخل الخارجي، والتعاون والعمل المشترك لمواجهة المشكلات والعمل على تحقيق المصالح بطرق أقل تكلفة مادياً وبشرياً، ما منح التحرك الروسي فرصة تسجيل نقاط تفّوق ظاهرية عززت اندفاعة بوتين ورفعت من أسهمه الداخلية والدولية، ودفعته إلى الرفع من نبرة التحدي والتوسع في عرض العضلات واستخدام القوة ضد خصومه الداخليين والخارجيين، وقد أغراه غياب الرد المباشر بالعمل على تحقيق نصر على الغرب في سوريا عبر دعم النظام السوري بأسباب البقاء وتغطيته إعلامياً وحمايته سياسياً.

ردت واشنطن على التشدد الروسي في سوريا وإفشاله لـ جنيف٢، عبر عدم قيامه بالدور المطلوب والضغط على النظام لدفعه للانخراط في مفاوضات جادة، بتشجيع المعارضة الأوكرانية وإشعال حريق في الحديقة الخلفية لروسيا[*].

*) الانقلاب في أوكرانيا الذي حرضت عليه واشنطن والذي ثبت فشله. ويبدو من الإخفاقات الأمنية الفجة عشية «الانقلاب» ذاته، أنه قد تمت إدارته من مكتب شؤون أوروبا وروسيا البيضاء التابع لوزارة الخارجية الأمريكية، والذي تديره فيكتوريا نولاند زوجة روبرت كاجان، مساعدة وزير الخارجية لهذه المناطق. وربما تكون وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، المختصة في هذه الشؤون، رفضت التورط في مغامرة فاشلة، تاركة إياها لنولاند. (أوكرانيا محايدة... هذا هو الحل، ويليام فاف، الاتحاد الاماراتية:١٦/٥/٢٠١٤).

تحركت موسكو ضد التظاهرات الأوكرانية والبرلمانية وهروب حليفها يانوكوفيتش بالتدخل غير المعلن في جزيرة القرم(*) وتشجيع الروس هناك للمطالبة بإجراء استفتاء لتقرير المصير، وتنفيذ الخطوة وضم الجزيرة إلى روسيا تحت ذريعة نتائج الاستفتاء(**). جاء رد الفعل الروسي في جزيرة القرم، مع توجه للّعب بورقة حماية الروس والناطقين بالروسية في أوكرانيا، للضغط على كييف للعودة الى الاتفاق الذي تم بين يانوكوفيتش والمعارضة برعاية دول غربية وإلغاء كل الخطوات التي أخذها قادة الانقلاب عليه، وعلى الغرب للتخلي عن مساعيه لضم اوكرانيا الى الاتحاد الأوروبي. فموسكو لم تكن بعيدة عن الصواب عندما قدرت منذ نهاية تسعينيات القرن الماضي أن مشكلتها الكبرى هي في الخارج القريب، ومحاولتها تأمينه إلا أنها ووجهت بتقدم استراتيجي غربي حثيث، حُمل في أغلب الحالات على موجة تحول ديمقراطي وأحلام الانضواء في الوحدة الأوروبية، فلم تجد سوى تصعيد الروح القومية الروسية (أساس الردود العسكرية الروسية المحدودة، وأساس الطبيعة التحكمية المحافظة لنظام الحكم الروسي) مرتكزاً لمقاومة هذا التقدم الغربي. وإن تصاعد التوتر بين روسيا والغرب لن يلبث أن يترك أثره على مجمل العلاقات الدولية(٨).

اعتبر الغرب ما تم في جزيرة القرم خرقا للقانون الدولي ورأى فيه فرصة لضم اوكرانيا الى الاتحاد الأوروبي ورسم الحدود الشرقية للاتحاد وإبعاد روسيا عن دول البلطيق وبلغاريا ورومانيا.

اتفقت أمريكا والاتحاد الأوروبي على الرد الذي ستأخذانه ضد التحرك الروسي في أوكرانيا: دعم اوكرانيا اقتصاديا ومعاقبة روسيا، وهذا ما عكسته المباحثات الأوروبية الاوكرانية والاتفاق على تقديم قروض مالية عاجلة وتفعيل المباحثات حول الشراكة التجارية بين الطرفين، والتصريحات الغربية والإنذار الذي وُجه إلى موسكو بمعاقبتها اقتصادياً وعزلها دبلوماسياً. وقد رجح خبراء اقتصاديون روس أن تكون أوروبا أنجزت مع أمريكا وضع تصور للوضع في أوكرانيا خلال المرحلة المقبلة، وبدأ العمل على تطبيقه عملياً على الأرض بصدور رزمة العقوبات التي اتخذت ضد شخصيات روسية وأوكرانية موالية، وضد بعض المصارف والشركات الروسية.

غير ان مراهنة روسيا على ضم جزيرة القرم كانت أن يشكل خطوة في لعبة دومينو وتحرك

---

*) في حرب القرم ١٨٥٣- ١٨٥٦، التي وقفت فيها بريطانيا وفرنسا إلى جانب العثمانيين وانتهت بهزيمة كبيرة للروس، صمد الجنود الروس ١١ شهراً، محاصَرين في سيفاستوبول، في حادثة خلدها دستويفسكي في روايته الاخوة كرامازوف، ما لبثت أن احتلت موقعاً بارزاً في الذاكرة القومية الروسية.

**) لم يثر ضم جزيرة القرم إلى روسيا حفيظة الدول الغربية فقط بل ودول على علاقة جيدة بروسيا: الصين، بيلاروسيا، كازاخستان، ودول أخرى من دول الاتحاد السوفياتي، كل لاعتباراته الخاصة، فقد تبنت الصين موقفاً «محايداً» فهي لا ترغب في خوض معارك الآخرين لاعتبارات كثيرة، منها الأوضاع في التبت وتايوان. وفي الوقت نفسه، لا ترغب الصين في خسارة روسيا نتيجة احتياجها المتزايد لموارد الطاقة من أجل مواصلة نموّها الاقتصادي. وقد تخوفت بيلاروسيا وكازاخستان من قيام روسيا بذلك معها مستقبلا.

سكان الاقاليم الشرقية للمطالبة بالانضمام الى روسيا(*)، اعتماداً على أن نحو ٣،١٧ في المائة من سكانها هم من الروس، وأن ٤٦.٤٣ في المائة من السكان يتحدثون الروسية، يتركزون في شرقها، بجوار الحدود الروسية حيث يسهل دعمهم، الذي تتركز فيه الموارد والثروات والطاقات الإنتاجية ويساهم بأكثر من ٧٠ في المائة في الناتج القومي الاوكراني، وحرمان اوكرانيا من هذه الموارد.

لقد وقع الرئيس الروسي بضمه جزيرة القرم في الفخ وارتكب الخطأ القاتل الذي نسف ادعاءه، تبريراً لموقفه في سوريا، بتمسكه بسيادة الدول ورفض التدخل في شؤونها الداخلية والحفاظ على وحدة أراضيها، خاصة وأنه بفعلته قد خرق تعهداً روسياً أمريكياً بريطانياً لأوكرانيا وقع عام ١٩٩٤ يتضمن حماية استقلالها ووحدة أراضيها مقابل تخليها عن الأسلحة النووية السوفياتية المنشورة على أراضيها، وعزل روسيا دولياً وخلق حالة عداء مع أوكرانيا أعطاها مبررات قوية للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وربما إلى حلف الناتو أيضاً، وأعطى الغرب ما كان يسعى إليه ببسط نفوذه على جغرافية أوروبا بالكامل، وغدا على مفترق طرق: إما القبول بأوكرانيا دولة أوروبية وإما الدخول في صراع مديد سينعكس سلباً على روسيا بسبب التكلفة المادية التي ستترتب على العقوبات الاقتصادية وعلى الدخول في سباق تسلح وصراع على مناطق نفوذ في العالم في ضوء اقتصاد هش يعاني من نقطة ضعف بنيوية ثابتة وهي اعتماده على تصدير النفط والغاز.

مراجع

١) د. بشير موسى نافع: شبح الأزمة الأوكرانية يخيم على أوروبا والعالم، (القدس العربي)٢٠١٤/٣/٥

٢) د. بشير نافع، المصدر السابق

٣) رائد جبر: الصراع الروسي - الغربي على أوكرانيا: موسكو خسرت جولة وأوروبا تستعد للتعويض، الحياة اللندنية ٢٠١٤/٢/٩

٤) رائد جبر، المصدر السابق.

٥) كريستيان كاريل: إصلاحات سياسية... لمنع انقسام أوكرانيا، الاتحاد الاماراتية: ٢٠١٤/٢/٢٤

٦) صالح عبد الرحمن المانع: دروس من الأزمة الأوكرانية، الاتحاد الاماراتية: ٢٠١٤/٣/٢٢

٧) مارك شامبيون: روسيا والغرب... «الناتو» قوّض فرص التعايش، الاتحاد الإماراتية: ٢٠١٤/٤/١٥

٨) د. بشير موسى نافع، مصدر سابق.

---

*) رأى خبراء روس أن انضمام جزيرة القرم قد يفتح شهية أقاليم ومناطق أخرى في الساحة السوفياتية السابقة لطلب الانضمام إلى الاتحاد الروسي، وأبرزت وسائل إعلام روسية أن إقليم بريدنيستروفييه بجمهورية مولدافيا السوفياتية السابقة، حيث يشكل الروس نحو ٣٠ في المائة من سكانه، يطالب هو الآخر بالانضمام إلى روسيا. مع عدم استبعاد احتمال تزايد مثل هذه الطلبات في الفترة المقبلة، خاصة إذا علمنا أن عدد الروس الذين وجدوا أنفسهم خارج روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١، ليس بالقليل. فعلى سبيل المثال لا الحصر، في كازاخستان يعيش بين ٢٣ و٣٠ في المائة من الروس، وفي لاتفيا نحو ٢٩ في المائة، وفي إستونيا نحو ٢٥،٥ في المائة، يدور الحديث هنا عن السكان من أصول روسية فقط، وإذا أضفنا إليهم عدد السكان الناطقين بالروسية تصبح الصورة أكثر تعقيداً.

أوراق الملف

أحمد عمر

العدوّ داخل البيت

لم يرحل الطاغية عن الكرسي فرحلنا عن الديار كلها... الى أندلس الزعتري وأندلس كلس وأندلس الآخرة شهداء أو... شهوداً. هي حرب وجود لا حرب حدود. باتت الخيام أوطاناً، وربما نقف على أطلالها يوماً ونبكيها!

يرتبط الوطن في القرآن الكريم، في أكثر من موضع، بجواز القتال: «قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» وفي الحديث الشريف بدأ التاريخ الهجري بالهجرة من الوطن لا بالمولد النبوي كما عند الأمم غير المسلمة: وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْت».

في «الكتاب المقدس»: في البدء كان الكلمة، فصارت الكلمة وطناً في الشعر العربي: في البدء كان الكلمة من أجل الديار وبكائها. لم يبك أحد الديار والوطن كما بكاها الشاعر العربي. وعلّقت المعلقات السبعة، التي تبدأ بالوقوف على الأطلال على جدران الكعبة، البيت العتيق، والبيت العتيق هو أول بيت وضع للناس، تقف الطوابير على بيوت الشعراء والعظماء في الغرب: لينين ونيشته وغوتنبرغ... ليشهدوا أدواتهم وأسرار حيواتهم، وتتوقف الطوابير في العطل، لكنها لا تتوقف عن الدوران حول البيت العتيق. الانسان يحن الى الفردوس

المفقود، الرحم الذي خرج منه، وإلى الجنة، وإلى البيت الأول، فهو يحلم دائماً بالخلود، وأطيب الفواكه، وألذ الأطعمة، وما جملة «وعاشوا في تبات ونبات» إلا جملة فردوسية».

يصعب أحياناً فهم كيف ترك الصهاينة أوطانهم واحتلوا «أرض الحليب والعسل»! أما أندلس بني أمية المغتربين، فهي شامنا وقد رحلت، شام كانت بديلاً مشابهاً للوطن الأم في الشرق.

الديار، الوطن، البيت، العش، العرين، مسقط الرأس، المنفى، الأطلال، السجن الصغير، والسجن الكبير... «المثوى الأخير». يقول المثل الانكليزي: «no place like home»، ويقول أبو تمام: «وحنينه أبداً لأول منزل».

انتشر كتاب فرجينيا وولف «غرفة للمرء وحده» انتشاراً كبيراً عند صدوره. نحن نحنُّ دائماً إلى البيت الأول، وكل رواية عظيمة هي تكبير للقرية الأولى، ولم يسبق لشعب أن فقد وطنه أبداً كما فقدها السوري بيتاً ووطناً، فقد اضطر السوري إلى الهرب من رئيسه لا من المحتلين الذين جاؤوا من وراء الأسوار كما حال الفلسطيني!

سنقاتل بالحنين، وتذكّر الأمكنة والأعشاش والأشجار والشرفات والأقبية... فالطغاة يخافون من الذكريات سنتذكر ونحن إلى البيت والوطن حتى يخلط الجاهل بين حنين الموت وحنين الوطن، وحتى يختلط الخلد بالوطن.

شعار الموت ولا المذلة يتضمن سراً وهو أن الموت يقتضي قبراً في الوطن أما المذلة فوطنها المنفى.

زينة أرحيم

بيت... أيّ بيت؟

مئتان وخمسون خطوة، أولها طريق مكشوف لقنّاص يقظ، يرصدني، ليعود سعيداً مع قصّة حماسية عن إنجازه البطولي يرويها لعائلته على طاولة الغداء. قتلي هو الخطوة الأولى على الطريق.

وفي الأخيرة بناء أبيض متسّخ يقف خجلاً على كتف حارة ضيقة. على يمين الباب الحديدي الأسود المشرّع على مصراعيه دائما، أثر رصاصة أخطأت خالي عند اقتحام الجيش لحارتنا وعلى يساره حرف اسمي خطّته بتأن لأيام عدّة مع حرف "الإس» بالإنكليزية لصديقة عمري وجارتي سناء.

مئتان وخمسون مظاهرة، ورصاصة، وعنصراً مقطّب القلب ـ أسود الوجه، بيني وبينه، وبيني وبينه حجر أرميه ملء يأسي وغضبي وشوقي فيصيب تحديداً حيث الخطوة مئتان وتسعة وأربعون، حائط نصف مهّدم أمامه حاوية فارغة تتوسط كوماً من الزبالة جّلها قشور وخضار من أهالي الحارة وبقايا طعام جاهز للشبيحة. هناك حيث كتب الثوار يوماً «يسقط قاتل الأطفال» فوضع مؤيد غاضب قبلها «لن»، قبل أن يقرر صاحب البناء أن يدهن الحائط باللون البُنّي الغامق لإعاقة الراغبين بالتعبير عن مواقفهم بخّاً.

على بعد مئتين وخمسين رفّة عين، بيتٌ ملّون أمضيت في غرفته البرتقالية ثمانية عشر عاماً تركت بعدها جميلة شقراء بغرفة الجلوس الفُستقية تحيك

لي فستاناً مطرّزاً للسهرات الدمشقية، تركته هي الأخرى وراءها وهربت بعد أيامٍ من مداهمه الجيش، يومها دخل العنصر الغاضب وهي مع أخواتها وبناتهنّ يتكوّمن في زاويته محتميات بالحظ، أُخذ الضابط بصوري المؤطرّة التي حوّلتها أمي لجداريات، أنا في الجامعة، أنا في البيت، أنا في السهرات، ضحِكتُ للضابط غنجاً وقهراً فانشغل بي عن التفتيش ودعا رفيقه الآخر لتأمّلي مطيلاً النظر على كتفي المكشوف من الفستان الذي لم تكمل أمي حياكته، وخرجوا جميعاً دون أن يسحبوا خالي الخائف نحو مصيره المجهول كما فعلوا بكل الرجال ذاك اليوم.

في بيتي الآن عائلة نازحة لن تعرفني إن طرقت الباب ولن يشهد لهم سريري «هي الكسولة التي أمضت نصف حياتها هنا، أعرفها» وسيتجاهلني الكُرسي المقُابل للتلفاز حيث بكيت لأول فيلم "بودي غارد» وتعلّمت كيف تؤخذ القبلة الأولى.

إلى اليمين قليلاً، خطوتان إلى الأمام، الآن إلى اليسار، هنا هنا، عند محل سمانة صغير يقع بيتي الثاني الذي لا أرى سواه في أحلامي، ولا أحنّ إلا إليه، نسمّيه بيت جدّي رغم أن جدي رحل عنه منذ وقت طويل.

في مرّتي الأخيرة فيه، كنت أقف مع ابنة خالتي على الشرفة، نراقب مظاهرة مسائية بالشموع، رجّالية هي فلا نستطيع المشاركة، لا تحتمل أمي المتابعة من الشرفة تنزل للشارع بحذاء المظاهرات الرياضّي، أنا أصور وصوتٌ يبكي جمالاً خلفي "الله يحميكم يا قلبي، الله يحرسكم".

حلّ الرحيل فودّعت البيت بدعوة غداء جماعية حضرها سعادة اليبرق والكبّة مع السفرجل مصطّفين بصحون زجاجية ثمينة بإتقان على طاولة الخشب البني المحروق، وحولها الكراسي المزركشة بالمُخمل البيج، لقطة قريبة لازدحام الصحون والملاعق في خلفيتها ضحكات، بعدها عامّة طويلة صامتة وغامقة، سواد، محروقاً بيتنا بعد أن نُهب ثم قرر شبيّح الحارة المدعو ب»الهرموش» أن يهبه هدية تقدير لشبيح آخر هرب من سراقب بعد تحريرها. في بيت جدّي شبيّح سيقتلني إن قلّت بيني وبينهم المسافة بمقدار خطوة.

أخلع عينّي عن الناضور، تتكاثف الخطوات وتتضاعف: خمس مئة، ألف، ألفان، رصاصة، قذيفتان، جرّة غاز، مدافع جهّنم، «لا نساء تتوقف هنا يا أخت"، يقول الملتحي العابس ذو الرداء الأسود، «هذه جبهة الرجال مكانكِ أنتِ في البيت»!

لكن... أيّ بيت؟!

بيت صديقي لؤي دعبول الذي كان أول من استقبلي في إدلب «المُحررة»، غرفتان مُرتّبتان تغزل بهما زوجته النشيطة والفضولية مع ابنته الجميلة ريم التي أنهت دراستها في المعهد للتو وتبرّعت لي بسريرها بينما كان حمودي الخدوم يخدم الجميع بابتسامة «خالة بدك تشربي قبل

ما تنامي؟ جبلك حرام كمان؟»، كان بيتي أيضاً. في الطابق الرابع قرب ساحة الحرية في معرة مصرين بقي صامداً عندما فُرّغت البلدة من أهلها قصفاً إلى أن جفت فيه الحياة يوماً على حين تفجير، في باب الهوى، نفذّت الجريمة المفخخة الأولى، وأخذت الأربعة معاً مخلفةً شاباً واحداً، بِكرُهم أحمد الذي أرسله لؤي للعمل في لبنان ليحيى، وعاش.

هل يقصد المجاهد بيت الدكتور اسماعيل في الرّقة، ربما وصلته ضحكاتنا وراحتنا نجلس حول طاولة العشاء ونشرب الشاي على وقع القذائف باطمئنان بينما تلفّ بناته الجميلات حولنا لتتأكد أن كل شيء على أكمل وجه، يمتد العشاء لساعات بعدها نقفز على رؤوس أقدامنا في المطبخ لئلا ندعس على الملوخية المنشورة على طول الأرض لتجّف.

قلت لصديقي يومها بعد أن خرجنا، لو أبقى هنا دائماً، أريد هذا الهنا مع العائلة والبيت، في اليوم الثاني خطف ملثم من تنظيم «الدولة الإسلامية» د. اسماعيل الإنساني الثوري المذهل بلطفه، حدث هذا في تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٣، برد المنزل وخسره لصالح استديو ضيق في عينتاب التركية بانتظار هجرة بعيدةً، أبعد من سجون التنظيم المزدحمة.

ولي أيضاً في مدينة دير الزور بيت فيه جميلتان وأم انتهين مؤخراً من إصلاح آخر ثقب تسببت به قذيفة في جدار غرفة الجلوس واخترن لي أكثر الغرف أماناً لأنام.

نتناول الطعام على أعداد قديمة من جريدة الثورة متقصدّين تشويهها ببقايا الطعام، والزيت تحديداً على وجهه الباسم بشماتة على الصفحة الأولى، «كيف صار بشار؟» أسأل عن رجل المنزل المُصاب بشظايا أصابت رجولته أثناء أحد الاقتحامات، «الحمد لله باقي عملية وبيرجعلنا».

خمسة عشر قذيفة وغارتان للطيران عدّيتهم بين الساعة التاسعة والتاسعة والنصف صباحاً وأنا أتقلب بدفء السرير المريح ذي الشراشف الخضراء النظيفة المعدّة لي خصيصاً.

يقولون البيت هو المكان الذي تشعر فيه بالأمان، وهناك تحت سيل الحرب بحارة لم ينج منها إلا بيتهم. شعرت بالأمان الكامل، إذن عليّ أن أخبر المهاجر أن بيتي هناك.

لكن ماذا عن بيتي في مدينة حلب؟

في نيسان الماضي اخترته مرسىً نهائياً على خط جبهة مشتعلة مع قوات النظام. ١٥٠ متراً للتحديد، أقرب من القذائف والرشاشات وأبعد عن البراميل المتأرجحة بين الصدفة والعدم، على خط النار بيننا وهم.

في بيتي خزانة ثياب غامقة لا تشبهني، وسترات أطول من فساتيني الأنيقة المهجورة في صندوق بتركيا، وفيه الشاي البريطاني الذي أفضّل وقهوة أمريكية لا أشرب غيرها، في مطبخ

بيتي الجميل أيضاً قطرميز من المكدوس أعددته بنفسي، البيت الذي حضر معجزة صنعي للمكدوس - أنا التي لم أطبخ أكثر من طبق بيض في أيّام السلم - هو ولا بد بيتي النهائي.

غطّيت بعناية شرفاته بستائر ملوّنة تتلاءم مع مستوى «حرمتي» في حارتي المحافظة، غرزت مسماراً في حفر خلّفتها رصاصة قنّاص لأعلق عليها قفصا فيه بديع ورجاء وهما طائرَي زينة انتقلا معي لحلب.

رجاء لم تشاركني شعور الراحة في بيتنا الجديد، قتلَت ثمانَ بيضاتٍ أنجبتها خلال الأشهر الست الماضية، ربما تريد بيتها لها وحدها أو تملك ما يكفي من الذكاء لتحمي عصافيرها من تعب حياتنا المسدودة.

خطوة، قذيفتان، ثلاث رصاصات، أربعة قبور وعشرات البيوت، تضرب أعماقي جذوراً في هذا الخراب، أحاول الاستطالة نحو الأسطحة، أمد يدي نحو لفوق ولا أطلب المساعدة، معلّقة أنا كبرميل هنا بين ركام البيوت وسقف القصص التي لا تقي من القصف لكنّ صقيعها كافياً ليحيل كوانيننا جميعاً صيفاً أبدياً.

لهذه البيوت فقط، أكتب...

خطيب بدلة

الدار الكبيرة

-١-

دار عبد العزيز آغا بدلة، في الحارة الغربية من بلدة «معرتمصرين»، يُضرب بها المثل، فهي: سَيَّاحة، نَيَّاحة، يلعب في أرضها الخَيَّال.

الواجهة المطلة على الزقاق مبنية من الحجر السوري، وثمة زاروب يؤدي إلى باب داخلي مَنْ يفتحْهُ ويدخلْ يُصبحْ ضمن مساحة مستطيلة كبيرة، مشمسة، ومهوية، تتصدرها أربع غرف كبيرة (على القبلي)، وفي الجهة الشمالية شقة صغيرة للمؤونة، وليوان، وغرفة مُصَلَّبة، ومطبخ كبير مخصص لإعداد الطعام للولائم الكثيرة التي تُقام في الدار.

بملاصقة الجدار الشمالي المرتفع بئران رُكبت على كل منهما «مَحَّالة» مخصصة لمتح الماء، وفي الوسط بركة مربعة، في داخلها شجرة تفاح وارفة الظلال، مثمرة.

إلى الغرب من الدار حديقة صغيرة مزروعة بالفستق الحلبي والأرضي شوكي (الأنجنار) تدعى البرج، ذلك أن الحائط الغربي للحديقة فيه فتحات صغيرة تسكنها أزواج من الحمام البري، ويفصل البرج عن الدار حائط مرتفع جداً كنا يعرف باسم: الجَمَلُون.

في هذه الدار أقامت الحاجة «طيبة» عرس وحيدها عبد العزيز الذي حضره وجهاءُ أربع وعشرين ضيعة، والمنادي يدور في أزقة البلدة وينادي:

- العيش يا جوعان والماء يا عطشان... لا أحد يأكل ولا أحد يشرب إلا من عرس عبد العزيز آغا بدلة.

كان الحاج خطيب آغا قد توفي، وعنده بنتان من زوجته الأولى، وبنت من زوجته الثانية، وكان له ولد وحيد اسمه «جميل». كان جميل شاباً مدللاً بوهيمياً غارقاً بملذات الحياة التي أتاحها له كون أبيه ثرياً، وقد ترافقت بوهيميتُه مع شيء من الشراسة والعدوانية، حتى إنه تسلح بقنبلة «بمبه»، عدا عن المسدس «الطبنجة» الذي لم يكن يفارقه لحظة، وفي ذات يوم أحب أن يَطَّلع على محتويات (البمبه)، فانفجرت وقتلته.

كان على الزوجة الثالثة «طيبة» أن تحل مشكلة الولد للحاج خطيب، بعد مقتل جميل، ولكنها، بمشيئة الأقدار، أنجبت أربع بنات متتاليات، وبعدها وُفِّقَتْ بإنجاب «عبد العزيز»، وبعد ثلاث سنوات أنجبت ولداً آخر باهر الوسامة أسمته «بهراوي».

يعني، طيبة، هي التي استطاعت أن تربح لقب «أم عبدو» - بعدما خسرت أم جميل هذا المركز - وتربح معه الدلال، والتميُّز، وأصبحت، بالتالي، تُؤْتَمَنُ على الأسرار... إذ يُحكى أن الحاج خطيب، حينما شعر بدنو الأجل، وكان قد شح بصره، طلب من «طيبة» أن تسحبه من يده وتُدخله إلى الغرفة المصلبة، وأن تغلق الباب وراءهما، فلما شعر بالأمان حدد لها، بالضبط، مكان الصفيحة الملأى بالليرات الذهبية التي كانت قد خبئت ضمن حفرة عميقة وأهيلت فوقها الأتربة، وسويت على وجه الأرض بحيث لا يستطيع الجن الأزرق إليها وصولاً.. وقال لها:

- عندما تلزم لك الليرات طالعيها من هنا، الليرات هي التي يمكن أن تحميك أنت والأولاد من غدرات الزمان.

-٢-

ولدت «طيبة» عبدَ العزيز في سنة ١٩١٧، وقد أقيم عرسه سنة ١٩٣٥، على زمان الفرنساوي، وأهل البلد كانوا يطلقون على تلك الأيام «أيام الفساد»، فالانتداب الفرنسي أحدث شرخاً في التركيبة الاجتماعية للبلدة، وأسرة آل بدلة لم تنجُ من هذا الشرخ، فمِنْ أبنائها مَنْ كان يقف مع الفرنسيين، ويستقوي ببعض عناصر الدَرَك لتحقيق بعض المآرب الشخصية، ومنهم من كان يلتزم الحياد، ويفلسف أموره بعبارة:

- بكرة الفرنساوي بيروح ونحنا راح نبقى، وكل واحد سيكون وجهه في وجه ابن بلده.

حينما بدأت «طيبة» تجهز للعرس بدأت المشاكل التي يمكن تصنيفها تحت اسم (غدرات الزمان) تظهر. فقد أرسل مختار البلدة، وهو من آل بدلة ولكنه محسوب على الفرنساوي، إليها مندوباً محملاً برسالة موجزة مفادُها أن عبد العزيز الآن يجب أن يكون في كنف زعيم العائلة، وأن يكون كل شيء بمشورة الزعيم، وبإشرافه، وأن يُقام العرس في الجفتلك التابع له.

كان جواب «طيبة» حاسماً: الولد سوف يتزوج في دار أبيه الحاج خطيب آغا. وهو غير قاصر لكي نضعه في كنف فلان وعلان.

في جلسة، أو اجتماع، لما يمكن تسميته بلغة اليوم «خلية الأزمة» وَزَّعَت طيبة الأموال على الرجال الموالين لها وللحاج خطيب، وأرسلت عبد العزيز برفقة القبضاي «س» إلى حلب، ومن هناك استكريا خمسة وعشرين رجلاً مسلحين بالبمبات والطبنجات، ليقوموا بحراسة العرس، وأرسلت فريقاً إلى السوق ليسرب إلى الناس الخبر نفسه، مع شيء من التهويل، حتى بلغ عدد الأشخاص المكلفين بحماية العرس، بحسب التسريب، مئتي رجل، وأشاعوا أيضاً أنه من المحتمل أن يقوم فريق من هؤلاء المسلحين باعتقال المختار، ووضعه في الحفظ والصون (الإقامة الجبرية!) ريثما ينتهي العرس.

-٣-

الدار الكبيرة، كانت تضم، عدا عن طيبة وعبد العزيز والكنة، بنات الحاج خطيب من زوجتيه السابقتين، مع أزواجهن وأولادهن. وكانت تتعرض، بين الحين والآخر، إلى هجمات من العصابات التي كانت تحارب فرنسا وتُعْرَفُ باسم «الجَتَا» (وهي كلمة تركية تعني حرفياً: العصابة)، وكان هذا بعد أن أوقف ابراهيم بيك هنانو ثورته في أواسط سنة ١٩٢١، وسافر إلى شرقي الأردن، لتُلقي عليه سلطة الانتداب البريطانية القبض وتسلمه لسلطة الانتداب الفرنسية في سورية، لتحاكمه، هذه الأخيرةُ، علانية، وتعتبره مدافعاً عن بلده، وتبرئه من تهمة ارتكاب أفعال جائية (يعني: الإرهاب)، ثم تطلق سراحه ليمضي بقية عمره على الأراضي السورية على عكس ما فعل الحكام الإرهابيون من عصابة حافظ الأسد بعد نصف قرن من هذا التاريخ بكل من عارضهم عسكرياً أو سياسياً، أو حتى بالحكي، إذ لم يتركوا الذباب الأزرق يعرف إليهم سبيلا.

اعتاد الجتا، في تلك الأيام، على مهاجمة بيوت الأغنياء وتشليحها. ولأن الحاج خطيب كان يعد من الأغنياء فقد كانوا يغزون داره خلال فترات زمنية متقاربة. وقد اعتاد سكان الدار الكثر على هذه الغزوات، فالنسوة أصبحن يُخبئن ما يمتلكن من أساور وحلي، والرجال يخبئون النقود في مخابئ مدروسة بعناية، وكانوا، إذا عرفوا، من خلال الإشاعات، أن الجتا سوف يجرون للدار (كَبْسة)، يكثرون من الاحتياطات، ويرتدون ثياباً مهلهلة لأجل التمويه.

ولكن طيبة، ورغم نباهتها وحذاقتها، ارتكبت خطأً جسيماً إذ علقت في رأس الطفل «بهراوي» مخزماً مصنوعاً من الذهب، وخبأته بين خصل الشعر الشقراء، وفي ذات كبسة للجتا، في ليلة مقمرة، لمع المخزم في رأس الطفل، فمد أحد الغزاة يده، واقتلعه من رأسه بعنف... وعلى أثر ذلك أخذ رأس الولد ينزف، وليس في معرتمصرين مشفى أو طبيب، فمات.

-٤-

في هذه الدار توفيت الحاجة طيبة، وفيها تزوج عبد العزيز والدتي فاطمة بعد أن تخلى عن زوجته الأولى دون أن تودع لديه أولاداً... وقد غادرت عماتي وأزواجهن الدار، وسكنوا في منازل أخرى تخصهم.

والدتي خلفت أولاداً كثيرين، صمد منهم أمام عاديات الزمان ستة صبيان أنا المولود سنة ١٩٥٢ رابعُهم، وأربع بنات. وإليها وصل جثمانه من بيروت، في أواسط تشرين الأول ١٩٦٧، وهو لما يزل في الخمسين من عمره.

في هذه الدار الرهيبة أمضيتُ طفولتي وجزءاً من شبابي.

-٥-

في سنة ١٩٧٠، وكان قد مضى ثلاث سنوات على وفاة الوالد، وكانت أحوالنا المادية قد أصبحت زفتاً، (فقد تبعثرت الثروة من كثرة الورثة، سيما وأن والدي قد تزوج في سنة ١٩٥٢ امرأة أخرى وأنجبت له ستة أولاد آخرين فأصبح تعداد الاسرة ١٦ ولداً من امرأتين)، وبينما أنا أحضر للبكالوريا، خطر للبلدية أن تشق شارعاً في الحارة الغربية، ودخل الشارع في قلب الدار، وقص الغرفة ذات الزخارف الحجرية الرائعة التي أنجزها نحاتون أرمن جاءت بهم المرحومة طيبة من حلب بأجور مرتفعة.

أصبحنا، نحن سكان الدار، في الخلاء، أو كما يقول أهل البلدة: على الآجق... (آجق: كلمة تركية تعني مفتوح)، وأصبحت أسلاك الكهرباء تتقطع، والغبار يعشش في ثنايا الدار والمفروشات والملابس... وبعد سنة واحدة انتقلنا إلى دار جديدة بنتها والدتي من مدخراتها في حارة طريق إدلب التي كانت تعرف باسم (حارة المسعدات)... وتركنا الدار.

-٦-

بعد عدة سنوات، في أواسط السبعينات، قررنا أن نبيع الدار ونتقاسم ثمنها لنستعين به على الظروف الصعبة التي بدأنا نمر بها، ولكن سوقها بقي راكداً لزمن طويل بسبب اتساعها، إذ لا توجد عائلة كبيرة على مقاسها.

ثم بيعت بثمن بخس، والشخص الذي اشتراها قسمها إلى ثلاث أو أربع دور، سكنها أناس فقراء... وخلال هذه السنين كلها كنتُ، كلما زارني صديق أتقصد أن أمر به في الزقاق الذي أصبح شارعاً اسمه «شارع الكورنيش»، وأشير له بيدي إلى جدار الدور المقسمة وأحكي له عن ذكرياتي في هذه الدار وعن تاريخها الطويل.

-٧-

في أحد أيام الثورة السورية على نظام وريث حافظ الأسد، بالتحديد في شهر آذار مارس ٢٠١٢، دخل الجيش العربي السوري الباسل إلى مدينة إدلب، بقصد إخضاع أهلها وإذلالهم، وكنت قد علمت بقدومه، فهربتُ إلى معرتمصرين، و(نقلتُ مكاتبي الثورية إليها) باعتبار أن اسمي موجود في قوائم المطلوبين.

ذات يوم، مررتُ أمام الدار، وإذا بي أرى فرناً جميلاً قد احتل وسط السور الطويل، وصاحب الفرن هو واحد من أعز أصدقائي، من عائلة (الحجي أبو صوف). كان يقدم أنواعاً متعددة من الخبز والكعك اللذيذة الطازجة.

قال لي صاحب الفرن أبو الحجي: بتتذكر داركم؟ هون كانت.

قلت له: ولو. هل أستطيع أن أنساها؟

قال لي: تزعل عليها؟

قلت: لا!

قال: غريبة. الناس بتحن لبيوتها القديمة.

قلت له: صحيح. ولكن أنا لا أحن إليها، وفي الوقت نفسه لا أنكرها. لو أننا عشنا في دار صغيرة تتألف من ثلاث غرف مغلقة، سهلة التنظيف، محمية من اللصوص وقطاع الطرق، لكان أحسن لنا. إنها دار أغوات، وأنا لست بآغا. الظروف تغيرت كثيراً.

وأضفت: على كل حال لقد أعجبني هذا المآل للدار. فلقد سكن فيها أناس فقراء طيبون، وصار فيها فرن يقدم للناس خبزاً وكعكاً واشياء نافعة.

بشير البكر

باب البيت

ندخله بلا مفاتيح

لا جرس... لا إنذار

هنا البيوت مفتوحة

يكفي أن تمر

أن ترتقي العتبة

لا ترش الماء خلفك

كي لا تطرد الملائكة

كبرنا مثل فراخ البوم وطرنا، لم ينتبه لنا الآخرون إلا حينما صرنا نقف فوق الاغصان وننوح كأننا ننذر بالخراب. لا أحد اهتم بنا، ولدونا وتركونا في أرضنا. كيف عشنا. كيف كبرنا. كيف لم نمت بالحصبة والجدري وأبو صفار؟ لا أحد لديه إجابة كافية. مجتمع رؤوس بلا أجساد، وأجساد بلا رؤوس. وليس غريبا أن ينفصل هنا العقل عن الجسم، يحتل كل منهما مجالا مختلفا لا علاقة للأول بالثاني.

مثل فراخ البوم التي يتطير منها الناس، حتى أهلنا لم نعرفهم جيدا. مات

أبي ولا أتذكر أنه قبّلني أو مسّد شعري بيده. أما أمي فلم أتعرف عليها جيدا إلا حين غادرتُها قاصدا حلب للدراسة الجامعية، هناك اكتشفتُ أنها أكثر من أم وأب، هي عالَمِي وألَمِي.

حين قصدت الجامعة، كان احساسي بأني فررت كما نقول بالعامية لفعل طار. فرار من شرط قاس وتحليق نحو البعيد. البعيد فقط من دون هدف محدد مثل فرخ البوم في العشيات، يطير في اتجاه الليل، ثم يهتدي بحدسه إلى مكان خاص.

هناك أجيال ولدت هكذا مثل قمح الجزيرة... يرمي الناس البذور وينتظرون المطر... فإما أن تموت الحبة أو تعطي محصولا وفيرا، والمحاصيل الوفيرة كانت هي الغالبة، وقليلة هي سنوات المحل. ولم يعرف الناس الجدب إلا مع ظهور السياسة وفي فترة بدايات الوحدة مع مصر على وجه التحديد، وهي السنوات نفسها التي صار أولادهم يحلّون خلالها في السجون، ضد عبد الناصر أو مع البعث أو الشيوعية، ورغم مرور أوقات صعبة في بداية الستينات، أي سنوات الجراد، فإن سنوات المحل الحقيقية هي سنوات البعث التي دامت نصف قرن، وحوّلت الجزيرة الى صحراء قاحلة. جفّ الخابور، شريان الحياة الرئيسي، وضمرت الحياة في عموم الجزيرة، وحتى البيئة أصيبت بنكسة كبيرة.

كان البيت جار الخابور، كأنه شريانه الرئيسي.

كانت جالسة هناك قرب باب الحوش في ظل شجرة الكينا، والتنور إلى جوارها، غير بعيد عنها مجرى نهر الخابور. لها هالة شخصية من شخصيات الميثولوجيا، وحزن الزمن نفسه.

حين أغلقت باب البيت خلفي، شعرت بأني ذاهب إلى وليمة أقامها الشيطان للصوص والنهابين، وأني سأصل متأخرا، لن أدخل بسهولة، لن أجد كرسيا شاغراً، وحتى بقائي واقفا ليس مرغوبا فيه، لأن الوليمة مخصصة لانتخاب أفضل اللصوص. وذات يوم أبديت تأففا بعد أن اجتزت حاجز شرطة الحدود، فالتفت إليّ كهل لبناني وقال، في اليوم الذي يضع فيه الانسان قدمه على سلم الطائرة، ويغادر البيت، عليه أن يحتمل كل شيء.

فرار من تلك البلاد. الفراريّ هو الشخص الهارب من العدالة. وكنا نسمع جملة «فلان عايش فراري»، أي أنه خارج على القانون، ومن يخرج على القانون لا يستطيع أن يحتفظ بعنوان ثابت. كل يوم في مكان جديد. ومن لا بيت له عينه لا تنام.

البيت مكان يشغلني من دون أن أحس، كثيرا ما غادرت منازل، ولم أشعر أني أحبها إلا بعد أن تركتها، ليس هناك أي تفسير لهذا الشعور سوى أن المرء يخلّف شيئا من ذاته في المكان الذي يسكنه، وهو عندما يشعر بحنين للمكان فهو يتوق للعودة إلى نفسه. منذ فترة خطر لي أن اكتب بتوسع عن البيوت التي سكنتها في باريس، وحين باشرت تنفيذ هذا الخاطر، ذهبت

لأول منزل سكنته، لكني فشلت في دخوله، ولم أتمكن من صعود الدرج. وما أن اقتربت من المكان حتى تفتقت حواسي كلها وعاد بي الزمن للوراء. توقف تنفسي وأحسست بحنين جارف، عدت خلال دقيقة قرابة ٣٠ سنة. ولم أتخيل ان وقع المكان ثقيل الى هذا الحد.

قررت عدم إكمال الزيارة، ولم أدخل المنزل. اعتراني خوف شديد. وقفت بالباب متردداً حتى وجدتني أستدير وأعود من حيث أتيت. ومن الشارع ألقيتُ نظرة سريعة نحو الشبابيك وأنا أغص برائحة هواء عتيق، يأتي من بعيد.

فرج بيرقدار

البيت الأم

مع دخولي الجامعة شعرت أنه لم يعد لدي بيت بالمعنى الوجداني. البيت بالنسبة لي مقولة وجدانية أولاً، وأحداث وذكريات وأهل وجيران أولاً، وسيرة حياة بكل مراحلها من الولادة إلى الموت أولاً وأخيراً.

قبل الجامعة كان بيتنا يتألف من غرفتين بسقف طيني وثالثة بسقف قرميدي ورابعة بسقف من التوتياء. صوت المطر أو البَرَد ليلاً على السقف التوتياء يوقظ في داخلي خوفاً مثيراً ومشوِّقاً، أعني شبيهاً بما تثيره بي أفلام الرعب التي أستطيع إيقافها عندما أريد... أما على السقف القرميد فكان لوقعه صوت أو إيقاع الموسيقا وتحريض الخيال على كتابة الشعر. من هناك بدأت علاقتي بالشعر. قرقعة ورنين ما زلت أحنُّ إليهما. هل البيت هو الحنين إذاً، أم الذكريات أم غير ذلك من التفاصيل؟ تصعب عليّ الإجابة على النحو الذي أبتغيه رغم تجرّئي على التحديد في بداية المقالة. في العادة أسمح لنفسي في الشعر بما لا أسمح به في المقالة، وآمل أن تغفروا لي مخالفتي لنفسي هنا... أعني في موضوعة البيت.

البيوت اللاحقة لم تستطع أن تكون بيوتاً. المدن الجامعية أيام الدراسة في دمشق أو بودابست، خلال الخدمة الإلزامية أو لاحقاً في بيروت، لم تستطع أن تكون بيوتاً. أن تبيت في مكان ما لا يعني أنك في بيت. لا علاقة للإقامات العابرة بالبيوت، ولا علاقة لها عندي بما قاله أبو تمام:

كم منــزل في الأرض يألفه الفتى وحنينـــه أبـــداً لأول منـــزلِ

لو توفَّر لي الآن بيت بالمعنى الوجداني وما يعنيه من أحداث وذاكرة وسيرة لقلت غير ذلك.

أول مرة بعد الجامعة أشعر بتحقُّق معنى البيت كانت في السجن. سَكَن وأصدقاء مثل الأهل وذكريات على وجعها، وكانت الضرورات والتوقعات تقتضي تحويل السجن من مكانٍ مضادّ إلى بيت. كنت أضحك بمرارة بيني وبين نفسي كلما تذكَّرت كتاب "باشلار" عن جماليات المكان. السجن بيت الضرورة وينتهي كبيت بانتهائها. إذاً وفي المحصلة لم يكن السجن بيتاً. المنفى أو منفايَ على الأقل ليس مكاناً مضادّاً، ولكنه بعد مرور تسع سنوات لم يستطع أيضاً أن يكون بيتاً إلا بمقدار ما أثَّثت فيه من وجدانيات في السنوات الأخيرة القليلة... يزورنا بيت فلان ونزور بيت فلان... هكذا يتسع معنى البيت وجدانياً بسوريين وسويديين وإيرانيين، ولكنه لا يستطع أن يكون بيتاً بكامل المواصفات التي عنيتها في البدء.

هل يعني ذلك أني ما زلت محروماً من هذا الذي اسمه: بيت؟

هو سؤال أو تساؤل يثير في داخلي نوعاً من الخجل. بعد الثورة صار مثل هذا السؤال ترفاً، ذلك أن أي شقة في مكان آمن هي أقل سوءاً ومعاناة من أي خيمة داخل سوريا أو خارجها.

هناك سوريون حملوا بيوتهم في داخلهم أو ذاكرتهم ورحلوا، وهناك سوريون في بيوتهم يتوقعون القصف في كل حين، وهناك سوريون تركوا بيوتهم إلى قوارب تنذر بالموت. وبالطبع هناك سوريون، وغالباً ممن تقدم العمر بهم، يرفضون مغادرة بيوتهم حتى لو تهدَّمت فوق رؤوسهم. ذلك أكثر ما يؤلمني ويثير تعاطفي ويشعرني أني بدون بيت.

آدا سالومون، السويدية التي تشارك في كل التظاهرات المتعلّقة بسوريا أو غزّة أو بحقوق الإنسان... كرسيّها المتحرك هو بيتها الجميل والغنيّ باللافتات التي ترفعها تضامناً مع المظلومين في كل مكان، ولكنها في النهاية تعود إلى بيت ربما هو البيت الأساس أو الأم.

يخطر لي أحياناً أن البيت الأم هو البيت الذي تستطيع أن تعيش آمناً في داخله كما لو انه الرحم، كما تستطيع أن تحمله في داخلك أينما حللت.

ربما سوريا الآن كلها ليست بيتاً آمناً، ولكنها في داخل الكثيرين من أهلها، وقد يكون ذلك مسرب الأمل من أجل استعادتها كبيت مثلما كانت وأجمل.

سليم البيك

بيت سوريا الفلسطيني

ضمن الحديث عن الثنائيات الأكثر إلحاحاً اليوم، سياسياً واجتماعياً تحديداً، تتبدى ثنائية اللجوء/الوطن التي اقتصرت جمعيّاً على الفلسطينيين منذ عام النكبة، والتي امتدّت لتطال السوريين منذ حوّل نظام الأسد مطالبهم السلمية في ٢٠١٣ إلى نكبة مستمرّة فصولها بأشد أشكالها بشاعة إلى يومنا هذا.

واليوم، بعد أن فاق عدد اللاجئين السوريين الثلاثة ملايين، صار لجوؤهم قضيّة بحدّ ذاتها، ضمن القضيّة الأعمّ وهي حرية الشعب والبلد من نظام الأسد ومن (وهذه جديدة) تنظيم «داعش». وهما، أي النظام والتنظيم، المسبّب الأساسي والمباشر لظاهرة لجوء السوريين (وفلسطينيي سوريا)، الظاهرة التي ستكون الأشد تأثيراً على المجتمع السوري في مرحلة ما بعد الثورة ما لم تُحل في أقرب زمن ممكن، فلا يصيبهم ما أصاب الفلسطينيين المشتّتين في «مجتمعات» خاصة بهم وضمن مجتمعات أخرى.

كي نفهم جيّداً دلالة «اللجوء»، لا بد من محاولة فهم المقابل ضمن هذه الثنائية، أي «الوطن». والوطن مفهوم نسبي، فهو كما يفهمه موالٍ لنظام الأسد مُحتوى ضمن النظام، بدل أن يكون النظام محتوى ضمن الوطن، وطن كهذا له دلالات قد تكون حزبية أو طائفية أو أمنية أو كلها معاً، لن يكون ذاته الوطن كما يفهمه اللاجئ عنه. ففي وقت يكون الوطن هو الحزب أو الطائفة أو مركز الأمن

بأقبيته وزنازينه، الوطن عند اللاجئ هو تحديداً البيت، هو بإطار أوسع الحارة والشارع والمدينة أو القرية والمحافظة والوطن كوحدة اجتماعية وتاريخية وسياسية.

اللجوء هو ترك البيت اضطراراً، البيت وليس الوطن بأكمله، البيت كشكل مكثّف من الوطن، فالنازحون عن بيوتهم إلى أرجاء من الوطن قد تبعد أو تقرب، هم لاجئون بقدر ما هم بعيدون عن بيوتهم، ولا يميّزهم عن اللاجئين إلى خارج الوطن إلا احتمال أقرب للتحقّق بأنهم أقدر على العودة إلى البيت، وفقط البيت. والنازحون السوريون أعداد هائلة كذلك تُضاف إلى اللاجئين.

كان أكثر ما سألت عنه جدّي الذي لجأ من قرية ترشيحا في الجليل إلى سوريا عام ١٩٤٨، كان بيتنا هناك، بيت جدّي وأبيه أقصد، فالقرية التي تكثّف الوطن بها واختصرته، كانت مُختصر في بيت أهل جدّي هناك ومكثّفة فيه. وكان دائماً البيت هناك هو المكان الذي لا تتحقّق القضية الأساسية للفلسطينيين وهي «حق العودة» بالنسبة لي، إلا فيه، وهي حالٌ تجمع اللاجئين أينما كانت بيوتهم وأوطانهم. وهي حال اللاجئين والنازحين السوريين الذين لن تفارق أذهانهم مفردة «لاجئ» إلا عند عتبة دورهم، وإن كانت مهدّمة.

البيت إذن هو المكان الصغير، هو المكان المعنوي لا الحجر، لذلك تُهدّ منازل وأبنية بشققها وتُبنى غيرها، المكان يبقى هذا الفراغ، روح البيت، التراب وما يحل فوقه، صلة الرحم بالوطن ومبرّر الانتماء له.

وبالعودة إلى الثنائية ذاتها، فالأكثر أمانة للاجئين طرح الثنائية كـ اللجوء/البيت، وأي مقابل لـ «لجوء» أو أي «حلّ» لهذه الحالة لا يكون بالبيت، بأل التعريف، يكون قاصراً على إدراك معنى «اللجوء» لدى اللاجئ ومعنى «العودة». وليس للمقاربة المادية هنا أي معنى، فهل ستغني شقّة في برج حديث في مدينة حيفا مثلاً، عن بيتنا في ترشيحا؟ ونقول إن الفلسطيني فلان الفلاني نال حقّه في العودة إلى وطنه؟ وأنه لم يعد لاجئاً؟ قطعاً لا. قد تطلّ الشقة على الكرمل ومنه على شواطئ المتوسّط، قد يُشعّل الفرن في مطبخها بالكهرباء لا الغاز، والمدافئ على جدرانها كذلك، لكن يبقى هذا منزلاً وليس بيتاً، أنزل فيه كأنّي أسكن فندقاً، شقّة مارّة وغير باقية، لضرورة العمل أو الدراسة في حيفا. البيت يكون حيث المعنى والرائحة والروايات والذكريات والعائلة والصور العتيقة المعلّقة.

ولأن البيت يكون حيث المعنى والروايات والذكريات وكل ذلك، ولأن الوطن يكون حيث يكون البيت، صار بيت جدّي لأمّي في حمص، وبيت جدّي لأبي في حلب، صارا بيتَين يحملان، على مدى ثلاثة أجيال، وطنَين، واحد في فلسطين والآخر في سوريا، وهذا ما يمكن لمسه لدى فلسطينيي سوريا بالمجمل، «امتياز» انتماء مزدوَج لوطنَين بقدر ما هو انتماء مزدوَج للبيوت،

ازدواجية هي الأكثر تعبيراً عن فلسطينية السوري أو سورية الفلسطيني، وأكثر تجلّياتها حضوراً في هذه الأيام هو اسم عز الدين القسّام، اسم الشهيد السوري والكتائب الفلسطينية.

نال الفلسطينيين في سوريا ما نال السوريين، فتهجّر ونزح ولجأ الفلسطينيون عن بيوتهم السورية كما السوريين، بعدما لجأوا فيها عن بيوتهم الفلسطينية، فصار لـ «حق العودة» معنيان، الأول للبيت السوري والثاني للبيت الفلسطيني. ولا يعني تدمير نظام الأسد للعمران في سوريا، للبيوت بدلالتها المادية، تدميرَ البيوت بدلالتها المعنوية، المكانية. يحضرني هنا فيلم وثائقي من جزئين للمخرج الإسرائيلي عاموس جيتاي. الجزء الأول اسمه «بيت» (١٩٨٠)، ويحكي قصّة هدم بيت عائلة دجاني في القدس، لبناء فيلا سكنية يتقاسمها مهاجرون يهود، نشاهد في الفيلم طبيباً عجوزاً من عائلة دجاني، وهو صاحب البيت، يحكي للمخرج في مكان الهدم عن الذكريات فيه، عن المعاني التي يحملها هذا البيت والغرف التي استحالت فراغاً. في الجزء الثاني من الفيلم «بيت في القدس» (١٩٩٨)، نشاهد يهوداً قادمين من عدّة دول، سكنوا الفيلا، تشاركوها، يجهلون تاريخ المكان والبيت الذي تهدّم والشارع والحارة، يعرفون أن حرباً حصلت هنا وأن المكان صار عائداً للدولة. في الفيلم نفسه نرى ابن الطبيب وحفيدته من العائلة الفلسطينية، يزورون ما بُني على أنقاض بيتهم، يزورون المكان والمعنى، بيتهم/وطنهم الذي طُردوا منه ثم دمّرته إسرائيل وبنت آخر محلّه، أتت بيهود متفرّقين ليقسّموه ويتشاركونه كمحتلّين. أصحاب البيت/الوطن زاروه ورأوا الذكريات واستعادوا الروائح في المكان الذي انتمى له بيتهم، والبيت الذي انتمى له وطنهم.

غسان جباعي

البيت شهقة الحرية الأولى للبشرية

أربعة جدران وسقف وباب ونافذة. هذا كل ما يمكن أن يحتاجه الإنسان لبناء بيت. يبدو هذا الاختراع سهلاً بسيطاً، وقد تجد اليوم، بيوتاً مسبقة الصنع. لكن بناء البيوت بالنسبة للإنسان الأول لم يكن أمراً متاحاً. بقي يعيش آلاف السنين، وبشكل جماعي، في الكهوف والمغاور، خوفاً من الوحوش الجائعة. وقد بقي على هذه الحالة قروناً كثيرة، لم يفكر خلالها بمغادرة القطيع، ومواجهة هذه المخاطر المحدقة به، بمفرده. ولم يكن يملك أصلاً المعرفة ولا المواد ولا الأدوات اللازمة لذلك. فكانت المغارة هي الرحم الثاني الذي لجأ إليه من أجل الحفاظ على وجوده.

إن توق الفرد للتحرر من القطيع، دفعه لخوض مغامرة العيش في الهواء الطلق، فوق سطح الأرض، وتحدي المخاطر وعاديات الطبيعية التي يمكن أن يواجهها، والتي لم يكن قد فهم قوانينها أو سيطر عليها بعد. لكن تطوره البيولوجي وامتلاكه لقشرة مخ متطورة جداً وانتصاب قامته وتحرر يديه وأصابعه وقدراته على اكتساب المزيد من الخبرة والمهارات والمعارف والخيال، مكنته بالتدريج من السيطرة المطَّردة على قوى الطبيعة ووحوشها، وامتلك الشجاعة على الخروج من الكهف ومواجهة العالم. فعاش في العراء واقتات على النباتات والجذور، بالإضافة إلى الصيد، حتى امتلك المهارة اللازمة لبناء البيت الذي يشعره بالأمان والدفء والحرية.

ويُعتبر البيت، أو حتى المغارة، صلة الوصل بين الإنسان والأرض التي بنى عليها بيته أو مغارته. وربما نشأت هذه الصلة قبل أن تكتشف المرأة الزراعة، وقبل أن تتحول الجماعة البشرية من عصر الرعي إلى عصر التحضر والاستقرار وبناء المدينة. إنها المحاولة الأولى في تاريخ البشرية لاستعمار واستثمار الأرض التي ستصبح وطناً، أو محمية، والتي سيلتصق الإنسان بها ويدافع عنها بكل ما يملك من وسائل. فدفاعه عن تلك الأرض يعني دفاعه عن بيته وأسرته. وخسارته لبيته تعني خسارته لتلك الأرض!

ويُقال إن الإنسان البدائي أنشأ، في البداية، جداراً واحداً ليصدّ عنه الريح والبرد من جهة واحدة، ثم بنى بعد ذلك بقية الجدران، من كل الجهات، وجعل لها، أخيراً، سقفاً من جذوع الأشجار والأعشاب، يقيه من الثلج والمطر وأشعة الشمس. وقد ترك في أحد الجدران ممراً لدخوله وخروجه، أصبح فيما بعد باباً بطول قامته. كما ترك كوة صغيرة تحولت جيلاً بعد جيل إلى نافذة واسعة. ولا أحد يدري كم مضى على هذا التطور من القرون حتى أصبح البيت، كما نراه اليوم، مكوناً من عدة طوابق وغرف ذات خدمات مختلفة: غرفة نوم وصالون ومطبخ وحمام وحديقة، وغيره من الخدمات التي تلبي حاجات الإنسان، غير المحدودة.

لقد كان بناء البيت هو أول لبنة في بناء الحضارة الإنسانية. فمع انتقال المجتمعات البشرية من عصر المشاعة البدائية وسيادة الأنثى الأم، إلى عصر المُلكية الخاصة وسيادة الذكر الأب، بدأت تتكون الأسر والقبائل. فاتسعت البيوت وكثرت العائلات وبدأت تتشكل الأحياء والقرى ثم المدن والممالك والإمبراطوريات المختلفة.

البيت إذاً هو المدينة الكبيرة، واختراعه يُعد نقلة نوعية في حياة البشرية وتلبية حاجاتها المادية الأساسية. لكن الإنسان لم يكتفِ يوماً بتلبية حاجاته المادية فقط. فمع تطوره الذهني والمعرفي، بات بحاجة ماسة لتلبية حاجاته الوجدانية أيضاً: الروحية والأخلاقية والجمالية. ولم يعد البيت هو مجرد كومة من الحجارة يلجأ إليها أو مجرد مكان آمن ومستقر لتربية أطفاله، أو مجرد ملكية خاصة يحميها ويدافع عنها بل أصبح يشكل مخزناً لذاكرته ومرجعاً لحياته ومستقبل أولاده. فالإنسان، مع أنه يعتبر البيت: شَقَا العمر، كما يقال، غير أنه يشكل في الواقع البيئة الحاضنة للفرد وعادات المجتمع وتقاليده وقيمه ولغته الخاصة وثقافته. إنه صندوق الذكريات وملعب الطفولة، والمدرسة التربوية الأولى، الأكثر تأثيراً في حياة الفرد من الناحية المعرفية والنفسية والاجتماعية. وهو مسقط رأسه ومرتع نموه وصيرورته. والإنسان لا يرتاح إلا فيه، لأنه مكان عيشه ومخبأ أسراره وساتر عيوبه ومأواه عند العجز. وهو المكان الأول في هذا العالم، الذي تراه عيناه وتكتشفه حواسه ويدركه عقله. إنه مهد الطفولة والفتوة والشباب. بيت الجد والأب والأم والأخوة والأقارب والجيران. تشدك إليه، طوال العمر، أواصر الذكريات المشتركة والحنين الأول والتجارب

الإنسانية البكر كالحب والزواج والمرض والولادة والموت، كما يشدك حبل السرّة إلى جدار الرحم.

إنه الانتماء الأول للزمان / الذاكرة، والمكان / الوطن.

والإنسان الذي لا بيت له لا تاريخ له ولا جغرافيا ولا انتماء ولا هوية. ولذلك استخدم الطغاة عبر التاريخ، تدمير البيوت وحرقها ونهبها وتشريد سكانها أو نفيهم، كواحدة من أشد العقوبات التي يستخدمونها لردع خصومهم ومعارضيهم السياسيين.

وكما أن الأسرة في المجتمعات الحديثة، تعتبر لبنة أساسية في بناء المجتمع، يعتبر البيت شرطاً لازماً لتشكل هذه الأسرة ووحدتها ونموها الطبيعي ونجاحها. ولذلك نشأ هذا التلازم بين رابطة الدم التي تربط بين الأبناء والآباء، والبيت الذي ينشأ فيه المرء مع أسرته. حتى باتت العائلات تُعرف وتلقب ببيوتها.

كما أن البيت، الذي يُعتبر حاجة أساسية من حاجات الناس، وحقاً طبيعياً من حقوقهم الأساسية، تحول إلى رمز للمُلكية الشخصية والمكانة الاجتماعية والاقتصادية، التي تتباهى بها العائلات الغنية. فنراها، وخاصة في عصر الإقطاع، تتسابق لبناء العقارات الكبيرة والفيلات الأنيقة والقصور الفخمة التي تقام في مراكز المدن، وتميّز طبقتها النبيلة عن بقية طبقات الشعب، وتفيض عن حاجتها على حساب الآخرين بينما تكتفي العائلات الفقيرة من الفلاحين والعمال الزراعيين، ببناء أكواخ صغيرة، من الطين والقش أو الخشب أو الصفيح، أو الحجارة، حسب البيئة التي تعيش فيها تلك العائلات. وغالباً ما تتجمع على أطراف المدن والقرى، وتكتظ بأفرادها، لكنها في المقابل تحميهم من التشرد والضياع.

وما زال هذا التمايز موجوداً، رغم أن البيوت في العصر الحديث، تحولت بسبب النمو السكاني، وحاجات المدن الكبرى، إلى شقق سكنية في مجمّعات ضخمة، تحتوي على عدد من البنايات العالية، التي تتألف عادة، من طوابق عدة وتحتوي على عدد كبير من الوحدات السكنية التي تقطنها الأسر العاملة المتنوعة، من حيث المنشأ والمهنة والثقافة، لكنها تنتمي جميعها إلى طبقة واحدة هي الطبقة الفقيرة، ذات الدخل المحدود، كما يقال عندنا في سورية، والتي تعيش على كفاف يومها. مع العلم أن الحصول على شقة سكنية، يُعتبر بالنسبة لهذه الطبقة، حلماً صعب المنال، قد يستغرق تحقيقه عمراً كاملاً، أو أكثر وتشكل هذه الطبقة الاجتماعية في سورية الغالبية العظمى من شعبها. وخاصة بعد أن قام نظام الفساد والاستبداد بتحطيم الطبقة الوسطى وزيادة الفارق بين الأغنياء الفاسدين المحميين من السلطة، والفقراء المعدمين المرهقين بالضرائب والأقساط الشهرية التي يضطرون لدفعها للدولة أو للشركات الخاصة، لقاء الحصول على شقة أو أثاث منزلي.

إن تدمير أو حرق أو ضياع البيت لا يعني فقط خسارة الفرد لرزقه وجنى عمره، بل يعني أيضاً تشرد الأسرة بكاملها، وتمزق وحدتها وفقدان ذاكرتها وتاريخها وأمنها واستقرارها، وضياع ماضيها وحاضرها ومستقبل أبنائها، وعندما يتم ذلك بشكل جماعي، أي تدمير المدن، كما يحدث في سورية منذ أربع سنوات، يصبح التدمير دماراً شاملاً للمجتمع وتهجيراً منهجياً لشعب بكامله، يتحول فجأة إلى شعب مشرد يعيش في مخيمات غريبة.

ولا يفهم قسوة هذه الحالة ومآسيها إلا من عاشها وجربها.

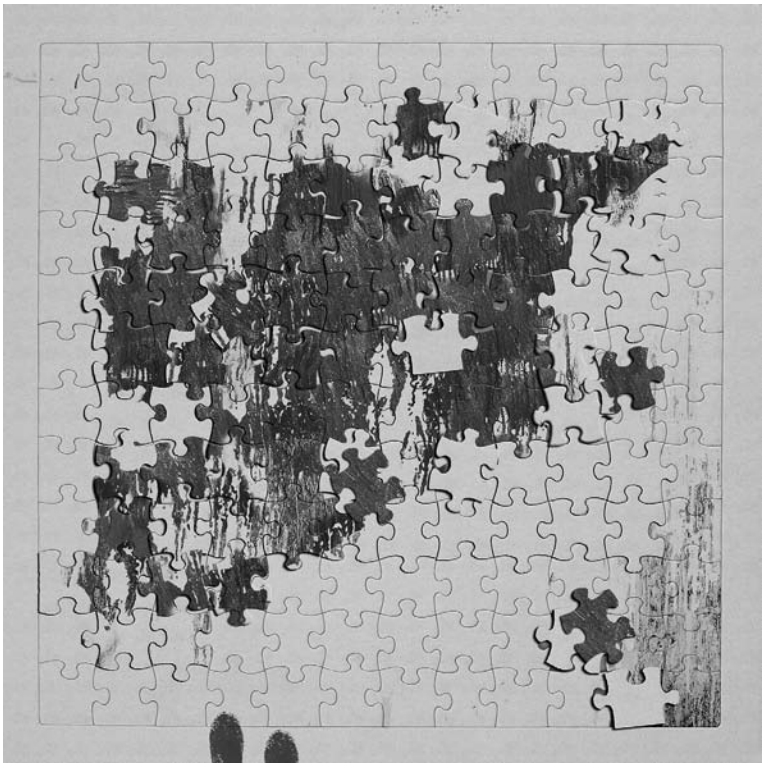

سوسن جميل حسن

مفتاح العودة

تظهر أعمال التنقيب ودراسة الآثار أن الإنسان المنتصب سكن الكهوف منذ مليون عاماً، أي في مرحلة العصر الحجري الأسفل. باكراً في عمر الإنسان وتطوره أدرك حاجاته الأساسية واكتشف سبل تحقيقها ثم أخذ يطوّرها، وربما كان المسكن من أوائل الحاجات التي سعى إليها. كل المخلوقات تركن إلى مساكنها، من أصغرها إلى أرقاها في سلم التطور. لكن المسكن بالنسبة إلى الإنسان، مثل باقي حاجاته، تطور مع الزمن واكتسب دلائل أخرى مع تطوره وتطور ثقافته، ودخل في ميدان جدلية الاسم والمدلول، الاسم والشيء، صار البيت فضاء متعدد التجليات، وصار رمزاً يُدلّ به إلى مفاهيم بشرية عديدة.

«البيت، أو المسكن هو المنشأة التي يأوي إليها الإنسان وعائلته للعيش، والاحتماء من عوامل الطبيعة، ولقضاء احتياجاته اليومية خارج نطاق عمله، ويستخدمه للراحة والنوم، وتحضير الطعام وتناوله، واللقاءات الأسرية والاجتماعية، وممارسة بعض النشاطات والهوايات الأدبية أو الفنية أو الرياضية أو الترفيهية أو الإنتاجية». يا لبؤس هذا التعريف وصرامته الجامدة والصقيعية.

البيت هو حاجة، تلتبس بين الغريزي والمكتسب، حاجة كل المخلوقات للمسكن هو حاجة غريزية أولاً، فحتى الكائنات المجهرية «الفيروسات» تلك التشكيلات التي لا تنبئ بالحياة خارج مسكنها «الخلية الحية»، فإذا ما دخلته

انطلقت طاقاتها المكنونة بنشاط حيّ مزدهر، حتى لو كان هذا النشاط مدمراً للخلية الحية، لكنه بالنسبة لها وسيلة التعبير عن الوجود وعيشه، لها مسكن.

البيت بالنسبة للكائن البشري هو حجر أساس في ممارسة الوجود، هو انتماء للمكان، وما يتفتق عن هذا الوجود من نشاطات وسلوكيات وإبداعات. ليس عبثاً لغوياً أن يُقال عن البيت «مسكن» فاللغة لا تعبث لكنها قد توارب فتمنح المعاني فضاءات أوسع، المسكن مشتق من رحم السكينة، والسكينة ينشدها الإنسان في حياته ويجدها في بيته.

ليس البيت مكان «المبيت» فقط، هو أرحب من هذا بكثير، بالرغم من قيمة المبيت، اكتسبت الكلمة أبعاداً متنوعة لها دلالاتها حتى صارت كلمة البيت تشير إلى مفاهيم متنوعة لنشاطات الناس، فعندما نقول على سبيل المثال: جاء بيت عمي في زيارة إلينا، من المؤكد أن ليس المقصود بالبيت هو هذا التشكيل العمراني الراسخ الذي لا يغادر مكانه، لكن الأسرة المكونة من أفراد تربطنا معهم علاقة ما وذاكرة وتاريخ ومشاعر وحنين، الساكنة لبيت لولاها لا يساوي شيئاً أكثر من مجهول يحتاج إلى معلوم ليعرّف به، هي التي جاءت لزيارتنا. كما بيت الجيران، حتى صارت لعبة يتوارثها الأطفال جيلاً بعد جيل، يتلهون في زيارات بعضهم بعضاً مع أهاليهم بلعبة: بيت الجيران، التي لا زال أطفال سورية برغم قسوة التهجير وذلّ العيش في مخيمات معظمها انتهك مفهوم البيت وحرمته الإنسانية، لا زالوا يبددون وقتهم بها ويمنحون أحلامهم الحياة التي يستشعرون بخطر سرقتها منهم.

البيت هو تعبير مبطن عن هاجس الخلود الذي ما فتئ يشغل الإنسان منذ وعى الموت، يلوذ به من كل أشكال الأخطار أو ما يحرض قلقه وخوفه، يقتني الأغراض ويؤسس بها ذاكرة المكان التي يودع فيها ذاكرته، يمدد ويقلص معنى البيت بحسب حاجاته الحميمية حتى الأكثر سفوراً. حتى المفردات التي أدخلتها المدنية إلى حياتنا لم تستطع أن تدفن الصياغات الخاصة بهذه الحاجات والتي تربطها بكلمة البيت، لا زال الكثير من شرائح المجتمع يسمون دورات المياه بمفردات البيت: بيت الخلاء، بيت الأدب، بيت الماء. فكم من الحمولات الثقافية يمكن أن تحمل هذه الصياغات، وأن تدل على تفكير جمعي مترفع عن المعنى الجامد للأشياء، بل ربطها ببعدها الإنساني، مثلما عبر عن حاجاته المادية أيضاً، فهناك: بيت المؤونة، وبيت الغسيل، وبيت النار، وغيرها.

البيت هو وحدة القياس الناظمة للأحياء والحارات، وهذه تجتمع لتشكل القرى والمدن، ومجموعها يشكل الوطن بمفهومه المكاني، أما البعد الدلالي فترتبه الذاكرة والتاريخ وتراكم النشاطات البشرية المنتمية إلى هذه الأمكنة على مرّ الزمن. مع التطور المدني والتعقد الحياتي للبشر تطور البيت، وصار له مفتاح، وتطور المفتاح.

مفتاح البيت، هذا الحارس الضامن لأمننا وسكينتنا، نتفقده كلما أتعبتنا الحياة ليكون دليلنا ومرشدنا في طريق العودة إلى حيث نقترب من أنفسنا حدّ الالتصاق، إلى حيث تختبئ أسرارنا، طموحاتنا أمانينا، أحزاننا خيباتنا، عذاباتنا، إلى حيث يمكن أن نتعرى ونواجه عرينا بجرأة أمام مرايا الحقيقة فنرى سوءاتنا وعيوبنا، المفتاح يدخلنا إلى متن ذواتنا حيث ماضينا وتاريخنا، حيث نتوزع هذا الماضي وينبني مرة أخرى في أعماقنا. المفتاح هو سرّ الولوج إلى ملجأ يقينا من التشرد في العراء، هو وسيلة الوصول إلى اليقين، وهو بالقدر نفسه أداة الانعتاق إذا ملكناه. كم من المفاتيح نحتاج في الحياة؟ سؤال مفتوح على اللانهاية.

منذ ثلاث سنوات كان مفتاح يصل طوله إلى تسعة أمتار، ويحمل وزناً بثقل قضية صارت حلماً، يجوب البقاع ليستقر في معرض في برلين، ويتزاحم الأفراد حوله يسجلون توقيعهم على جسده يجمعهم انتماؤهم إلى الإنسانية فقط، هو مفتاح يحمل دلالات كبيرة، المفتاح الذي يحتفظ به فلسطيني غادر وطنه هارباً من شبح الموت ذات تاريخ سمّي بالنكبة، يحمل ذاكرة شعب يعاند الموت، هوية تقاوم التزوير، حنيناً يأكل من شغاف القلب كي يبقى متقداً يجوب العالم ليرويها على ضمائره.

أخشى أن يكون هناك مفتاح سوري، فلكل مفتاح حكاية.

بماذا كان يفكر أولئك السوريون قبل انهمار الموت على بيوتهم من السماء أو الأرض أو من أي جهة جاء، فالموت السوري لا يحتاج إلى بوصلة؟ بماذا كانوا يفكرون قبل الموت بلحظات؟ وكيف بقيت القبضة مضمومة على مفتاح؟

ليس لأن المفتاح هو ما يحصن البيت ضدّ الآخر، أو ضد السرقة، أو ضد السطو والاقتحام، وليس لأنه يحمي من قذيفة أو برميل أو صاروخ، وليس لأنه قطعة معدنية قيمتها متواضعة لكنها تساوي الكثير عندما تتعشّق القفل، لكن المفتاح هو اختزال للبيت، إمساك مجازي بالسكينة والأمان، هو وعد بالعودة عند كل خروج، هو لهفة لأمكنة الذاكرة، هو الملاذ والملجأ، هو الأم التي لا ينقطع الحبل السري معها، هو الأب والأخوة والأخوات، هو الشجن العذب الذي يسكننا ونحن بين حناياه، هو الجزء المتجذر من هويتنا في المكان. هو العودة الدائمة وكل مرة بإحساس كأنه المرة الأولى.

في برلين، داهمتني صور الدمار السوري، على وقع التغريبة السورية في خاطري، اخترقتني صور الأطفال وقد حملوا تراب حدائقهم على سيقانهم الطرية، وغبار دمار بيوتهم يكسو وجوههم بأقنعة البؤس فيغيّب الملامح الطفولية، تركوا خلفهم أحلاماً بريئة، وعالماً من البهجة كانوا يستدرجونه إلى أسرّتهم، طافرين من الموت الغاشم باتجاه المجهول، داهمتني تلك الصور

مبطنة بأسئلة عديدة وأنا أرى في متحف كرويتسبرغ صور الدمار والركام الذي نهضت منه ألمانيا لتصبح في وقتنا الراهن دولة ثالث أكبر اقتصاد في العالم، إن لم يكن أكثر، وأستمع بمقتنيات بصرية سمعية إلى شهادات بعض الأفراد عن تلك المرحلة وكيف نهضوا من تحت رماد مدنهم وبيوتهم.

مواطنٌ تَقدم إلى الجهات المسؤولة في حيّه من أجل بيت له ولزوجته، لم يمنحوه الموافقة على بيت لأن لا أطفال لديهما حينها، فقد كان الحي مدمراً بنسبة تفوق الأربعين بالمائة، والمهجرون والنازحون أعدادهم كبيرة، سكن هو وزوجته مفصولين عن بعضهما البعض لمدة أكثر من عام، كل واحد في سكن جماعي، فراح يعمل بنصيحة رفيقه بأن يساعد في رفع الأنقاض، اشتغل أكثر من ألف ومائتي ساعة يرفع الحجارة بيديه، مساء بعد عمله وأيام السبت والأحد كاملين، حتى منح الموافقة على الحصول على بيت، وانتظر حتى جاء دوره.

الشعب الألماني صنع تجربته، ولنا نحن السوريين تجربتنا التي تختمر في رحم الأحداث والتحولات الكبيرة التي تجري في بلدنا، ستكون لنا تجربتنا، وستكون لنا ثقافتنا البديلة التي ستفرزها هذه الحشود المجتمعية من قلب معاناتها، سوريون بيوتهم دمرت، وتراثهم الحضاري انتهك، وذاكرتهم الجمعية تغتصب، وأحلامهم هائمة في السماء يطاردونها حتى لا تذهب بعيداً، ورائحة الوطن مع كل هذا ستبقى عالقة على ثيابهم وماثلة في وعيهم، وسيعودون ومفاتيح الغد بين قبضاتهم، أما مفاتيح بيوتهم التي لم تفارقهم فستبقى تعويذة وتمائم يعلقونها في صدر غرفهم الجديدة في سورية الجديدة ببيوتها الجديدة.

شهادة رحيل

عبد السلام حلوم

الثورة في بستان القصر، في الأيام الأولى من شهر تموز ٢٠١٢ لم تعد مثلما كانت عليه، حين تخرج مظاهرة من جامع حذيفة وتكبر جنوبا تحت باقات الورد وحفنات الرز المنهمرة على الأكتاف من الشرفات، تكبر لتلتقي مظاهرة أخرى خارجة من جامع بدر في عمق الحي، وتلتحمان بثالثة في ساحة الكلاسة ليحتشد الثائرون في تنوع مدهش من حيث الأديان والطوائف، صبايا وشباب، مثقفون وسياسيون، عمال وطلاب وعاطلون عن الشغل وفي اللافتات تتجلى السلمية في شمولية الثورة في وطن واحد، وفي الهتافات يهدر النداء للحرية ضد القمع والاستبداد. هي الآن بدأت تأخذ بعدا جديدا بالتوجه إلى الكفاح المسلح، تحرك هذا التوجه دوافع قديمة، فهذا الحي كان قد شهد في ١٢ آب/أغسطس ١٩٨٠ مجزرة ضحاياها كانوا ٣٥ مدنيا أعدموا ميدانيا بعد مجزرة المشارقة بيوم واحد، كما تحركه دوافع جديدة فقد ازداد في المظاهرات الأخيرة قتل قوات النظام للشباب المتظاهرين، ليصبح الحي تظاهرة دائمة، ليلا ونهارا، ويسقط قتلى جدد ليشيعوا في مظاهرة جديدة، وسط تغلغل عناصر «الجيش الحر» لحمايتها وبدأت تظهر البنادق محمولة على الأكتاف ويحمل حاملها أيضا على الأكتاف ويشتد القتل أكثر لتصبح شوارع التظاهر غارقة في برك الدم ويصبح ليل الحي فضاء للرصاص فقد أخذ «الجيش الحر» ينسف الحواجز الأمنية في مداخل الحي الذي يضم في بيوته الآلاف من الناشطين . في ٢٢تموز٢٠١٢ بدأ ثوار

الأرياف المسلحون بدخول مدينة حلب، وأعلنت «كتائب التوحيد» من «الجيش الحر» بدء معركة تحرير حلب، وأعلن كذلك النفير العام، وطالب بيان من «الجيش الحر» المواطنين التزام بيوتهم حتى تحرير المدينة، ويبشرهم بأنها لن تطول أكثر من ثلاثة أسابيع. وفي ظهيرة اليوم التالي بدأت قذائف النظام تنهمر على الحي، سقطت قذيفة على شرفة الطابق الأخير من بنايتنا، وسقطت أخرى لتفتح في جوف الشارع الموازي للحديقة حفرة بحجم بيتي، حينها أحسست بأنها «طويلة» لا كما يزعم بيان «الجيش الحر»، وعلي أن أغادر هذه المدينة هربا من مصير فاجع أقله بالنسبة لي الاعتقال وعلي بالوقت نفسه إنقاذ الأسرة التي تسكن بمحاذاة الموت الذي صار يناوش الأم وثلاثة أولاد أكبرهم بنت في الرابعة عشرة في بيت مطل على جهنم وفي ملجأ ظل منسيا لعشرات السنين كقبو للجرذان والأشباح ،مع أن شباب البناية قاموا بتنظيفه احتياطا ليوم كهذا، فقد أحسست من أول ساعة نزلنا إليه بأن هذا المكان المطرود من البال لن يحمينا وسط حرب الشوارع، ولن أستطيع أنا الصبر في سجن آخر ولو كان بلا سجان، فهو أشبه بقبر جماعي لبشر يموتون ببطء. قدرت في ساعات الفجر الأولى هدوء على الجبهة فقد هدأت القذائف الآتية من تلة حي الإذاعة، وعلي في لمح البصر أن أصعد الى الطابق الخامس وأتلقف حقيبة الأغراض الشخصية وسط احتمال الموت في أية لحظة، لذلك لم ألتفت ورائي قبل أن أغلق الباب، فلم يخطر ببالي أنه سيحرق وتدمر البناية بعد شهرين، فلم ألق عليه نظرة الوداع الأخير. حسام الذي سيموت بعد ستة أشهر، ينقلنا في سيارة السوزوكي المعدة لنقل الخضار في شوارع كان خبرها كناشط في الحراك الثوري، بعيدا عن أعين النظام وأتباعه من «الشبيحة»، ليخترق بنا حصارهم للمدينة بمهارة فدائي، ولن أنسى أنه ساق بنا في سرعة مجنونة ونحن نقطع ممرا من الموت على مرمى قناصة الراموسة الذين تركوا في العجلات رصاصا عندما فكها حسام عند صديقه في الطريق الآمن إلى قرية خان طومان الهادئة بدت تلك الرصاصات كشظايا في لحم، «أنتم في أمان الآن «، قالها حسام بينما كنا نراقب معا الطائرة المروحية التي كانت ترش الأحياء بالموت وهي تهبط هناك في فناء الأكاديمية العسكرية منهكة من تعب القتل. أسلمنا حسام الذي سيموت بعد أشهر لصديق رافض لدخول «الجيش الحر» شوارع المدينة مدللا على موقفه من حالنا وحال الكثيرين الذين مروا به قبلنا وهو ينقلهم إلى المناطق الباردة، حسب توصيفه، والمناطق تلك لم تكن غير الريف الشرقي من محافظة إدلب. في قرية تل الطوقان التي تتوسط المسافة ين مدينة سراقب المحررة من قبضة النظام ومطار أبو الظهور المحاصر من «الجيش الحر»، كان اللقاء بأختي التي تزوجت فيها من أربعين عاما حميما مبللا بالبكاء والحسرة، بلا عتاب في غيابي عنها لسنوات طويلة، وكان علي أن أرتب في عيادة أخي سعيد الدكتور في تلك الأرياف خطة للخروج من سورية عبر المناطق المحررة صوب الحدود التركية، فهذه القرية لن تظل ملاذا للنازحين من سراقب والقرى المجاورة وهي الآن لن يغفر لأهلها

التصفيق وباقات الورد الملقاة على دبابات النظام الذاهبة لاقتحام سراقب، فهي الآن منطقة تجمع لكتائب «الجيش الحر» الذاهبة إلى معركة حلب. الطريق من تل الطوقان الى بساتين حارم على الحدود التركية لن يكون عصيا على «عمار» الذي يعدد لي بتباه عال المناطق المحررة ويروي قصصا عن بطولات الثوار مقرونة بجرائم جيش النظام ومجازره في القرى الصغيرة وتلك الكبيرة ببطش له القسوة نفسها، وعلى حدود كفر تخاريم المحررة اتصل بمحمود أخي زوجتي لينقلنا الى بستانه الذي لا يبعد سوى مئات الأمتار عن الحدود التركية لننزل ضيوفا عنده قبل أن تبدأ معركة حارم الأولى التي سيعلم موعدها قبل أيام. كان عبور الأسلاك الحدودية سلسا ويتم على مرأى من حرس الحدود الأتراك الذين غضوا البصر عن أسرة هاربة من الموت وتهريبها الوحيد أنفاسها الراغبة بالنجاة. في الطريق إلى مدينة الريحانية كنت أستنهض من الذاكرة أمرين، الأول خريطة سوريا في المنهاج المدرسي وهي تكبر حينا وتصغر حينا آخر بحسب مصالح الدكتاتور، يسلب لواء اسكندرون من التراب، ويظل مرسوما فيها بنقاط زرق، يتنازل عنه في صفقة لحماية العرش وليس الوطن فيُبتر من جسدها عضو وتبدو ناشزة على خصر المتوسط، يختلف الطاغية مع الأتراك فيعود اللواء الى غرتها ليعود إلى وجدان الناس كولد ضائع ولكن في استغراب لا تمحوه بطولات كاذبة، ويصدق الكواكبي مرة أخرى حين يقول: «للاستبداد أثر سيئ في كل واد»، الأمر الثاني أواصر القربى التي تجمعني بناس هنا أفتش عن ملامحها في وجه «صلاح» الذي ينقلنا من قرية «الحامضة» على الحدود الى بيته الى أن نستأجر بيتا خاصا بنا، الأمر الذي أصبح فائق الصعوبة في بلد يستقبل مئات المهاجرين يوميا وعلى مدار الساعة. الريحانية التي باتت تعج بالسوريين، يتضاعف البشر فيها، وهي المدينة الزراعية التي تستيقظ باكرا وتنام في العشاء بعدد سكان لا يتجاوز ٦٠ ألفا، لكنها الآن لا تنام، وتشهد في النهار حركة لم تشهدها، تزداد دخولها التجارية ويرتفع إيجار البيوت لكثرة الطلب حتى أجرت فيها بيوت مهجورة ومعالف طليت بالكلس، صار للسوريين مسميات في الشوارع، «دوار الشجرة، دوار السيراميك، فندق علي ...» كما صار للسوريين الباحثين عن الشغل شارع خاص بهم. في كل يوم مهاجرون جدد لا يمكن لمدينة كهذه أن تستوعب أكثر وبخاصة من الذين لا يريدون الخيام، فتبدأ رحلة البحث عن لقمة العيش في ذل لم يتعودوا عليه، صرنا نرى الطوابير وراء سيارات الإغاثة ونرى في لوحات الإعلانات الطرقية دعوات لمساعدة الأخ السوري بزكاة أو صدقة جارية أو كفالة يتيم، ومما يزيد في حرقة القلب سماع قصص وحكايا عن عاهرات سوريات وعن لصوص وشحاذين، وكل هذا لأن هذه المدينة صارت المقصد الاول للمهاجرين من أحياء حلب الغربية وريفها المتاخم لتركيا وكذلك لريف إدلب بعموم جهاته عدا عن ريف حماة الشمالي، ففي هذه المدينة وجدوا ما يسند ظهر المهجر، غالبية سكانها عرب فتحل مصاعب التواصل باللغة التي ما زال منطوقا بها كلغة خاصة، وعلى المستوى الديني فهم بالمطلق كالمهجرين إليهم إسلام

سنّة، وعلى المستوى السياسي فأغلبهم الساحق من جماهير حزب العدالة والتنمية ولا يخفى موقف حكومة أردوغان في مناصرة الثورة السورية ومن هنا فتحت الحدود على مصراعيها لاستقبال اللاجئين وجرحى الحرب والناشطين الباحثين عن الدعم بكل أنواع الدعم. في مقهى أناتوليا الذي لا يبعد عن الحدود أكثر من ٣ كم كنا نلتقي، الثوار السلميون، المسلحون، المثقفون، السياسيون، الصحفيون العرب والأجانب، إعلاميون متدربون، تجار الحروب، سماسرة الاغاثة، مهربو المقاتلين الأجانب، تجار السيارات القادمة من بلغاريا ومن رومانيا حيث تباع للصوص سيارات سوريين يعلقون بها أرقام سيارات سرقت أو أحرقت في الداخل وينعمون بسيارات حديثة تليق بأثرياء الثورة السورية الجدد. من هذه المقهى نتابع يوميات الحرب، نسمع برعب أصوات الرصاص خلف الجبال، وتسقط أكثر من مرة قذائف في السهول المجاورة، ونحدد بمهارة الأماكن التي سقطت عليها براميل النظام المتفجرة ونعرف أن المكان تحرر وما هذا إلا انتقام من الأهالي وباتصالات سريعة نعرف عدد القتلى وأسماءهم ولا ننسى كم كان الرقم كبيرا بعد معركتي تحرير حارم القريبة. يزداد عدد الهاربين من القتل وتزداد هيمنة الإسلاميين على المشهد يفتحون المشافي والمستوصفات والمدارس ومكاتب الإغاثة بزخم كبير وما تمر الأيام إلا ويزداد الحديث عن فساد يتم باسم شد أزر الثورة وتدعيم مقاومة الداخل، ثم يغيب الكثيرون منهم ليظهر آخرون في عملية تطهير الثورة من ضعاف النفوس ليقرب النصر، وتضج الريحانية بالزحام أكثر فأكثر لأستشعر عن خوف أن أمرا كارثيا سيحصل. في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا من ١٢ أيار/مايو ٢٠١٣، هز انفجاران رهيبان مدينة الريحانية، كان الأول قرب مبنى البلدية وبعده بربع ساعة حدث الثاني في مركز المدينة قرب دوار الشجرة وتحولت المدينة الى ساحة للرعب والدهشة، بنايات تحترق وجثث تتناثر أشلاؤها في الهواء، زحام من مسعفين وأهالي يفتشون بجنون بين الأنقاض عن أولادهم دخان بزنخ البارود يملأ الأفق، عيون مشدوهة البكاء، ركام ودم وعويل وشباب غاضب تفور جراحه الطازجة فيهجمون على كل سوري يرونه أمامهم وآخرون يحطمون السيارات السورية وآخرون يهاجمون اللاجئين في بيوتهم ويبدأ الكثيرون منهم بالهروب خشية أن ينالهم الثأر لعشرات القتلى ومئات الجرحى تغص بهم المشافي، وتفرغ الشوارع إلا من سيارات الإسعاف والباحثين عن سوريين لم يبق منهم واحد إلا واختبأ في مكان خفي ما، وتغرق المدينة بصمت لا يقطعه إلا صوت النعي في الجوامع لقتلى يكبر عددهم بين الحين والآخر وتزدحم المقابر بالجنازات ولا يكاد يخلو شارع في الريحانية من مجلس عزاء أو أكثر. ها هي المدينة التي كانت تعج بالحركة جثة هامدة هي الأخرى وسينتظر السوريون أياما طويلة ليخرج من تبقى منهم فيها من عزلة الخوف ومن قدر يلاحقهم حتى الشتات، وتأتي زيارة الرئيس التركي عبدالله غل الى الريحانية حيث التقى بأهالي الضحايا وبالوجهاء مخففا من حزنهم وغضبهم بالتعازي وبالتعويض المادي الكبير للخسائر، ويدعم هذه المبادرة زيارة أردوغان في

٢٥ أيار/مايو والتي ساهمت إلى حد كبير في تخفيف غضب الشارع الذي تظاهر بعضه ضد موقف أردوغان من الثورة السورية معتبرا أن وجود السوريين على أرضهم سيجلب لهم الموت والهلاك بغض النظر عن الجهة التي تقف وراء هذين التفجيرين اللذين أكد أردوغان أنهما من أفعال النظام السوري المعتادة ولم ينس أن يطالب شعب الريحانية بالترفق والرحمة بهؤلاء السوريين الهاربين من البطش ومعاملتهم كما الأنصار للمهاجرين. لم تعد المدينة مثلما كانت عليه أو أنها لن تعود، غادرها الكثير سواء إلى المدن الكبرى في العمق أو إلى القرى المحررة قرب حدود نسوا أو تناسوا أنها لم تكن في يوم ما عائقا أمام حنين التراب لأهله، وشيئا فشيئا تنبت فكرة هنا في هذه الرأس المشغولة بالحب والحياة؛ «لابد من الخروج من تركيا ولو الى بلاد الواق واق فثمة الكثير أمام هذا القلب ليفعله».

رامي سويد

بيوت أم أحمد

تصل أم أحمد متأخرة إلى مكتب المنظمة الإغاثية الذي تعمل به كمستخدمة لأعمال التنظيف والخدمات في مدينة «الأتارب» في ريف حلب، تدخل المكتب فتستقبلها المهندسة سلمى المشرفة على المكتب بعبارات التأنيب واللوم على التأخير وعدم مسح الطاولات صباحاً كما هي العادة في كل يوم، تتوجه أم أحمد إلى المطبخ دون أن تنبس بكلمة.

بعد دقائق تتوجه المهندسة سلمى إلى المطبخ لتطلب من أم أحمد إعداد كوب من الشاي فتجدها غارقة في نوبة بكاء هيستيري، تحاول سلمى فهم سبب بكائها، تجلس قربها وتعتذر لها عن كلمات التأنيب القاسية التي وجهتها لها، فتجيبها أم أحمد قائلة:

والله يا أستاذة الحق مو عليكي، أنا ما عم أبكي بسبب كلامك، لأن واجبي أني أمسح الطاولات وما أتأخر، أنا اللي حارق قلبي أني بعمري ما اشتغلت عند حدا، بعمري ما فكرت أنو ممكن أشتغل بالتنظيف في بيت حدا...

تحاول سلمى التخفيف على أم أحمد بقولها إن هذه الظروف القاسية تواجه الجميع وأن الأمور ستتحسن بعد فترة، وسيعود الجميع إلى بيوتهم وأشغالهم بعد أن تهدأ الأوضاع في سوريا، يزيد بكاء أم أحمد عند سماعها لهذه الكلمات، تقول بصوت مخنوق: أي بيت يا استاذة؟! ليش ضل من هالبيت غير هالكم حجر اللي جبتهم من ركامه؟

تصدم سلمى بكلام أم أحمد فتقول مستفسرةً: ليش بيتكم اللي بحلب انقصف؟

تجيب أم أحمد بحرقة: أي والله يا استاذة بيتنا انقصف من أول أسبوع دخل فيه الجيش الحر على حلب، وبعد شهر انقصف بيت أهلي اللي نزحنا عليه أنا والولاد، أول ما دخل الجيش الحر على العامرية صارت اشتباكات قوية بالحارة، أخدت البنات وأحمد ورحنا على بيت أهلي بالسكري، بعد أسبوع رحت شوف البيت لقيتو مهدوم، كان صاير كومات حجر وتراب، قعدت وصرت أبكي يا أستاذة، بكيت على عشرين سنة من الضحك والسهر والطبخ والمناسبات والضيوف ولعب الولاد بالبيت، بقيت أبكي حتى ما عاد يطلع صوتي، بعدها أجوا شباب من الحارة بدهم يساعدوني، صاروا يسألوني بدك شي خالة؟.. لازمك شي؟ قلتلهم بدي كيس! دبرولي كيس الله يرضى عليكم! الشباب راحوا وجابوا كيس، أخدت الكيس منهم، حطيت فيه خمس حجار من ركام البيت، حملتهم ورحت على بيت أهلي. بعد أسبوع تعبت أمي، كان معها سرطان، حطيت البنات وأحمد عند بيت خالهم وأخدتها ع تركيا لتتعالج، ضلينا شهر ونص من مشفى لمشفى، بعدها عطونا أهل الخير غرفة وقال نبقى فيها حتى نخلّص جرعات العلاج الكيماوي، نزلت وقتها على حلب حتى جيب أغراض وتياب من بيت أهلي اللي بالسكري، البيت كان مضروب، كانت واجهته اللي على الشارع مدمرة، الغرفة الداخلية كانت سليمة، أخدت تياب الولاد وتياب أمي وكيس الحجر اللي من بيتي وزرت الولاد ورجعت عند أمي اللي بتركيا... بعد شهر ونص أمي أعطتك عمرها، كانت وصتني قبل ما تموت أنو إذا صار عليها شي ندفنها بحديقة بيتها بالسكري، حاولنا كتير... اضطرينا ننتظر عشر أيام حتى قدرنا ندفنها بالحديقة، كانت الاشتباكات قوية بالمنطقة.

تحوقل المهندسة سلمى عدة مرات أثناء حديث أم أحمد، في النهاية تنفخ نفخة طويلة وتقول لأم أحمد: والله يا خالة كلنا شربنا من هالكأس وكلنا راحت بيوتنا... طولي بالك واحتسبي أمرك عند ربك، وإن شاء الله بكرا الحكومة بتعمرلكم بيت بدل عن بيتكم اللي خسرتوه بالقصف.

تعاود أم أحمد البكاء... تقول بفزع: يا أستاذة أي حكومة! أي بيت! الحكومة بتقدر تبني لي بيت فيه صرخة أحمد لما ولدته بعد أربع بنات؟ الحكومة بتقدر تبنيلي الغرفة اللي كنت خيط فيها فساتين بناتي وهنن عم ينطوا ويلعبوا حواليّ؟ الحكومة بتقدر ترجعلي صوت الصرصور تحت شباك غرفة النوم، البيت يا أستاذة روح، البيت شقا وتعب، ضحك ودموع.

تواصل أم أحمد كلامها: بيتي يا أستاذة راحت صورة أبو أحمد الله يرحمو، الصورة الوحيدة اللي كان طالع فيها حلو، كنت مبروظتها ومعلقتها على الحيط بالصالون، كانت صورة بالبدلة العسكرية لما كان يخدم بالجيش بلبنان أول أيام زواجنا، بيتنا يا أستاذة كان صغير، ما كان واسعنا، البلكون عملتله بلور وعملته غرفة للبنات الصغار لما كتروا وما عادت الغرف الثلاثة توسعهم،

كانوا البنات الصغار يناموا ع البلكون بالصيف وبالشتاء بنام أنا وبنتي الكبيرة لأنه نحنا نتحمل البرد بينما الصغار ما بيتحملوا، تركت طاقة صغيرة بالبلور وقتها لأقدر شوف السما لما أشرب قهوة الصبح، كان في مأذنة جامع تظهر لوحدها مع السما، كان سرب حمام كل يوم الصبح يدور حواليها، من وقت ما تركت البيت ما عدت شفت حمام، يا أستاذة كأنه ما في حمام بالأثارب!

تحدث سلمى نفسها آسفة على الحال الذي وصلت له أم أحمد، تقول في سرها: لو ما كنتي يا أم أحمد ساكنة ببيت ما بتصله الشمس كان شفتي الحمام، الله يكون بعونك.

توجه سلمى كلامها لأم احمد قائلة: أيه يا أم أحمد كلنا تركنا بيوتنا، كملي كلامك شو تتذكري أشياء تانية كنت تعمليها بالبيت.

تقول أم أحمد بعد تنهيدة: كنت يا أستاذة برمضان أبعت أحمد يجيب سوس من عند أبو محمد السواس اللي بالحارة، بعد الإفطار ضل أشرب سوس لأشبع، بعدها أتسطح على الكنباية بغرفة القعدة واتفرج على السقف، كان دهان السقف فيه تقشير، كانت ترتسم أشكال حلوة على السقف بسبب هالتقشير بالدهان، يا أستاذة سلمى كان في شكل سيارة جنب المروحة، كنت اتطلع عليها وقول بكرا بشتريله سيارة لأحمد لما يكبر، كان فيه رسمة طبق فواكه كمان على السقف فيها ثلاث موزات، يا أستاذة كنت حب الموز كتير بس كان غالي ما أقدر أشتريه، جنب طبق الفواكه على السقف كان مرسوم وجه بنت حلوة، كنت اتخيل كيف رح يكون شكل البنت اللي بدي أخطبها لأحمد، أيه يا استاذة راحت السيارة وراح طبق الفواكه وراحت البنت، بس الحمد لله كسبنا شوفة وجهك الطيب!

تقوم أم أحمد من كرسيها وتطلب الإذن من سلمى آسفةً على إطالة الحديث ثم تحمل ممسحتها وتتوجه إلى غرفة المكتب لمسح الطاولات.

راتب شعبو

بيتنا القديم والإسفلت

بين يوم وآخر جعلنا الإسفلت غرباء عن بيتنا. ما راكمته سنوات من الحياة العائلية المتوارثة كنسه الإسفلت في غمضة عين وألقى عليه سواده. وفي فترة وجيزة شاخ بيتنا وتجرأت عليه النباتات البرية وملأت مساحاته، وصار مطابقاً في واقعه لصورة البيت المهجور. ربما كان عليّ أن أشكر الإسفلت بدلاً من لومه، فقد تأخر في الاستيلاء على البيت وأتاح لي أن أعود إليه بعد غيبتي القسرية الطويلة وأن أعيد تواصلي معه.

لا تعني كلمة «الإسفلت» لأهل «كفرية» ما تعنيه لغيرهم. هي لا تعني بالنسبة لهم مجرد حجارة سوداء لينة لها استخدامات معينة، ولا تحيل في أذهانهم إلى صور الشوارع أو شبكات الطرق السريعة، ولا تعني مادة العزل التي تُستخدم على أسطح البيوت وعلى جدران السفن. هذه الكلمة لا تشير بالنسبة لأهل «كفرية» إلى جماد أو إلى شيء، إنها كائن له تاريخ ميلاد ومسار حياة ونهاية، له ملامح ورائحة وفعل، لهم معه ذكريات ومسرّات ومرارات ومواجع.

بقي الإسفلت نائماً تحت بيوتنا وأراضينا لزمن طويل قبل أن يأتي الفرنسيون ويوقظوه. وما إن استيقظ حتى بدأ يرسم لنفسه مساراً صاخباً لا يأبه بمسار حياتنا السابق على استيقاظه، يرسم ملامحه بحرية تامة، وبحرية تامة راح يقسرنا على تغيير ملامح حياتنا. أعمال حفر وتنقيب، ثم تفجيرات، ثم أعمال جمع الصخور

وتكسيرها ونقلها ثم طبخها بالفرن وتجميع الزفت في قوالب... إلخ. مع الأيام صاغ الإسفلت حياتنا على مقاس حركاته هذه وإيقاعها، ولكن لم يكن في البال أن بيتنا سيكون في عداد ضحاياه.

انبنى بيتنا قبل أن ترشح أفكار الحداثة العمرانية إلى بلادنا، وقبل أن يصبح للبيت باب رئيسي واحد لا يمكنك أن تدخل إلى أي غرفة من البيت قبل المرور فيه. بدت لي الغرف في هذه التصاميم الحديثة، قبل أن أعتاد عليها كغيري من الناس، مسجونة داخل البيت طالما أن الغرفة لا تملك مدخلاً مستقلاً بها. بنى جدي البيت في الزمن الذي كان يبنى البيت فيه خطوة خطوة، فقد كان زمن البناء لا ينفصل تماماً عن زمن السكن والعيش. يكون لدى الأسرة ميزانية لا تكفي لبناء أكثر من غرفة، تبني الأسرة غرفة ثم تسكن فيها وتبدأ مع الوقت ومع تزايد عدد الأولاد ومع تشكل أسر فرعية جديدة بتوسيع وتحسين البيت من موقع الساكن المقيم. يتوسع البيت ويمتد مع توسع وامتداد الأسرة.

في ذلك الزمن كان يأتي تصميم البيت بطريقة ارتجالية تستجيب للحاجات المستجدة وتحترم أيضاً القدرات المادية للعائلة، فلا يمكن أن تتوسع أكثر مما تسمح به ميزانيتك الفقيرة لشراء مواد للبناء وأجور للمعمرجي ومعاونه. لذلك يمكنك أن تجد، في تصميم أحد البيوت، غرفة صغيرة إلى جوار غرفة أكبر بكثير، وقد تم بناء الغرفتين المتجاورتين في زمنين مختلفين يفصل بينهما سنوات. ضيق الغرفة يؤشر إلى ضيق الحال حينما بنيت، والعكس بالعكس. كان لكل بيت في قريتنا تاريخه الخاص، وهو تاريخ يحمل بصمات تاريخ العائلة نفسه في ضيقها وفرجها. حتى يمكن تشبيه تصاميم البيوت في القرية بالعزف الارتجالي، أو بالتقاسيم.

القاسم المشترك بين بيوت القرية القديمة هو أن تصميم البيت لا يحرم الغرفة من استقلاليتها. أنت لا تحتاج، لكي تصل إلى غرفة، للمرور عبر باب رئيسي. لكل غرفة بابها المفتوح على الخارج. لكل غرفة استقلاليتها وشخصيتها وعلاقتها المباشرة بالعالم الخارجي. تتجاور الغرف، ولكن لا تتخلى الغرفة عن حريتها لصالح البيت، لا تقبل بأن تصبح أسيرة باب رئيسي ليس بابها. على أنها لا ترفض التجاور ولا ترفض فتح علاقة مباشرة مع جاراتها. وكثيراً ما ترى باباً داخلياً يفضي من غرفة إلى غرفة ولكن كتعبير عن التكامل وحسن الجوار وليس عن الهيمنة، وحين يقتضي الأمر يمكن إغلاق هذا الباب الداخلي نهائياً دون أن تتأذى وظيفة أي من الغرفتين.

غالباً ما كانت تتواصل الغرف عبر الشبابيك أو الطاقات، وذلك لتمرير المواد توفيراً للجهد والوقت ولتفادي الخروج من الغرفة ولا سيما في الشتاء. وربما جرى التخاطب بين أهل الغرفتين عبر هذه الشبابيك والطاقات التي توحد فضاء البيت وتعطي للحميمية العائلية مجالاً متصلاً. وفي الحالات الطارئة كانت تستخدم هذه الفتحات لتهريب المواد الممنوعة (دخان، سلاح... إلخ) من غرفة إلى غرفة للتمويه على الشرطة وغيرهم من «أبناء الحكومة».

وكان بيتنا، الذي حَرَمنا منه «الإسفلت»، يشترك مع بيوت القرية في عدم احتوائها على تواليت. يجافي الحس السليم أن يتم قضاء الحاجة في مكان داخل البيت، حتى لو كان هذا المكان مخصصاً لقضاء الحاجة. كان يفضل القروي، قبل أن تسحق الحضارة تفضيلاته، أن يتدبر أمر قضاء حاجته أينما كان بعيداً عن البيت. حتى إذا بنى القروي مكاناً مخصصاً لقضاء الحاجة (تواليت) فإنه يبنيه في مكان بعيد عن البيت. هذا ما كان يتسبب في إحراج النساء من أهل البيت، ذلك أن ذهابها على الملأ باتجاه التواليت كان يشبه إعلاناً عاماً عن نيتها في تلبية نداء الطبيعة، وهو أمر محرج بذاته.

كانت غرف بيتنا تتراصف على نسق واحد، سوى أن الغرفتين الأخيرتين كانتا تتقدمان قليلاً عن مستوى النسق احتراماً لشجرة اللوز الكبيرة التي كانت ستُقطع فيما لو جرى الإصرار على سلامة النسق. كانت كل غرفة في بيتنا تتنفس العالم الخارجي من رئتين: باب وشباك. وكان ظهر الغرف جميعاً يستند إلى السفح الذي يحتضن البيت كله، فلا يوجد نوافذ خلفية للغرف. وأمام الغرف كانت تمتد فسحة طولانية اعتدنا أن نسميها «الدار». على يمين الدار كانت تنتصب شجرة حور كبيرة تعربش عليها دالية عنب تتغلغل فيها حتى تبدو عناقيد العنب في الصيف وكأنها من ثمار «الحورة». هكذا كنا نسمي شجرة الحور تلك. وكانت في الدار أيضاً ثلاث شجرات توت كبيرة إحداها شامية كما كان يقول أبي، حيث كانت ثمارها سوداء فاحمة.

كل تفصيل في الدار يرتبط بتفصيل من حياتنا، بذكرى سعيدة أو حزينة. مع السنين لم تعد الدار مجرد مكان أصم، صارت حيزاً مشحوناً ومولداً للانطباعات. هنا قريباً من التوتة الشامية وقف رئيس مفرزة الأمن مهدداً أبي كي يرغمه على تسليم «أخي» الهارب من وجه الاعتقال السياسي، وفي تلك الزاوية الحزينة جلس أبي محبطاً إلى حد الانهاك حين علم أن أختي الفتية مصابة بذاك المرض المرعب، وفي هذا الدار احتفلت العائلة بالطبول والمزامير فرحاً بعودة ابن عمي من مستشفى «المواساة» في دمشق معافى بعد مرض كاد يطفئ شمعته، وفي هذه الدار كانت عائلتنا مجتمعة على نشرة أخبار «البي بي سي» حين سمعنا خبر اغتيال أنور السادات وفرحنا... كل ذلك لا يعني شيئاً أمام زحف «الإسفلت».

كان نصيب بيتنا أنه قريب من المكان الذي اختاره الفرنسيون لاستخراج الاسفلت، وثابر عليه «الوطنيون». بعد سنوات طويلة، صادقنا الإسفلت، اعتدنا على صوت التفجيرات، حفظنا مواعيد التفجير وصرنا نلجأ إلى البيت هرباً من الحجارة المتطايرة في الوقت المناسب ودون حاجة إلى سماع صوت التحذير الذي كان صوتاً بشرياً في البداية ثم تحول إلى صوت آلي يشبه صوت صافرات الإنذار. أحببنا رائحة الإسفلت التي كانت جزءاً أصيلاً من روائح البيئة عندنا. لكن الإسفلت مخلوق تحت أرضي ولا يقدر قيمة ما فوق التراب. وقد جاء اليوم الذي جرف فيه الإسفلت بيتنا دون اعتبار لشيء.

هاشم شفيق

الأسفار المعطلة

كان من المفترض أن تلتهم بغداد الحصة الأكبر من زيارتي الأخيرة لهذا العام، كما هو حال كل عام، حيث أقضّي قرابة الشهرين بين الأهل والأقرباء والأصدقاء، ممضياً الوقت صباحاً في المرور على المكتبات في الباب الشرقي وفي سوق السراي وشارع المتنبي، والتعريج فيما بعد الى المقهى في الكرادة أو القيصرية أو شارع السعدون، ويكون ذلك، بعد ان نتشبع بالعناوين والمفردات والكلمات التي ترفرف فوق حروف الصفحات، وبعد أن نُلم بما صدر هنا وهناك مع اصحاب المكتبات الكبرى التي يحلو لي الحديث معهم عن السيرة الكتابية، كيف تسير في هذه الآونة، وأي كتاب هو السباق الى يد المداولة، حيث يجر الحديث الحديث، فنميل الى الكتاب السيروي، ثم السياسي الذي يتضمن السيرة والمذكرات، وبالطبع نقفز بسهولة الى الرواية، وحديثها ممتع كونها الوليد المدلل للجوائز العربية التي راحت تزداد وراح كتاب الرواية يزدادون ويتسابقون الى كتابة الجديد من العمل الروائي، بمعدل عمل واحد لكل عام أو عامين لكي يجاري الكاتب أو الروائي ماراثون الجوائز العربية التي باتت تجزل العطاء وتستهوي الكثير من كتاب العربية وأدبائها وحتى شعرائها الذين كانوا قبل هذه الآونة الروائية هم النجوم الذين انشئت أولى الجوائز من أجلهم. حديث صاحب المكتبة عن الشعر مثل حديث ناشره وموزعه، يمر به كأنه عبء عليهم، وحين تفيض الكلمات علينا وقبل أن نغرق في بحر من المعاني والرموز وعلامات الكتابة

وأمواجها اللذيذة التي تنسينا في أيّ خضمّ نحن، نسارع الخطى بالذهاب مشياً على الأقدام الى المقهى في الكرادة، قاطعين شارع ابي نُواس الصامت والحزين، نتجاوز نصب أبي نُواس وعمامته الحجرية وكأسه الخاوية، وهو واقف وقفته الحزنى على زمن مضى، كانت بغداد وشارعه هذا يغص بالحانات الجميلة ذات الخمائل الميادة والنائسة، بينما الآن هو نفسه يتوسل قطرة السلاف لكأسه الناضبة .

الشارع فقد بهجته ومرحه وصخبه، دون أن يفقد رونقه، فنهر دجلة لم يزل جارياً منذ بداية الخليقة، والشجرات. الصفصاف واليوكالبتوس والسدر العملاقة كبرت وطالت وامتلأت بالظلال والنعاس وأشعة القمر البرتقالي، مرات وأنا أتمشى في هذا الشارع أنحني لألتقط من الأرض حبة سدر ناضجة سقطت من الشجرة، امسحها بكم قميصي والتهمها، في الحال تقفز الطفولة اليّ راكضة ورائي بجلابية مخططة، سمراء ناحلة، تلكزني وتسلم عليّ، ولكأني صنوها أو حفيدها الذي كبر الآن وصار كهلاً، وحين لمحته قرب شجرة السدر هُرعتْ اليه لتذكره بالأيام الخوالي.

نصل الى الكرادة بعد أن راعنا منظر الدبابات السمينة وهي تتبختر منتفخة بالبارود، جائية ذاهبة تحرس الضفة الثانية للمنطقة الخضراء التي تجلس فيها الكلاب الأميركية والهررة الفارسية والضباع العربية، حيث يأكلون معاً من قصعة واحدة فيها ثريد من لحم ودم المواطن العراقي المغلوب والمسلوب الحقوق والإرادة.

في الكرادة نبحث عن المقهى فلا نجده، يقول العابر أنه رحل في حزام ناسف، آخر يقول انه مُحي بسيارة مفخخة، وآخر يدلنا الى مقهى في الزاوية نجلس فيه مطرقين وقلقين من القاتل الذي هو مثلنا يرتدي الجينز والتي شيرت، يعمل أجيراً لدى أشقاء الهلاك الذين يكفرون حتى الحجارة، النصب والتماثيل الساكنة لم تسلم من حقد الكائن الجاهل الممرغ بغبار الماضي وأحجياته. نشرب الشاي على عجل، نمشي ونتلفت، الشوارع والأزقة شبه خالية، الموت وحده يتجول هناك.

رغم هذا، كنت أسافر الى بغداد، مغامراً كعادتي، متخطياً العقبات الكثيرة، صافحاً عن عن أمور كثيرة قد تحدث لمسافر مثلي تعود على نمط آخر من العيش، فأغض النظر وأقول انها في المحصلة بلادي.

لكن صيف هذا العام وأنا في السليمانية أعد العدة للسفر الى بغداد، ثمة هاجس راودني في تأخير الرحلة، مصغياً لنداء ابنتي المقيمة هناك، بأن أتريث قليلاً في طلب السفر الى بغداد، لأن الأوضاع كما قالت ليست على ما يرام، فأرضخ لطلبها، لأقول في داخلي أنها حجتها لتبقيني فترة أطول مقيماً عندها.

تواتر المجريات والوقائع والأحداث السياسية وهي تتقلب أمامي على نار ملتهبة، جعلني أتراجع عن الذهاب الى قريتي أيضاً ومسقط رأسي حيث ينابيع الطفولة وشجيراتها وغاب النخيل الذي يشق سماواتها، هذا الغاب الذي عادة ما يأتي اليّ بصياح الديوك وخوار البقر وصهيل الخيول ممزوجاً برنيم الفواخت وأصوات الزرازير وحفيف الهداهد والبلابل الرمادية ذوات الذيول القرمزية، فضلاً عن طيور أبي الحناء والقطا والدراج الشهي المحرِّض على صيده، كونه ممتلئاً، ولذيذ اللحم طريّه، ناهيك عن القبج والخضيري

مع تشكيلة مذهلة وناعمة من العصافير وزاغات الزرع والدوري والهزار المهذار في الفجر، فهو السبّاق الأول على ايقاظي من غفوتي في العراء تحت القبة السماوية المترعة بالنجوم. أجلت سفري الى هذه القرية الفاتنة إذ سوف لا أجد أحداً هناك، فجميعهم ترك المكان خوفاً من بطش البرابرة الجدد داعش والقوات الطائفية الحكومية التي أضحت تستخدم البراميل المتفجرة، ضد السكان الابرياء بحجة أنها أمكنة مضادة، بعد سقوط الموصل وتكريت ستقطع الطرق المؤدية بين المحافظات الشمالية وبغداد، وبين كركوك والسليمانية، تحسباً من انتقال العدوى الى مواضع أخرى.

السليمانية

السليمانية مدينة جبلية، صغيرة المساحة، قياساً بأربيل التي مساحتها تتجاوز مساحة لبنان كله، وعمرها العمراني، لا يتعدى الخمسمئة سنة، انشئت في عهد سليمان باشا ابّان الخلافة العثمانية كقلعة حصينة محمية بالجبال التي تحيطها من كل صوب.

في العام ١٩٩١ جئتها كصحافي مع وفد المعارضة العراقية الأول الذي عقد في صلاح الدين، حينئذ كانت على شكل قرية صغيرة، ثمة بيوتات متناثرة حول المركز الذي هو البازار أو السوق مع بضعة نواد قديمة ومقاه شعبية تزود الوافدين بالشاي والمرطبات، ومن ضمن هذه المقاهي كانت مقهى الشعب الشهيرة التي يبدأ بها البازار الكبير، تتفرع منه أزقة صغيرة تؤدي الى الاطراف والضواحي.

الآن السليمانية، هي غير تلك التي رأيتها قبل أكثر من عشرين عاماً، انها الآن مدينة حديثة، متطورة، تعج بالأسواق الفارهة واللافتة المبنية وفق الطرز الحديثة، كالتي نجدها في أوروبا ولبنان والأمارات، يجد فيها المقيم والزائر كل ما هو معروض من تصاميم اوروبية شهيرة، تحمل العلامات اياها للشركات الكبرى في العالم، وكذلك تجد المطاعم البراقة والأنيقة الى جانب المقاهي ذات المسحة الرومانتيكية والفنادق الصاعدة محاولة في صعودها مناوشة السحاب، ففيها الهلتون والكارلتون ورمادا وغيرها مما هو لافت في عوالم السكن والإقامة، هذا فضلا

عن الشوارع الفسيحة والجديدة مقرونة بنظام مرور دقيق، دون أن ننسى العوامل الخدمية التي تهيمن عليها وأبرزها عامل النظافة.

مقهى الشعب

لم يتغير موقعها، لكنها رممت لتتماشى مع التطورات العمرانية المعاصرة، ما زالت رفوف الكتب هي الأبرز في مشهدها كمقهى، الصور القديمة للثوار الأكراد، لرجال البيش مركة معلقة في زواياها ومن ضمنها صاحب المقهى ومؤسسها، تتجاور مع صور الأدباء والكتاب والفنانين والموسيقيين، ثمة قصيدة لشاعر كردي مؤطرة بالزجاج مهداة الى المقهى تتناثرأبياتها أمامي بالكردية معلقة على الحائط، وثمة أيضاً صورة لأدونيس الشاعر الكبير وهو جالس فيها والى جانبه يبدو مدير المقهى، أدونيس بدا مغتبطاً وهو في السليمانية بين الأكراد الذين يكنون له حباً كبيراً له ولشعره وأدبه بشكل عام، الشاعر الآخر الذي تجد كتبه مترجمة الى الكردية على نطاق واسع هو نزار قباني، الكتب العربية أخذت تنحسر، وظهرت مكانها حركة ترجمة نشطة للأدب العالمي بكل تاريخه وأسمائه الكبرى والرنانة، خصوصاً المفكرين والفلاسفة وحائزي جائزة نوبل، الشاعر الذي ترى كتبه في مقهى الشعب وفي المكتبات المجاورة هو الشاعر الكردي الكبير شيركو بي كه س الذي افتقدته كثيراً في زيارتي للسليمانية هذا العام، لكني عوضت الفقدان بزيارة مرقده في حديقة آزادي، مواسياً التمثال الذي تعرض كتمثال الشاعرين أبي تمام والمعري والموسيقي عثمان الموصلي الى يد التخريب الظلامية والأرهابية التي تكفر ربات الجمال والفن والإبداع حيثما كانوا .

شلالات احماوه

تخففاً من الأنباء المتواترة والمصائب المتسارعة وارتفاع منسوب الحرارة، نقرر الذهاب الى مصيف احماوه النائم بمحاذاة الكهوف الجبلية العميقة، والمياه الكريستالية الباردة، المسافة تكلفنا قرابة الثلاث ساعات بالسيارة، الطريق الى هناك لم يكن سوى لوحة رومانتيكية رسمها رسام مثالي مصلياً أمام الجمال الرباني للطبيعة، المصيف ليس بعيداً عن التخوم الإيرانية.

خرير الماء هو ما يسمع هناك طوال الوقت، الخرير الأبدي الذي لا يهدأ ثانية، الريح مع الماء والهواء العذب الذي يهب تحت شجرات التين والبلوط والجوز والحور يؤلف تناغماً هارمونياً يسر القلب والنظر والروح، العراقيون القادمون من كل انحاء العراق يجدون في هذا المكان ألفة ما بعدها ألفة وبالأخص الهاربين من القائظة والحرارة المرتفعة في المدن الجنوبية أو المدن الغربية التي ترتفع فيها سخونة الاحداث المتلاحقة.

الأمان عنصر أساسي في هكذا أماكن ومدن، وهو أصبح للعراقي أثمن من رغيف الخبز، هنا

تسطيع أن تجد حياتك بين الحوريات الغامضات اللواتي يظهرن بين الزبد، هنا الجبل يقدم نعمته وعطاءاته الخالدة، هنا الأرض حبلى بالنعيم والظلال والنعومة المستشرية في النسيم الذهبيّ، لا أصوات مدافع ولا هاونات وزخات صواريخ ورصاص ودمار ينهمر كالمطر، هنا الأرض تمطر من بهاء الرطوبة المائية، الكل هنا بدا مسترخياً، مستجماً في ظلال شجرة، يوقد نار الشواء، بين الجسور الخشبية والبرك المائية والسواقي الباردة التي يوضع فيها البطيخ والشمام وعناقيد العنب لتتبرد وتثلج، السلاسة هي من قوام المكان بطبيعته الأنثوية التي غسلت أفروديت بالقرب من هذي الينابيع جديلتها الإسطورية الطويلة التي مرت ودارت في الشرق الاوسط كله، هي من سكنة البحيرات والبرك والجبال والبحار الفائرة بالحب والجمال والرغبة .

سقوط الموصل

وأنا على الشرفة، جالس أمام الجبل أتناول فطوري، مصحوباً كالعادة بصوت فيروز، وإذا بالصدمة تهز كياني وأنا اتطلع الى محافظ الموصل وأمامه مايكرفونات العالم وهو يتحدث ببرود عن سقوط الموصل وكأن الذي سقط في يد داعش الحركة الظلامية الجديدة هو أحد البيوتات التي يسكنها في الموصل، وليس الحاضرة والعاصمة الثانية التي هي اكبر من بغداد مساحة، المدينة التاريخية، مدينة الأنبياء شيت ويونس وجرجس ودانييل، هذا ناهيك، عن تعددها الأثني، السرياني، الكلداني الآشوري، حيث يتجاور فيها منذ مئات السنين المسيحي والازيدي والشبكي والقليل من التركمان والكرد والعرب، مدينة المواقع الأثرية المثلى في منطقة « الحضر» التي تجمع التراث الرافديني بين حجارتها الدهرية ذات البعد البدئي لتكوّن الحضارت الأولى .

ينسحب المحافظ من وراء المايكرفون، مثلما انسحب من الموصل، وتركها بيد داعش الكهفية ذات البعد المعتم والطائفي بامتياز التي تقتل على الهوية وعلى الإسم مثل بقية الميليشيات العراقية التي تحركها الأهواء المذهبية، فحذارِ أيها العراقيّ البريء، وأنت تمرّ في موقع ما أو مدينة ما، أو تتجول تحت سماء عراقية، حذار من حمل إسم علي وحسن وحسين أو عمر وعثمان وبكر أنها أسماء قاتلة، تقتل حاملها مع الإعتذار للخلفاء الراشدين والحسين شهيد الإنسانية.

كانت الموصل في أواسط السبعينات، مدينة سهر وليل، هناك أدّيتُ خدمة الإحتياط العسكرية في سفح سنجار ذي البعد الأزيدي، وبالقرب من معابدهم التي كنت أزورها بين الحين والحين من أجل الاطلاع وإثراء معلوماتي عن هذه الطائفة المسالمة التي تهرب الى البعيد نحو المتاهات لكي تنفذ بجلدها من الأديان الأخرى المعادية لها، في تلك الآونة كانت الموصل مدينة حياة، تجد ما لذ وطاب فيها، مدينة اسواق تراثية، ومواقع نبوية، وأضرحة أولياء، مدينة حمامات عريقة، وأمواه شفاء كبريتية ونزهات واصطياف في غاباتها المعروفة، كنت حين أحصل على اجازة من ثكنتي المتاخمة للحدود السورية والتركية، وأنا هناك في ظلام المجاهل، حيث لا

شيء سوى الصمت والخيام العسكرية والريح والثلج وعواء الذئاب الليلية، كنت أحنّ الى الموصل وللحركة المدينية فيها، الى زاوية في مقهى، الى مكتبة خاملة ورصيف ظليل للصحف والمجلات، الى عتمة في دار سينما، الى خميلة في ظل حانة، كانت الموصل تلبي النداء على عجل كونها القريبة من مخيمنا العسكري وكونها العاصمة الحضرية الثانية التي تقع فيها على ما تشتهي وتريد وترغب.

الموصل الآن في يد الظلام، المستقبل معتم وغامض فيها، ولا يمكن التكهن الا بمزيد من الخراب والتفسخ والتآكل، ليس للموصل فحسب، بل للعراق كله.

عبد الله صخي

غرفة اللاجئ العراقي

يا رحمة للغريب! طال سفره من غير قدوم،
وطال بلاؤه من غير ذنب، واشتد ضرره من غير
تقصير، وعظم عناؤه من غير جدوى.

أبو حيان التوحيدي (الإشارات الإلهية)

منذ وصوله إلى الغرفة رقم ٩ وهو لا يكف عن التفكير بأصدقائه وغرفهم في المدن التي أقام بها، أو أقاموا بها، أو زاروها: مواقع لمتاهة متصلة، غرف ضيقة أو واسعة، محتشدة أو فارغة، مضاءة أو معتمة، في الطابق الأرضي أو العلوي، في أول المدينة أو آخرها، في مفترق الطريق أو مدخله، خارج المدينة أو في مركزها، ملحقة أو مستقلة. رؤيا بعيدة مرتعشة لرجل منهك محموم، عاشق يتلظى بنيران غرامه وخسائره.

كان يحلم دائما بأن تكون له غرفته الخاصة، متسعا له وللأصدقاء والأسرار والسكون، ملجأ لساعات القيلولة والأحلام الطويلة المتكررة، فضاءً لاستغاثات الجسد ويقظة الحواس. في بغداد عاش مع أمه وأخوته في غرفة واحدة. وحين تزوج أقام في غرفة واحدة. وعندما هاجرا إلى لبنان استأجرا في بيروت غرفة واحدة، ثم انتقلا إلى دمشق وسكنا غرفة واحدة أيضا. وفي لندن، المهجر

الجديد، سكنا في بيت صغير ضيق ليست له فيه غرفة خاصة، حتى جاء يوم قالت له زوجته بحزم: «لنفترق، لم أعد أطيق حياة كهذه، وجودك في هذا المكان الضيق يخنقني».

بعد أيام استأجر الغرفة رقم ٩ في طابق علوي من مجمع للغرف ب»أكتن تاون» غرب لندن. لكن هذه الغرفة بدت، منذ الساعات الاولى، كئيبة موحشة ومعزولة.

* * *

وهو يرتقي السلالم الحديدية من الجهة الخلفية للمبنى متعثرا بجسده المضطرب، كان يرى عشرات النهايات الحزينة والأفول المبكر والمشاهد التي تبعث فيه إحساسا بالقلق والفقدان: غروب مفاجئ لنهار، اتكاء الكراسي على الطاولات لحظة إغلاق حانة، موت مباغت لصديق، اختفاء أثر، محطة قطارات مهجورة، أنقاض حديقة، نهاية مأساوية لقصة حب مدوية.

تظل أبواب الغرف المجاورة والبعيدة موصدة كأن أحدا لم يسكنها. غرف منعزلة، كل قطاع منعزل عن الآخر، حتى تبدو مثل جزر يفصلها الخشب والحديد والآجر. تتصل الطرق إليها بالسلالم الحديدية، عشرات السلالم الحديدية من أسفل المبنى إلى الغرف التي يهيمن عليها الصمت والسكون.

* * *

كان الوقت مساء، لكن الليل يهبط سريعا وهو يستلقي على السرير يحدق في العتمة، مصغيا إلى وقع خطوات على السلالم الخارجية، أو في احتشاد الظلام بين الأشجار خلف النافذة المطلة على الجانب الخلفي. منذ تلك الليلة أحس بمرض ما يدب في أوصاله. هل كان مريضا حقا؟ لا يعرف بالضبط ما كان يحدث له، لكن العرق يتصبب منه، وإنهاكا يدفعه إلى ملازمة السرير، يتقلب فيه متلظيا بجسد ثقيل وأعماق ملتاعة ذاوية. شريط من الصور المتتالية التي غالبا ما تتوقف عند زمن ما ثم يتواصل وميضها في لقطات لماض يتمثل الآن ويندفع كأمواج عنيفة أو هادئة. إنه يتضور من الحب، حب من؟

مرة حاول النهوض متكئا على يديه الذابلتين فلمح بين اليقظة والنوم، صورة متكررة لأفعى رسمت على الشرشف الأخضر. أمضى الأيام الأولى في الغرفة، ينظر إلى صور الأفاعي وهي تزحف ببطء في أماكن مختلفة ثم تختفي ليراها بعد ساعات أو أيام مرسومة، ثابتة على القماش. أيام متواصلة كأنها ليل واحد أو نهار واحد. لم يطل على الحديقة خلف السلالم الخارجية المؤدية إلى الشارع، ولم يطرق بابه أحد. مرة رأى فتاة إنكليزية شقراء لحظة خروجها من الحمام، ولما تزل مبللة، متجهة إلى غرفتها رقم ٧ المقابلة لغرفته. كان يمشي بصعوبة متكئا على جدار الممر بين الغرف. أشاحت بوجهها وأسرعت إلى غرفتها. بدت خائفة منه. أحس كما لو أنه مخلوق غريب مفترس فوجئت بوجوده هناك.

من تلك الغرفة، مأوى الليل والنهار، من جحيم الحمى الضارية، راح يقتفي آثار غرف أصدقائه، متمنيا أن يراهم، ولو لمرة واحدة، أمنية وداع. هكذا يستدعيهم واحدا واحدا، مفقودين وغائبين، سياسيين وسجناء، منفيين ومهاجرين، عشاقا وخائبين. غير أن صورة الفتاة الإنكليزية الممتلئة بالحيوية والبهجة أطلقت شعاعا منسيا حمل صورة من صباه حين كان يعيش مع عائلته في غرفة واحدة. كان الكل ينام مبكرا ماعدا أخته الخياطة تظل ساهرة حتى منتصف الليل. تلك الأيام، وفي كل مساء، تأتي فتاة من الجوار لتتدرب على الخياطة. يجلس إلى جانبها حول المكنة فيما تكون أخته منشغلة بمقاسات الملابس تقاوم خدر النعاس وتعب النهار. في لحظة ما، وتحت ضغط الإصغاء العميق للرغبات الدفينة، تسللت يد الفتاة إليه، ثم تسللت يده إليها، فاكتشف تلك الغابة السرية المعشبة من الشعر الأجعد بين الفخذين. لم يذهب أي منهما أبعد من ذلك مع أن اللعبة تكررت. تلك هي حدود اللعبة لامرأة عذراء وتلك هي حدود الرغبة المحرمة.

* * *

الليل في الغرفة أشد ظلاما من الخارج. لم يكن بمقدوره النهوض لإضاءة النور. استسلم لذلك الاسترخاء المبهم، يتذكر صور أصدقائه، يراهم في صورته، وحين يتحدث عنهم فإنما يتحدث عن نفسه، إنهم يتداخلون في صورة واحدة، وشخص واحد، ومصير واحد.

يتذكر كاظم جوده يوم انتقل من الكوت إلى بغداد. كان موظفا في دائرة حكومية، سكن غرفة في مبنى عتيق بشارع المتنبي يديره شخص قصير أحمر الوجه كثيرا ما كان يفتخر بأنه أمهر قواد في المدينة، لذا كان بوسع الزائر أن يقابل، في أي وقت، عاهرة تتنقل بين غرف المبنى. لم تكن غرفة كاظم جودة تشبه غرف الموظفين الآخرين. إنها تشبه غرفة حلاق. على رف واطئ صغير رصفت قناني عطور مختلفة، ما أن يفتح الغرفة حتى يشم رائحة عطر. كانت مشبعة بالأريج ما عدا اللحظات التي يفتح فيها كاظم جودة قنينة عرق. غرفة ساخنة تواجه شمس الظهيرة المحرقة ومع ذلك تحميه من وحشة النهار حين تخلو الشوارع من المارة. يجلسان متقابلين إلى طاولة صغيرة. يحدثه كاظم جوده حديثا حذرا عن زميلته في الدائرة. أحيانا يصمت صمتا طويلا وهو يتطلع إلى انحراف الشمس عن النافذة، فذلك وقت اختفاء اللهب وقرب انتهاء النهار. بعد شهور عبّر له كاظم جودة عن حبه لزميلته، وضجره من تلك الغرفة. قال إنها تحولت إلى مركز لشبكة من المومسات الصاخبات للحد الذي لم يعد بوسعه النوم وقت القيلولة، فأخذ يذهب إلى المقهى بعد نهاية الدوام، وعند المساء يأوي إلى البار. يخرج في الصباح قبل الهجوم المباغت للمومسات، ويعود آخر الليل. ذهب لزيارته مرة فوجد باب الغرفة مغلقا. سأل البواب فلم يجبه. راح إلى الدائرة فأبلغته زميلة كاظم هامسة بأنه اختفى لسبب تجهله. غاب كاظم جوده عن غرفته دون أن يعرف مكانه أحد، حتى أهله الذين جاءوا من الكوت بحثا

عنه لم يعثروا على شيء فعادوا منكسرين مهزومين. أربعة أعوام مضت، مر على الغرفة عشرات المستأجرين. من المؤكد أن كل واحد منهم غيّرها وفق رغباته واحتياجاته، وربما اختفت رائحة العطور إلى الابد. في ليلة شتائية وجد كاظم جودة نفسه مرميا في الطريق، أمام الغرفة، لا يستطيع حمل جسده الذي أنهكه التعذيب في أقبية السجون. لا أحد يعرف سبب اعتقاله ولا أحد يعرف ما حل به بعد ذلك.

غرفة النزيل رقم ٩ بيضاء، فتية، طليت حديثا، لكنها تذكره بغرف المستشفيات، لذلك يشم فيها دائما رائحة أدوية. في يقظته أو منامه، لا فرق، لم يعد يميز بين اليقظة والنوم، يتوسل أن تتسع جدرانها، لتصبح قاعة كبيرة كي لا تطبق عليه لحظة انهيار جسده على السرير.

في حي الحيدرخانة ببغداد تنهض الغرف حيث تنمحي الشوارع الفرعية الضيقة وتتهاوى الجدران أمام صداقات أثيرة. طواف نهاري في المقاهي والأسواق وبحث دائم عن طبعات بدائية لكتب قديمة، ثم طواف آخر تحت شرفات شارع الرشيد نحو مقاهي المساء أو حاناته على ضفة النهر. ما كان يسعده في تلك الغرف هو قربها من موقف الحافلة التي تقل صديقته (التي تزوجها فيما بعد) إلى الجامعة كل صباح. كانت تفصله عنها بضع خطوات، لكن آلاف الأميال تفصله عنها الآن. هكذا اعتاد أن يبدأ يومه برؤيتها، يوصلها إلى الجامعة ثم يعود وهو يفكر بها طوال الطريق.

إنه يراها في فراغ غرفته الموحشة تصغر شيئا فشيئا حتى تلتصق في قلب الجدار كنحت بارز، فتظهر غرفة النحات منقذ سعيد من دهليز طويل.

بعد بحث مضن عثر منقذ سعيد على غرفة بمنزل مشترك في زقاق ضيق ينفذ إليه من ساحة عرنوس بدمشق. تسكن صاحبة البيت الغرفة الأخرى، امرأة عجوز لا تكف عن الصراخ والتعليق حتى وهي منفردة. لم تكن تأتي كثيرا، تمضي أوقاتا عند أبنائها المتزوجين غير أنها إذا جاءت، وغالبا برفقة أحدهم يقود خطاها العمياء، فإنها تمضي أياما عدة تحوّل خلالها حياة النحات إلى جحيم، فهي لا تخرج من غرفتها خجلا من الرجل الغريب الذي يجاورها. لذلك تطلب منه أن يغلق بابه عندما تذهب إلى دورة المياه. إنها تذهب إلى دورة المياه كل خمس دقائق تقريبا. كان يراها تتنقل بين غرفتها ودورة المياه، وفي كل مرة ينبغي على النحات أن يغلق باب غرفته كي تمر. لم تكن تسمح لزميلاته بزيارته، إنها تتدخل في ابسط شؤونه، وتسأل عن كل من يطرق الباب. ثرثرة وزعيق وأوامر لا تنتهي. غير أن ما كان يضايقها أكثر من أي شيء آخر هو منحوتاته ورائحة العرق. كانت ترجوه أن يحطم التماثيل التي تسميها أصناما، وأن يجلب عرقا من دون رائحة. فاضطر إلى أن يتصرف بسرية تامة، أن يتحرك من دون صوت داخل الغرفة بعد أن جمع فيها كل منحوتاته. ويوما فيوما غصت الغرفة بالتماثيل، والنصب الصغيرة، والأقنعة،

والوجوه، والدراسات، ومشاريع من الجبس والحجر والطين، إضافة إلى الألوان المبعثرة فوق مئات الصفحات. ومع ذلك كانت تناديه من داخل غرفتها السوداء، بين دقيقة وأخرى، ليلبي لها طلباتها الكثيرة حتى ضاق ذرعا بها فأخذ يقضي أغلب أوقاته في الطرقات منتظرا الساعة التي تعود فيها إلى أحد أبنائها. حاول كثيرا أن يجد سكنا آخر فلم يفلح. وإذ لم يحتمل ذلك الجحيم قرر مغادرة دمشق نهائيا والإقامة في ليبيا. بعد شهر وصلت رسالة منه قال فيها إنه ترك، يوم سفره، تمثالا كبيرا في باحة الحوش، وطلب استعادته والاحتفاظ به إذ كان يعلق عليه آمالا كبيرة. وحين وصل اصدقاؤه إلى هناك لم يجدوا سوى حطام من الجبس المبعثر على الأرض الإسمنتية الكئيبة.

بعد سنوات توفيت العجوز فشاخت الغرفة وهرمت وتهدمت أطرافها ودب فيها السكون. السكون ذاته الذي يخيم الآن على الغرفة رقم ٩، سكون يدفعه نحو النافذة فيرى في أعلاها غيمة رمادية أطلت ذات يوم على غرفة مهدي محمد علي. غيمة رمادية على سفح جبل في حي الأكراد بدمشق حيث يقيم الشاعر بهواجس مضطربة ومستقبل مجهول. تبدو الغرفة وكأنها معلقة في الفراغ العلوي، أو أنها تهبط من السماء. داخل الغرفة، كقلب الشاعر، أبيض نقي، وخارجها مثل حياته بلون الرصاص. ما يميز تلك الغرفة الزهور والنباتات الصغيرة التي كان الشاعر مغرما بها، حتى إن إحدى النباتات نمت كثيرا فغطت سريره فبدا كما لو أنه جزء من حقل فسيح أخضر. وجاء يوم ذبل الحقل واندرس وغدا أرضا برية قاحلة غير أن قصيدة له ظلت تتردد في تلك الأرجاء، نشيد ينهض من التراب تعزفه أصوات مجهولة تهبط من الغيمة الرمادية. أما الشاعر، وقد أصبح هرما، بلحية كثة وشعر أبيض طويل، يجوب طرقات دمشق، يتوقف أو يجلس أمام مرقد الشيخ محي الدين بن عربي، متوهما إنه يتجول في أزقة البصرة القديمة.

* * *

حاول أن ينهض من السرير فأزاح شرشف الأفاعي بقدمين متخشبتين. متشبثا بالجزء الحديدي من السرير قام بصعوبة. تمكن من الوقوف ومشى حتى توسط الغرفة رقم ٩. كم مضى عليه هنا، يوما، شهرا، سنة؟ لا يعرف بالضبط. إنه مستغرق بين زمنين مجهولين ليس لهما تواريخ أو حوادث أو حدود فاصلة. كل الذي يتذكره هو اليوم الذي فزعت منه الفتاة الانكليزية. أحيانا يحسب الليل نهارا، وغرفته قبرا واسعا، ثم يحسبه صغيرا جدا، ويتساءل كيف له أن يسعه. النافذة مغلقة والستارة المسدلة تحجب العتمة. يسمع وقع خطوات فوق السلالم الحديدية، ثم طرقا على بابه. الفتاة الانكليزية؟ يفتح فلا يجد أحدا. تكرر هذا المشهد مرات عدة. وفي لحظة مباغتة رأى صديقه فاروق صبري يدخل الغرفة. ينهض ليعانقه. حياه وجلس. دخن سيكارة وسأل فاروق ان يعود به إلى غرفته في الحيدرخانة التي استأجرها فاروق عندما قدم إلى بغداد لدراسة المسرح في أكاديمية الفنون الجميلة (عودة عبر الزمن المر المتسرب كالدخان).

جلسا هناك، مدفوعا بالوهم الذي تثيره الحمى المفترسة، تحدثا كثيرا عن الأصدقاء، المنفيين والمقيمين. تحدثا عنهم كما لو كانا يتحدثان عن مفقودين. فجأة دهمت الغرفة أمرأة سمينة، هبت كزوبعة عصفت بالنافذة وصحن السكاير الأسود والصور والجرائد، عصفت بصوت مليء بالرعد والشر. هاجمت فاروق بأقسى الكلمات وأكثرها فحشا، وطالبته بإيجار متأخر. يتذكر أنها قالت له: «يمكنك تدبير الإيجار من جهد أخواتك في طرقات كركوك». خجل فاروق وأحمر وأحنى رأسه صامتا حتى هدأت العاصفة وانسحبت وهي تتوعد. أمضيا الوقت المتبقي من الليل صامتين. حزن فاروق كثيرا، ليس بسبب شتائم المرأة السمينة بل لأنه لا يملك ثمن إيجار الغرفة ومصروف اليوم التالي. قبل النوم بقليل قال فاروق إن تلك المرأة كانت يوما ما قوادة. بتلك العبارة الباهتة حاول أن يدافع عن نفسه. لكن المشهد تكرر في الليالي التالية. أحيانا تنتظرهما عند نافذتها المطلة على الزقاق. وإذ يقتربان منها، وهما مخمورين يترنحان في الظلام، تنهال على فاروق بسيل من الكلام البذيء. كان يحزن في البداية، غير أنه سرعان ما اعتاد على ذلك خاصة مع بداية كل شهر وتأخره عن دفع الإيجار.

تبدو الغرفة معتمة في أشد لحظات النهار سطوعا. غير أنها مضاءة في مخيلة فاروق وفي أحلامه. عالم رحيب يشبه المسرح. الغرفة مسرح بخشبة ومشاهدين وإنارة. يتطلع في جدرانها الأربعة فيفكر في هدمها لإطلاق مسرح برؤية جديدة خلاقة مبتكرة تسير في طرق لم يسلكها أحد. مغامرة؟ أوهام؟ ربما. لكن المسرح بالنسبة لفنان مثل فاروق يبدأ من هنا، من الغرفة، من الزنزانة إلى أبعد قرية في العالم. حلم طويل متصل لا ينتهي ولا يتوقف حاول فاروق طيلة حياته أن يجد له فرصة واقعية لتطبيقه ولم يحصل عليها. لكنه لا يزال يحلم.

إلى جوارها غرفة كريم عبد، ملجأ آخر للأحلام العسيرة. غرفة تصخب بالدعاء والمسرات الوهمية يطلقها نزيلها النحيل في فضائها الضيق الذي يصبح مع الأمنيات الكبيرة كونا ليس له حدود، أفقا منفتحا على قبة سماء مرصعة بالنجوم والنور. فجأة يتغير كل شيء حين يغرق كريم بحزنه وفقدانه عشقا فاتنا تركه خلفه في مدينة الديوانية. يوما ما، وبحدس العاشق عرف كريم أن فتاته في بغداد للدراسة الجامعية فانشغل بالسؤال عنها فيما كانت أحلامه تزداد اتساعا يوما بعد يوم، وظنونه تكبر يوما بعد يوم. ترى هل كانت تحبه حقا؟ هل لها علاقة بأحد الآن؟ فجأة تحولت تلك الغرفة، التي تشبه منفضة السكائر، إلى حديقة، غابة، سهل مديد تحلق فيه الأحرف والكلمات والأغاني. جاب الطرقات معلنا وجود فتاته إلى جواره. تحدث إلى الباعة والكتب والكراسي والجدران والأسرة، تحدث عنها إلى كل شيء يقابله في ليله ونهاره. حتى إنه فكر بأن يخبر المرأة السمينة صاحبة الغرفة علها تشفق عليه. لكن ذلك تبدد وتلاشى بعد أن قابل فتاته ولم يلمس منها أي استجابة. انسحبت ضحكته العالية، وانحسر النشيد بين جدران

الغرفة التي أصبحت ضريحا صغيرا تهوم فوقه حروف عربية من تلك التي نراها في المخطوطات الدينية القديمة. خلال فترة وجيزة عاد كريم إلى طفولته وتوارى فيما استمرت الغرفة تستقبل نزلاء جددا الواحد بعد الآخر.

لم يكن الطقس حارا لكن الغرفة رقم ٩ كانت حارة تلك الليلة، مليئة بالدخان. وفي زحمة ضباب الخمر في رأسه المضطرب قرأ له عباس ديكان قصائد لوردزورث، تشيللي، ملتون، بايرون، وكيتس. ثم غنى «لما أنت ناوي تغيب على طول...». هذه الغرفة في منطقة الميدان. يصل إليها عبر زقاق طويل متعرج كثير المنعطفات في أوله تسكن فتاة تدعى (حرية) مقابل مدرسة متوسطة. وفي آخره تقع غرفة عباس ديكان. كانت واسعة ليس فيها كراس. نزلاؤها من الطلبة يفترشون الأرض ولا يعرفون وقت النوم أو وقت اليقظة. الليل هناك قصائد من الشعر الإنكليزي وأغنية طويلة لا تنتهي. غير أن ما كان يحزن النزيل رقم ٩ هو أنه لا يستطيع رؤية (حرية) من النافذة وهي تقف في باب منزلها. كان فستانها أحمر وشعرها بضفيرتين طويلتين. تمسك بيدها كتابا مدرسيا لا تقرأ فيه. إنها تتمتع برؤية المارة في الزقاق. أما هو ورفاقه العمال فكانوا يتطلعون فيها طوال النهار عندما كان يعمل في بناء المدرسة المتوسطة أثناء إحدى العطلات الصيفية. (حرية) تركت حلما غزير الرغبات في قلبه استعاده منذ أول زيارة لغرفة عباس ديكان، أي بعد نحو سبع سنوات على فراق تلك الفتاة العروس. بعد ذلك ذهب مرات عدة، فلم يجد سوى ضجيج خارجي. لقد غاب النزلاء والضيوف كلهم. مرة طرق كثيرا فخرج طالب جامعي وقال: «عباس انتقل، الغرفة خالية، تفضل». صعدا معا. كان النهار ساطعا لكن الغرفة بدت مظلمة يعلوها الغبار كما لو أن عباس تركها منذ عقود. كانت فارغة من صور الشعراء الأجانب والممثلات والملصقات. كانت الجدران عتيقة فخيل إليه أن النوافذ آيلة للسقوط. الغرفة لم تعرفه ولم تهمس له بأي صوت. قال له الطالب: «لا تبك». استغرب. لم يكن يبكي. الفتاة الإنكليزية كانت تقف بجوار باب غرفته وتبكي. حين رأته غير قادر على النهوض من السرير أعانته. مشيا خطوات وسقطا معا على الأرض. وضعت رأسها على كتفه واستمرت تبكي. قالت إن صديقها هجرها وإنه لن يعود إليها بعد الآن. بكت كثيرا وهو يربت على كتفها ويمسح دمعها ثم بكى معها. كانت دموعه تختلط بالعرق المتصبب من جبينه وعنقه. شعرت بحرارة جسده وسألته إن كان مريضا. تحدث بكلام متصل عن النهايات: نهايات الليل والنهار، نهايات المخلوقات، نهايات الحب، نهايات العلاقات الزوجية، نهايات الطرق، ثم تحدث عن الألم الكبير الذي يسحق روح العاشق في كل فصل من فصول تلك النهايات. انسحبت بهدوء وأغلقت باب غرفتها بإحكام.

ثم استمع إلى صديقه شاهين وهو يروي له قصة الغرفة رقم ٥٠٢ في فندق فرنسي يطل على شارع مزدحم صاخب. لم يكن شاهين ومحبوبته الصغيرة يشعران بضجيج الطرق المجاورة.

كانا، طوال الوقت، يصغيان إلى أصوات الشلالات التي تنهمر من قلبيهما. في باريس للزمن خفة الريح. مشيا طويلا، توقفا فوق جسر على نهر السين، اقتربا من بعضهما. ينحني شاهين على الجسر ويحدث محبوبته عن النهر والمدينة. يقول لها: «المدينة رحبة وأليفة، كل شيء فيها يتجه نحو النهر. النهر هنا مركز الأشياء، قوة الجذب السحرية الضاغطة». ثم يستنتج: «النهر عين المدينة وقلبها». أين قرأ شاهين ذلك؟ تملكها شعور طاغ بالفرح لدقة الخلاصة.

كان شاهين يرى محبوبته امرأة من ذهب. أنفها، قدمها، يداها، شفتاها، كل شيء فيها اجتزئ من ذلك البريق الأخاذ الخاطف. حين تجلس في حجره وتلقي رأسها على ذراعيه يشعر كأنه يحمل باقة ورد. يقول لها إن زفيرها يشبه النسيم القادم من الجنة. حزن شاهين حين انتهت علاقتهما في يوم خريفي موحش ثقيل، لأن أهلها رفضوا زواجها منه إذ كان يكبرها بعشرين عاما. افترقا لكن قلبيهما ظلا يتصلان لسنوات، وربما إلى الآن. حزن شاهين فترة طويلة للحد الذي شعر أن به مسا إذ بدأ، دون وعي منه، يحدثها طوال اليوم، ويقلد صوتها ومشيتها. حزن شاهين حتى أشرف على الانهيار.

في يوم ما عادت محبوبته لزيارة باريس لكنها هذه المرة بصحبة زوجها وطفلتها. وقفت على الجسر، في المكان ذاته، وانحنت على صفحة النهر، تماما كما فعل شاهين ذات يوم. التفتت إلى زوجها وقالت له: «النهر عين المدينة وقلبها». لم يهتم الزوج لملاحظتها. كان منشغلا بخاتم الذهب الجديد في يده. طلبت منه أن يأخذها إلى منطقة الفندق الذي سكنته ذات يوم مع شاهين. توقفت هناك، بالضبط أمام الغرفة رقم ٥٠٢. تمنت أن تلقي نظرة عليها من الداخل لترى وجهها القديم في المرايا، في الجدران، في الستائر، على الأرض أو فوق السرير. لكنها استدارت يائسة وهي تسحب طفلتها من يدها. شعرت بألم يسري في أوصالها، ولم تتمكن من إزاحة تلك الغمامة السوداء عن صدرها لأيام.

وهو في استلقائه على السرير رأى الغرف جميعها تتوحد في غرفة واسعة مستطيلة، لتصبح قاعة بيضاء خالية من دون نوافذ، احتشد اصدقاؤه الغائبون في زاوية منها. كانوا يتطلعون إليه بعيون حزينة، صامتين فيما هو سعيد برؤيتهم. لم يدرك لماذا كانوا صامتين مكتئبين. تمنى لو أنهم يتقدمون نحوه. ناداهم فلم يتحركوا.

* * *

استيقظت الفتاة الإنكليزية من نومها متأخرة ذلك الاحد فرأت باب الغرفة رقم ٩ مفتوحا. أطلت برأسها، فوجدت النزيل نائما. أمضت وقتا طويلا في ترتيب غرفتها وهي تفكر في نومه العميق. وعندما ساورها القلق دخلت عليه بصخب متعمد. مررت يدها على شعره، ثم هزته

بعنف. كان جسده باردا متخشبا ملتصقا بالسرير. هرعت إلى الشرفة المتصلة بالسلم الحديدي وأطلقت صرخة. انفتحت أبواب الغرف المجاورة، فخرج النزلاء كما لو أنهم يخرجون لأول مرة من أقبية أو كهوف. سألتها النسوة عما حدث فأجابت بصوت مكتوم يغص بالنشيج: «اللاجئ العراقي...».

بعد ساعات قدم عراقيون منفيون ومهاجرون. كان عددهم قليلا، حملوه في تابوت تابع لمؤسسة دفن الموتى. هبطوا السلالم الحديدية بحذر واتجهوا إلى الشارع العام. خط بشري ضئيل يجري خلف التابوت باتجاه مقبرة غرين فورد. لم يبك أحد منهم، ربما اعتادوا على ذلك لكثرة موتاهم. الفتاة الإنكليزية وحدها كانت تبكي بحرقة وهي تستند إلى سياج الشرفة.

عبد الله العتيبي

سقف إيران

«بضع دقائق وسنصل إلى السواحل الكويتية... استعدوا».

قال الربان للركاب الذين يكتظ بهم قاربه الخشبي، بعد أن أطفأ المحرك، وران صمت يشبه الخشوع، يمنحه بعدا رومانسيا خرير الماء وهو يضرب القارب بحنو ودلع، في فضاء مفتوح بنسمات حانية وبهاء؛ ولئن كان الركاب متلهفين لهذه اللحظة، وعملوا كل شيء من أجل الوصول إليها، لكنهم تصرفوا مثل أي شخص حالم، عندما يجد نفسه في مواجهة حلمه، وهو يراه يتحقق أمام عينيه، فيمسي مرتبكا.

صار سير «اللنج» في مهب الريح، بعد إطفاء المحرك، كمصائر الرجال، الذين بدأ ربان القارب يوزع عليهم المجاديف ويطلب منهم التجديف باتجاه الضوء، وهو يشير نحو الشاطئ الكويتي، وكانوا ينظرون في وجوه بعضهم، ويوزعون ابتسامات وجلة، ويعضون على أسنانهم لدفع القارب نحو مآله بكل قوة.

أحس «سهراب» بدقات قلبه تتسارع، خوفا وإثارة، وهو الذي يسافر للمرة الأولى في حياته، باتت بلاده بعيدة جدا، لكنه يحملها في داخله، يخالجه شعور لم يعهده من قبل، يغمره حب كبير لكل شيء في إيران، وخصوصا لـ«شهر كورد»، مدينته الآسرة، حتى ثلوجها التي تصعب الحياة أحيانا، صار يحسها الآن بردا وسلاما، أمام هذه الرطوبة الجافة، لكنه متعطش أيضا لشاطئ الأمان، شاطئ الأمل، والرخاء والمال الوفير، الساحل الكويتي.

نسي كل المعاناة التي قاساها، والموت الذي رآه قريبا منه، عشر ساعات يصارعون البحر، والأمواج التي تضربهم من كل صوب، وتحملهم وتطيح بهم بقسوة، وهم يهربون من طريق دوريات خفر السواحل، الإيرانية والكويتية، ويتحاشون مناطق السرايات البحرية التي ابتلعت الكثيرين من قبلهم، ولفظتهم إلى الشواطئ الكويتية، وكابدوا الخوف والقلق والتوتر، ولولا توسلاتهم لما وافق ربان القارب على منحهم دقائق معدودات لإنقاذ زملائهم الذين سقطوا بين الأمواج.

وما زال يشكر الله «خدايا شكر»، حينما كادت تخرج روحه لما مرت قريبا منهم بارجة أجنبية، دفعتهم بعيدا عن مسارهم، شعروا أنها رمت بكل أحلامهم عرض البحر، بقوة الماء الذي شقته إلى نصفين، وهي تسير كأنها مدينة تتحرك، وطائراتها الرابضة فوق السطح، كأنها نسور نائمة، ودفعت الأمواج باتجاه قاربهم المتواضع، الذي يطفئون محركه كلما أحسوا باقتراب الخطر، واحتاجوا إلى وقت طويل كي يعودوا إلى مسارهم.

سهراب يسير في الطريق الذي سلكه كثير من الإيرانيين لدخول الكويت خلسة والعمل فيها، وهي التي ظلت منذ الستينات والسبعينات تمثل حلما للإيرانيين بحثا عن الرزق الوفير، ومنهم من بقي وحصل على الجنسية الكويتية، ولو كان الحجر يتحدث، لقال كيف أن كل بيت أو شارع أو وزارة في الكويت، شارك في بنائها الإيرانيون المعروفون بإخلاصهم وتميزهم في العمل.

ها نحن في العام ٢٠٠٧، وما زال الإيرانيون لا يجدون في بلادهم ما يوفر عليهم كل هذه المجازفة، ويخاطرون بحياتهم للحصول على عمل يسد رمقهم، رغم أن إيران بلاد نفطية أيضا، لكن أموال الإيرانيين تذهب للآخرين للأسف، ويكسر القلب منظرهم، شيبا وشبابا، وهم يفترشون الطرق في الكويت بانتظار عمل، ولو كانت العلاقات حضارية بين الجيران في هذه المنطقة، لما احتاج سهراب إلى المجازفة لعشر ساعات مضنية، وكان في استطاعته الوصول إلى الكويت بواسطة الطائرة في ٤٠ دقيقة وحسب.

إذا كان البحر بوابة الإيرانيين الحالمين، الساعين إلى مصدر للرزق والعيش الكريم في بلاد النفط، فإن البر كان طريق القادمين من العراق والجزيرة العربية للوصول إلى الكويت، والسوريون والفلسطينيون أيضا، وكانوا يسمون دخول القادمين إلى الكويت بهذه الطريقة «الكعيبر»... وهي كلمة غير معروفة الأصل، لكنها تعني المتسللين الذين يدخلون إلى الكويت خلسة عبر الحدود، وربما يكون معناها مشي الشخص بكعبه في البر، ويحكي بعض كبار السن من الكويتيين ذوي الأصول العراقية والسعودية والسورية، كيف كان الكثيرون يموتون في البر بين العراق والكويت، فمنهم من تفترسهم الذئاب أو يموتون من العطش عندما يضلون الطريق.

رفع قائد القارب كلتا يديه، يشير إليهم بوقف التجديف، وقال لهم بصوت خفيض بالفارسية

«اللورية»، وهي اللهجة المحكية للبدو الإيرانيين، «لا تصدروا أية أصوات، ستقفزون إلى البحر الآن، وتسبحون نحو كيلو متر واحد أو أقل، لا تنظروا وراءكم»، وأضاف وهو يشير باتجاه الأضواء «من هناك تتفرقون، تستأجرون سيارة توصلكم إلى العناوين التي معكم، واحذروا من سيارات الشرطة».

معظم الركاب الواحد والعشرين لم يكونوا يحملون سوى زمزمية ماء علقوها على رقابهم، ومأكولات خفيفة أكلوها في الطريق، كما حمل كل منهم كيسا بلاستيكيا وضع فيه ملابسه ومبلغا قليلا من المال، كي لا يبللهما الماء، علا صوت قائد القارب وهو يطلب منهم النزول إلى البحر والسباحة بقية المسافة، ولم يتأخروا، فقذفوا أنفسهم في اتجاه الأضواء الكويتية المغرية والمخاتلة.

تردد اثنان بالقفز، لم يكونا يجيدان السباحة، لكن الربان لن يسمح ببقاء أي شخص، فلا يريد أن تعتقله شرطة خفر السواحل الكويتية متلبسا، عندما يدعي أنه ضل الطريق، وخلال دقائق كان الجميع يسبحون في اتجاه الساحل الكويتي، لكنهم فوجئوا أن المسافة ليست قصيرة كما قال لهم صاحب المركب، الذي اعتاد أن يتخلص من الركاب عندما يكون في استطاعتهم رؤية ساحل البحر، ومن مسافة لا تتجاوز ألف متر، لكنه يغش بمئات الأمتار ليكسب مزيدا من الوقت قبل شروق الشمس عليه وهو في المياه الإقليمية الكويتية، رغم أن الاتفاق المسبق بين الطرفين، يقضي أن يتركوا القارب عندما يصل منسوب المياه إلى أحزمة الرجال، أي إلى خصورهم، وفقاً لحالتي المد والجزر، لكنه يحاول خداعهم ما استطاع.

حينما وصلوا، كان عددهم ٢٠ شخصا، لم يعرفوا أين فقدوا زميلهم، ولم يكن لديهم الوقت للسؤال، توجهوا في ثلاث مجموعات نحو الطريق الرئيسية على ساحل «الفنطاس»[١]، ولم تكن تبعد أكثر من خمسين مترا من الساحل، وهي مسافة قصيرة جدا، ولهذا يختارها المهربون؛ وبعد عبورهم الطريق الرئيسية، سيكونون بين البنايات وبيوت المواطنين، أي في منطقة الأمان.

كان سهراب ضمن مجموعة تضم سبعة أشخاص، أكبرهم في الأربعين من عمره، والأخير كان يعرف الكويت جيدا، وكان كفيله ألغى إقامته بلا رحمة لأنه اختلف معه، فعاد متسللا للبحث عن كفيل آخر، استبدلوا ثيابهم المبتلة التي كان يتساقط الماء منها، بالملابس الجافة التي لفوها داخل كيس بلاستيكي كي لا تبتل.

وقفوا في الشارع الرئيسي، يتقدمهم الأربعيني الخبير بالكويت، وعندما رأى سيارة نقل «وانيت»، أومأ لها بيديه، لأنها ستكون أفضل من انتظار تاكسي كبيرة «بوكس» كي تنقلهم جميعا، صعد إلى قمرة السيارة دليلهم ومعه شاب بختياري من منطقة «ايزا» القريبة من الأهواز العربية، وطلب من الآخرين التوجه إلى سطح «الوانيت» المكشوف.

«ياخدا»، «يا علي»... كانوا يدعون وهم يقفزون إلى سطح «الوانيت» بكل همة، ويمسكون بأيدي بعضهم ليشدوا من أزرهم، ويباركوا لأنفسهم الوصول إلى جنة الأحلام العربية، هؤلاء البدو الكسالى، الذين يحتاجون إلى من يبني لهم قصورهم، بهذه الأيدي الإيرانية الغضة، الماهرة، بعد أن أضحى الوطن موئلا للعراقيين واللبنانيين والفلسطينيين والسوريين والأفغان والشيشان، لكنه ليس مستعدا لاحتضان أبنائه.

كان هواء أكتوبر العليل يلفح وجه سهراب، وهو يستعيد ضحكات «عيسى»، ابنه الذي جاء إلى الحياة قبل عامين، وخاطر بحياته كي يؤمن له مستقبلا جيدا، وتذكر زوجته فاطمة، القادمة من منطقة برازجان في مدينة بوشهر، التي تشتهر باحتضانها المفاعل النووي الإيراني، ولا تعلم انه سافر إلى الكويت متسللا، لم يشأ أن يقلقها، على أن يتصل من الكويت ليفاجئها، ويضعها أمام الأمر الواقع، لأنها كانت ترفض فكرة سفره، وكانت تقول له «حبيبي... سنعيش، ستعمل أنت في البناء، وسأجد عملا في خدمة البيوت، المهم أن نبقى معا».

تذكر الأصدقاء في مدينته «شهر كورد» أو كما يطلق عليها «سقف ايران» لأنها ترتفع عن سطح البحر ٢١٥٠ مترا، وهذا سبب برودتها حتى في الصيف، وهطول الثلوج في الشتاء بصورة كبيرة، ليصل ارتفاعها إلى مترين، تحيلها إلى عروس مسربلة بالبياض؛ واشتاق إلى نبع «ديمه» أعذب المياه في العالم، مقارنة مع هذا الخليج المالح، وشلالات «دره عشق» والغابات، ومناحل العسل، وميناء «قيناوا» الذي انطلق منه نحو المستقبل الواعد، وصوت «شجاريان» وهو يغني من أشعار عمر الخيام:

بادر فسوف تعود أدراج الفنا
وستترك الجثمان منك الروحُ
واشرب وعش جذلا فلست بعالم
من أين جئت وأين بعد تروحُ
...
إرتشفها فذا لعمري الخلود
فيه تمتاز للشباب عهودُ
ذا أوان الأزهار والراح والصحب
نشاوى فاهنأ فهذا الوجودُ
...

كان المشهد صادما، عندما وصلت سيارات الشرطة، منظر الجثث المتناثرة، وهي تغطي طريق الفحيحيل السريعة باتجاه الكويت، السيارة مقلوبة وبداخلها السائق يئن محشورا، لكنه

يتنفس، وثمة أصوات تصدر من جهات مختلفة؛ فدليلهم الأربعيني كان ينوح نادبا حظه، وهو متكوم قرب عجلات السيارة الأمامية ينزف دما بغزارة، والبختياري الشاب ملتصق بالرصيف بفعل قوة الضربة، يتأوه بصوت يمزق نياط القلب، وينتفض من شدة الألم في أوصاله الممزقة، وكانت تتدلى لحما مقطعا وعظاما مفتتة.

رجال الإسعاف يحاولون أولا إنقاذ الأحياء، واتصلوا لإحضار سيارات أخرى، بينما سعى رجال الشرطة المشدوهون من هول المأساة إلى حصر عدد المصابين، فهم لا يعرفون كم عدد الركاب أصلا، وكانوا يستدلون على الجرحى من أصواتهم، واستطاعوا جمع ٥ جثث، بعضها اندفع بعيدا عن السيارة بأمتار عدة، وسأل أحدهم السائق المحتضر «أنت كويتي»؟! وبدا السؤال أكثر إيلاما للرجل في هذا الوقت بالذات، وبالكاد خرج صوته مبهوتا، مترعا بالأسى، فرد بعد أن استعان بما تبقى له من قوة «آنا... بدون»، وكانت آخر كلماته، فشهق وقضى ألما وحسرة.

بدأ الفجر ينبلج، والشفق البرتقالي يشق السماء، كأنه لسان هائل من النار، يهزأ من الحياة؛ تجمع عدد من المارة، أوقفوا سياراتهم تطفلا لرؤية الحادث، معظمهم من العسكريين الذين يتوجهون إلى معسكراتهم القريبة، تحلقوا بصمت حول جثة ظهر نصف وجهها، طارت نحو عشرة أمتار عند انقلاب السيارة المفاجىء، وسقطت في الجهة المقابلة؛ كان الشخص ملقيا على بطنه، تغطي الجزء الأعلى من جسده دماء مختلطة بالتراب، بدا نائما.

عندما رفعوا جثته، كان لا يزال يمسك بيده اليسرى كيسا بلاستيكيا، بداخله جواز سفره وأوراق ثبوتية، وقرآن صغير، ومحفظة مهترئة، في داخلها أقل من ٥٠٠ ألف تومان، تعادل نحو ١٤ دينارا كويتيا، وصورة طفل بالكاد يبتسم، تضمه بحنو شابة تلف رأسها بوشاح أسود، تحاول أن تبدو جادة.

استطاع الشرطي قراءة أوراقه، المكتوبة بالفارسية بحروفها العربية:

الاسم: سهراب فتح الله أحمدي
العمر: ٢٥ عاما
محل تولد: شهر كورد
المهنة: بيكار (*)

***) بيكار تعني باللغة الفارسية «عاطل عن العمل»**

هبة عز الدين

صرّة الذهب

ذات حلم، شَرَدَتْ روحي لتصل مدينة «بنقردان» التونسية.

عندما حَطَّتْ على الشاطئ، جَلَسَتْ قليلاً تشد شعر الأشجار لتغطسه في المياه، فهذه الأشجار لم تغتسل منذ زمن بعيد رغم أنها تعيش بجوار الماء، بينما نداءات السوريين التي تطلب الماء وصلت حدود المُزن ولم تحصل على قطرة.

قالت روحي لنفسها: لمَ لا يلح الإنسان بطلب الأشياء إلا بعد أن يفقدها؟ أوَلَمْ يخلق الله للإنسان عقلاً يتدبر به وفكراً يتأمل به؟ إذن لم لا يدرك بنو البشر جمالية ما يملكون؟ هل يجحدونها قبل أن يفقدوها؟ تباً لهم، فهم يستحقون القصاص بالفعل.

تأتي، من بعيد، وشوشاتٌ مخنوقة، تنجذب روحي إليها وتنساق خلفها لتعبر الماء وتصل قاع المحيط. هناك رأت روحي هياكل عظمية تجلس على سارية سفينة غرقت منذ آلاف السنين. أدركتْ، من لهجتهم، أنهم سوريون، فمرت من بين هياكل عظامهم كي تستمع بوضوح إلى أحاديثهم، فارتطمت بقفص صدري لأحدهم. صرخ، وشتم دين الوجع. همس له هيكل آخر ملقي بجانبه: لا تسب الدين. ستُجلد ويُفصل لحمُك عن عظمك.

قهقه الهيكل «١» وقال: لم يبقَ لي لحم ليفصل عن عظمي.

عند أعلى السارية كان يجلس شخصٌ نصفُه لحم ونصفه عظام. يبدو أنه حديث الغَرَق. اقتربتْ منه روحي، فرأت على نصفه اللحمي آثار جَلد واضحة. سمعت أصحاب الهياكل العظمية يدعونه للجلوس معهم، وأكدوا له أنه سيعتاد على أحاديثهم المملة بعد حين. كانوا ينادونه «مهندس عصام»، أما هم فقد نسوا أسماءهم وراحوا يتنابذون بالأرقام. اقترب منهم «المهندس عصام» وسألهم عن الوقت، فنظروا إلى الهياكل النائمة، وراحوا يحصون عدد العظام التي تمثل الأيام، والمفاصل التي تمثل الأشهر. بدت الدهشة على وجه عصام وقال لهم:

- ما هذه الطريقة بالعد؟ إنها جديدة علي. هل هؤلاء ميتون أم نيام؟ وإن كانوا نياماً كيف بإمكانكم حفظ الأيام إذا استيقظوا؟

أجابه الهيكل «١»: هذه الطريقة اسمها التقويم العظمي، ونحن هنا كلنا ميتون، لكننا نتناوب بالنوم، كما كنا نفعل أيام معتقلات الأسد، وعندما ننتهي نحن من نوبتنا نرقد مكانهم، وبذلك نحافظ على التقويم.

جلس المهندس عصام معهم وأحضر الهيكلُ «٢» من القعر زجاجة كولا مملوءة بماء مالح، وقدمها له، وراحوا يتبادلون الأحاديث عن وضع القاع وأوضاع القيعان الأخرى، ويتساءلون متى سيتم نقلهم إليها؟ وهل الماء في القيعان الأخرى أشد ملوحة أم عذوبة؟

وبينما هما يتحادثان إذ يأتي من قاع بعيد ضيف عظمي يضع على رأسه شماغاً. تطايرت عظام المهندس عصام من الفرحة، فهذا الهيكل الضيف من الرقة، نعم من محافظته، لقد عرفه من الشماغ. أقبل عليه عصام ليحضنه فأبعده الهيكل الضيف وقال:

- هداك الله يا شيخ. لا ينقصنا وجع عظام بسبب العناق، فلا حبوب «بروفين» هنا ولا مُسَكّنات أخرى. يكفي أن تحرك عظام كتفيك كإشارة للعناق. هذا هو العناق العظمي.

انفرد المهندس عصام بالهيكل الضيف، وسأله عن عشيرته، وتفاصيل غرقه، فأخبره الضيف أنه كان نائماً في بيته عندما فاض نهر الفرات وغرقت جميع البيوت المحاذية، وقيل، فيما بعد، إن ذلك كان بسبب بناء سد الفرات.

كانت الأحداث التي يرويها الضيف تمر بذاكرة عصام كشريط فيلم قديم فَقَدَ معظم صوره، لكنه تذكر بيت أمه الأرملة الطيني والطاقة التي كانت تطل على بيت الجيران. تلك الطاقة التي كان يمرر من خلالها الشرائط الملونة والأقمشة المزركشة التي اشتراها للحبيبة بنت الجيران من سوق «المْدينة» بحلب، وتغلغلت في أنفه رائحةُ اللحم المسلوق والخبز المحمص الذي كانت تحضّره أمه لوجبة الثريد. كما تذكر الصندوق ذا المرايا الذي اشترته أمه يوم زفافها، وكيف كان يخبئ فيه باكيت «الحمراء الطويلة»، ويختلسها ليدخن السجائر خلف الدار. على ذلك

الحائط خلف الدار رسم، ذات مراهقة، قلباً عاشقاً ووضع فيه سهماً، وكتب الحرفين الأولين من اسمه واسم زميلته في المدرسة. وعلى القسم السفلي من الحائط قرأ عبارات من كتاب التاريخ والرياضيات والفيزياء، فقد كان يكتب ما يحفظه على ذلك الحائط. ضحك في نفسه وهو يتذكر عبارة «الحيطان دفاتر المجانين». وحدث نفسه قائلاً: الحيطان دفاتر السوريين.

تعود به الذاكرة أيضاً إلى باص النقل ذي العجلات الهرمة الذي أقله ذات صباح إلى مدينة حلب قبل شهر من موعد الامتحانات مع أمه التي لا أمل لها في الحياة من دونه، فهو وحيدها ومنجيها. بعد أسبوع من وصولهما المدينة سرت أخبار تفيد بأن كل البيوت بمحاذاة نهر الفرات قد غرقت مع ساكنيها وغرقت معها الحبيبة والشرائط الملونة وذكريات التدخين السرية والنقش على الحائط، ولم يبق لهما سوى صرة الذهب التي كانت تحملها معها أمه حيثما ذهبت.

يتذكر عصام كيف نزل وأمه إلى خان الذهب بسوق «المْدينة» وباعت أمه أساورها كلها لتتمكن من شراء بيت في مدينة الرقة، وعاد الألم ذاته يعتصر قلبه عندما تذكر دموع أمه وهي تفك الصرة القماشية وتخرج الأساور والكردان لتبيعها، لقد كان هذا مهرها ذات يوم ولطالما تزينت بها أمام صديقاتها في الأعراس.

تردد في مسمعه صوت بكاء أمه ونحيبها على غرق الصندوق ذي المرايا الذي خبأت فيه جلابية زوجها المتوفى وعباءته، فلم يبق لها منه سواهما، وكانت تحضنهما كل مساء وتشم رائحتهما لتتذكر أنها كانت يوماً في ظل رجل.

عندما عادا إلى الرقة اشتريا بيتاً في شارع «تل أبيض»، ذا غرف حجرية واسعة ونوافذ مرسومة بشكل هندسي على خلاف طاقة البيت الطيني. الكف الزرقاء التي كانت معلقة على الباب أبهرته، وتمنى لو أنه يعوم بين البيوت الغارقة ويجد حبيبته ويعطيها هذه الكف كقلادة.

على الحائط، في غرفة الجلوس، كان ثمة رسم لمريم العذراء فالبيت كان يقطنه مستأجر مسيحي ماهر بالرسم. وقد كان كل صباح ومساء يقبل رسم السيدة ذات الشعر الأشقر الناعم والعنق البيضاء خلسة عن أمه ويداعب خصل شعرها. هذه السيدة بقيت الأنثى الأولى والأخيرة في مخيلته، فلا يوجد جمال يضاهي جمالها بين كل النساء اللواتي رآهن، ربما لأنها هي الوحيدة بين نساء تلك المدينة التي كان يستطيع أن يجلس أمامها على الأرض، ويأكل بيديه، في حضرتها، بلا ملعقة، ويمسك البطيخ ويأكله دون تقشير.

في الطابق الأرضي، تحت البيت كان «أبو زينة» يبيع أشرطة كاسيت لسعد البياتي وياس خضر، وربما لأنه يعشق صوت سعد البياتي كانت أغانيه تصدح عالياً طيلة الوقت. أغاني البياتي امتزجت مع صورة السيدة العذراء وأصبحت جزءاً من روح المهندس عصام لدرجة أنه

إذا سمع في الباص صدفة صوت البياتي هم أن يضرب السائق، فهذا الصوت لذاك الجسد فقط، ولا يجوز لأحد أن يقترب منهما.

تذكر المهندس عصام أيضاً أنه كان جالساً، ذات مساء، على شرفة منزله الكائن في شارع تل أبيض، ولمح فتاةً ممشوقة القوام واسعة العينين طويلة الشعر تقف عند مدخل أحد المحلات لتشتري قماشاً. لفتت نظره الفتاة فنزل بسرعة إلى الشارع وسار خلفها حتى وصلت بيتها. بقي يراقبها كل يوم وهي ذاهبة من بيتها إلى لمدرسة، فقد كانت هي مدرسة للغة العربية.

بعد مدة وقع في غرامها، وطلب من والدته أن تخطبها له، فتمّ الأمر وتزوجا بعد شهر تقريباً.

الزوجة الجميلة أضفت ألواناً رائعة لحياة المهندس عصام وكانت تحضر معها كل يوم باقة زهور من طلابها وتنتظرها حتى تجف ليقوم عصام بتثبيتها على الجدار حول السيدة. أصبح الحائط وكأنه مزار مقدس لعشاق الفن والجمال ولم يتردد أحد من الأصدقاء الزائرين أن يضع بصمته بتوقيع على ذاك الحائط.

تذكر عصام أيضاً عندما حملت زوجته وأنجبت له مريم التي كانت تحبو قرب جدار مريم الأولى وكأنما تطوف حول مزار. وسط كل تلك الذكريات الساحرة يقفز جني أسود لذاكرة عصام أسموه «أبا لقمان الداعشي» الذي جلده في الساحة العامة أمام كل الناس بسبب ذاك الجدار النصراني في بيته. اضطر بعدها عصام لأن يجمع كل تلك الورود على الحائط ويضعها في صندوق خشبي ويدهن الحائط وعيناه تفيضان دمعاً وقهراً.

نعم لقد اغتصبوا أحلامه التي علقها على ذاك الحائط، أما الداعشي أبو لقمان فكان يراقب عصام ليتأكد من تنفيذ الحكم بقص رقاب الذكريات ودهان الحائط. نظر إليه عصام باحتقارٍ وقال له:

- تم الأمر تفضل خارج منزلي.

أغضب تصرفُ عصام أبا لقمان، وصار يضغط على عصام بكل شاردة وواردة كي يغادر المدينة، وآخر ما فعله هو جلد عصام للمرة الثانية لأنه حليق اللحية والشارب.

لم يبق أمام عصام حلٌّ سوى الهجرة غير الشرعية عن طريق البحر. ترك والدته وزوجته وابنته مريم وسافر إلى تونس كي ينتقل بعدها إلى ليبيا ومنها إلى إيطاليا. وفي عرض البحر غرق المركب ليجد نفسه بهذا القاع العظمي.

كانت روحي في هذه الأثناء تفتش في جيب قميصه الأبيض، فلم تجد سوى مفتاح بيته. مد يده إلى جيبه وأخرج المفتاح ورماه في البحر.

وقال للضيف العظمي: لم أعد بحاجة لهذا المفتاح، فالآن أدركت أن البيت ليس جدراناً وباباً ومفتاحاً، ولو كان كذلك لما بقي الحائط الطيني وحائط مريم صرحين سرمديين في روحي... البيت ذاكرة وحياة بعد ممات...

حملت روحي المفتاح وأحضرته معها وألقته على طاولتي وهمست لي:

لا تقلقي إن أضعت المفتاح. لا قيمة للمفاتيح في عالم الأرواح.

فادي عزام

بيــوت تحزّهــا الرهافــة وتعجــز عــن قطعهــا الســكين

البيت والكون
عندما ترتقي قيم سمائنا سيكون لبيتي سقف.
إيلوار

ابتكر السوري مملكة حريته في بيته، لكنه ظل على الدوام رهين تلك العبارة المرعبة: «للحيطان آذان».

نقرأ البيت يعني أن نقرأ الألفة في البيوت. البيت الشامي الشهير سليل البيت الآرامي، المدخل الضيق ليجبرك على الانحاء، القاعة الشاسعة المفتوحة على السماء، البحرة ونافورة الماء في الوسط، النباتات المتعرشة في الجنبات. غالبا يكون اللون الرخام بالأسود والأبيض الملكي. قراء العلامات والأدلة يرون رمزيته التاريخية كبيت يتناوب على عرشه الليل والنهار، وعلى فضيلته الخير والشر، وعلى قسمته الأنوثة والذكورة. لكنه سليل المعمار العربي الانطوائي، غياب الشرفة، صغر النوافذ، الزقاق يقود إلى اللامخرج، المعمار الدفاعي، والشساعة في الداخل المحجوبة عن الآخرين، يعبر عن إرادة الاحتفاظ بكل إناث العائلة وخصوصيتها.

كان السوري يعيش على التناقضات، بين حرية التنفس في أعشاش البيوت وسلطة القلعة السوداء الرهيبة الجاثمة على قاسيون دمشق. سلطة مستنسخة في كل المدن من العسس وصور القائد والخالد والأمل والمثل.

العائلة الحاكمة المجرمة تحتل المدينة، والسوري الحالم يحتمي من سلطة الاحتلال بالبيت.

السوري يحلم بالبيت أكثر مما يحلم بالناس، فالناس يتحولون في مجتمعات القمع إلى مشكوك بهم، وكل العلاقات ستحددها مساحات الخوف والآمان.

البيت السوري حارب بشجاعة ضد العاصفة، طوّر نفسه، تخلى عن امتيازات الجمال والمعمار، لكنه بقي من الداخل مملكة من النظافة، عظيم التكوين رغم الانحشار والاندحار، ومحلاً ضيقاً يتّسع لألف صديق.

البيت السوري صار هو مرتقى الأنفاس بعد احتلال المساجد والكنائس، ونهب المعابد وفرار إيل وآداد وأدونيس وعشتار. وحلول حافظ الأسد كإله وثني توحدي والسيد الأوحد في المدينة المحبوسة داخل قوارير سهلة الكسر كانت تسمى بيوتاً.

يسأل العاشق، أين أجد بيتا لتبادل قبلة مع الحبيبة في دمشق الملوثة بالكنايات والسجع البعثي، ومرتزقة الفضيلة وفرع الأمن الجنائي يحتل الجدران بينما العشق استعارات؟!

وسط لوثة المصاب بشقاق الخوف، المضاد لكل أنواع الحب. كانت تمارس طقوس ديونسيس في البيوت المستأجرة. واحتال المحبون على شرطة الأخلاق والعسس بالمساكنة. والغرف المنكوبة والشقق المفروشة والبيوت المثقلة بالأسى حرست العشاق.

في دمشق

أربعة وعشرون بيتاً مستأجراً بأبواب من شتى الصنوف، بعضها يغلق بإحكام سجن، والبعض الآخر يمكن قفله بشريط سلك معدني رفيع أو إحكام إغلاقه ببلوكة!

أبواب لا رغبة لي بتذكرها الآن، وبالطبع لا أريد أن أخوض بذاكرة النوافذ في دمشق... أه من النوافذ المفتوحة لبعوضة شاردة أو ورقة شجر، فباغتتها قذيفة تائهة أوت إلى البيت وأخرجت سكانه إما إلى سماء أو إلى البحر بعد أن ضاقت بهم الأرض.

كلما فتحت نافذتي هذه الأيام أتذكر شباكاً يطل على مقبرة في قدسيا، مقبرة فقيرة على سفح تل فقير، بوابتها فقيرة، وموتاها فقراء، وحارسها اغتنى من بيع الجماجم لطلاب كليَّة الطب. أطل على المقبرة وأنتظر «إياد شاهين» ريثما ينتهي من عمله في معالجة الأفواه المضنكة بالألم والنخور الأبدية ليأتي ويملأ المكان برائحة ضحكاته الخارقة.

أتذكر بيت الست أم أكرم في المزة جبل، وانفتح المشهد على حائط تخترقه عيني، فأرى

حقول الصبار التي جرفتها دبابات بشار الأسد وأطلقت إبرها لتنغرز في العيون والقلوب الكليلة المشرعة وراء النوافذ. بينما ناي «لؤي الحناوي»، شريكي في تلك السكنى المباركة، يرتل آيات من أسفار جلال الدين الرومي الخالدة.

وبيت في مخيم اليرموك، يشبه بيت الشاعر «وديع سعادة»، ولكن غاب عنه الشعاع، ليس بسبب غيمة على الأرجح، إنما لأن جاري القاطن في الطابق الأعلى مني يسكن تحت الأرض، بيتا عميقا كمدافن الفراعنة لا نوافذ له، تفوح روائح البنج من عيادته المختصة بالإجهاض!

بيت مفرق أبي عطاف

كان سفحاً من الأمنيات، نحتل السطح المجيد بثلاث غرف أقرب لأوكار الرهبان. مضادون للطائفية، نعشق ونتنشق الأحلام والنشوات، نفتك بالوقت وكأننا سنموت غداً، سوريا تعبر بنا كل يوم، ونادرا ما نبيت أنا وحمد وربيع بلا ضيف أو ضيوف.

أصدقاء يهربون إلى خلوتنا ليمارسوا طقوس التأمل والبكاء والضعف والقوة والرغبات المحرمة. من الشرفة الواسعة نرقب الغزلان بصبر الصيادين، نملأ فضاء الأمسيات بالضجيج، نعلن القيامة كل يوم، نقاوم بطالة ما بعد التخرج بالانتظار وتربية الحقد والشعر والكحول والفوائض من غوامض الغرام ولا نعرف كيف نحب.

نحيل أي حدث إلى قضية، نكبر أي رغبة إلى أقاصيها نتمتع بخصال الأوغاد والقديسين. بيت مفتوح للجميع، يزورنا إمام الجامع وملاحدةٌ مضحكون، مشككون ومتصوفة والكثير من الدراويش. أمهاتنا يضقن ذرعنا بماذا نفعل بالشام فيأتين، حاملات طناجر الطبيخ، فنخفي زجاجات العرق ونفتح كتب الدراسة على صفحات مبهمة. نمثل الطاعة، ونسبل العيون علامة الطيبة والفرح. وحين يغادرن، ننط كالسعادين طربا.

يزورنا معتقلون سابقون، وأزواج من العشاق المختلطين، الكردي الذي يعشق السمعولية والسني الذي يهيم بالعلوية، والدرزية الخائفة من الذبح، والشامية الهاربة مع حبيبها الريفي من جهنم الطبقات، والمستشرقة الألمانية الباحثة عن قاموس من الشتائم لرسالة دكتوراه فنزودها بمئتي شتيمة طازجة لا تخطر على بال.

كانت سوريا المتبرعمة التي نحلم بها تتفتح بتلاتها في بيت الدويلعة، لو أحصيت الشهقات والزفرات في ذلك البيت، لو دونت الآهات والضحكات، لو سجلت الليالي ودونت النقاشات والأحلام والألوان، لو جمعت لوحات فرز الألوان لأبي عبادة. لو فتحت سجلات أولاد القرى والمدن الذين زارونا في بيت أبي عطاف، لوجدت جبلة مع تلبيسة، عامودا مع سلمية، وحلب مع حمص، وحماة مع اللاذقية، وادلب مع بسنادا، والقريّة مع برزة، والسويداء مع الرقة... لقلتَ: يمكن لدنمرك أن تخوض حربا أهلية ولكن مستحيل أن يحدث هذا في سوريا!

كان بيتا جامعا مانعا للغش، ملهما بالاستقامة، وكل من فيه ترك اعوجاجه خارجا... أين أنتم الآن يا سكان ذلك البيت. أين أنت يا عبد؟

غادر أولنا عبد الرزاق شبلوط ابن حمص إلى الإمارات. أربكنا غيابه. كان مثل النذير المرعب لكل واحد منا. فالأمل بموت الديناصور تلاشى بمجيء الوحش الأصغر لم نصدق خطاب القسم لم نكن من هواة الأحزاب وكنا مخلصين للحدس.

ونصف بيت من شعر لفظه المتنبي ذات سفر:

«بقائي شاء ليس هم ارتحالا...»

البقاء هو الذي يحملك على الرحيل، وحدا تلو آخر سلكوا طريق المطار باستقامة. معظمهم وصل إلى الإمارات. كان هاجس الخدمة في جيش النظام مرعباً ومدمراً لنا أولاً، وهاجس أن نجد رزقة تحمي ما تبقى من كرامتنا ثانيا...

تركنا البيوت بلا وداع ولا أحصنة ولا رغبات مشبوهة بالعودة، كنا نهرب ونترك البلد لآل الأسد. كنتُ آخر المغادرين.

بيت أبراهيم صموئيل

أصنفه ضمن قوائم بيوتي الخاصة، أدّعي أنه لي، أنزل من السرفيس أول جوبر، أمشي بمحاذاة حائط كالح، أقف أمام الباب الصغير، أقرع الجرس الرخيم، صوت الخطو الخفيف تسبقه ضحكات مجلجلة ينزل من أعلى يفتح قلبه لي الباب، وترشدني ابتسامته نصعد جذلى، إلى اليمين مباشرة الصالون، أريكتان متقابلتان أجلس والاحراج يمنعني من التحرك فيكفي أن يجلس قبالتي وستكون المسافة بين قدمينا أقل من شبر، أسأل نفسي يا إلهي ماذا أفعل هنا مع هذه العائلة المحشورة في هذا البيت الشديد الضيق؟!

خلف كتفه لوحة الشغيلة لمالفا، ممزقة بشكل زاوية قائمة، خزق وكأنه صنع خصيصا كجزء منها. بضع كتب مرصوصة وستار مهفهف يفصلنا عن غرفة النوم. مداريا خجلي أقول لنفسي لن أطيل المكوث أكثر من زمن فنجان قهوة، تطبخه المرحومة ماري. فتطل من المطبخ، ينداح منها حنان العالم، تفيض حبا، تتدفق كرما. وعلى صوتها الرخيم المغموس بحشرجات الألماس، ونفثات سيجارتها التي تتحول إلى غيمة من الرقة أرتاح وينفك حرجي قليلاً..

يحدثني إبراهيم عن عمر حمدي، وكيف أحرق كل لوحاته ونجت هذه اللوحة.

يطير الحديث حول من مرّ على هذا البيت السوري الطيني الصغير، أراه يتمدد يتسع للرفاق والأحلام والأفكار، ورويداً رويداً أجدني أتمشى في قصر إبراهيم وماري، وقد صار بيتاً يتسع لنصف سوريا، وفنجان القهوة أصبح حقلاً من البن، يفيض بنكهته على الأرواح النائمة، والدقائق تمتد حتى الآن.

مرسم عبد الرزاق

كان عبد الرزاق الفنان التشكيلي أول المغادرين إلى الإمارات وأول العائدين منها، رجع ليقطن في مرسمه العجيب.

تنزل في الساحة بجرمانا تدخل إلى اليمين بعد الكازية... تسير خطوتين... لا تسأل أحداً... اتبع روائح اللون تدلك على الطريق.

إقرع الباب، إن لم تجد أحداً، فتحت الزريعة أو بجوار النافذة المفتاح بانتظارك.

كل شيء يأخذ معنى أخر، حتى الشيء المتخلص من كل رمزية ممكنة تراه يتلاصف بغير حقيقته أو بتعددها. سيقودك فضولك على عكس ما هو متوقع إلى مطبخ الوقت حيث يعتصر الزمن الفائر بالارتباك، تجثم على طرفه عجوز بيضاء بعد شهيقين وزفير ستكتشف أنها متنكرة بهيئة ثلاجة بيضاء. افتح بابها وتملى هذا الفراغ الجسور.

تدهشك علب السردين، من الذي التهم كل هذه الأسماك المغموسة بالزيت اللاذع؟ من الذي نزع قرن الحرّ منها ونظفها ورتبها مصفوفةً بالعشرات؟

من يحتفظ بعلب السردين الفارغة؟ أنت في حضرة آخر جامعي اللقى العجيبة.

قناني العرق أقل نبلاً، ولكنها بفوهاتها المشرئبة، تملأ المطبخ العجائبي بمحاجر فقدت ماءها، من كرع هذا العرق وجدد عهد الأخوة مع العنب والشوق المقطر والألق؟

يا إله الخمر والأمر والسماء ابعث سفيرك يحصي أوجاع القناني ومسارب الماء.

الجدران مهشرة بفعل الهمس، الرقص، البكاء، التوق، الخوف، البقاء، الارتعاد إن البعاد يهشل القلب ويهشمه.

كم جدار حفّ به هذا القلب الأحمر الأخضر المتليف المنقوع بماء النقاء والزهر والعرق.

أخرج من المطبخ قبل أن تتحول إلى وليمة تفترسك التذكارات.

انتصبت وجوه على ورق هش، وجوه راسخة تحملها الهشاشة... اللعنة عليك يا عبد؟ منذ عشرة أعوام وأنت ترسم البورتريه نفسه. كنت أسأل من أين تستمد الثقة بالإنسان بهذا السوري المخلّع مثل الصوفا الجانبية التي تفترس ظهري كلما نمت عندك؟

من أين لك هذا الحدس وأنا أرى وجوه السوريين بعد الثورة، كنت أرى لوحاتك. كم رسمت... كم قلت... كم آمنت بينما كنا نطالبك أن تصبح ناضجا وتنجز معرضا... اليوم أفهم أن اللوحة الخاصة بالحياة التي ستأتي غير قابلة للعرض. مكانها هنا في المرسم أقصد سوريا التي تحولت للوحة في الفضاء الطلق بعد تدمير البيوت وخروج كل ما فيها.

تُهندسَ الجدار بالورق الجنوني، وأنفاس من مروا من هنا وما انسفح في الأمسيات الشهية، عبق روائح نساء تركن النذالة خارجاً، ودخلن بالشقاء المناسب لتكريس هذا الجنون.

تخت على شكل زورق يصلح للأبحار لا للنوم. مشبع بالغبار والأقاويل. كلما تعدد المبحرون به صار أطهر وأخطر ومشرفاً على الغرق. وحدها الذاكرة طوق نجاة يصيح بي عبد.

الذاكرة هي ما نحن عليه اليوم.

ولأني لن اقرأ بعد أجمل من «نور في آب» أهمس لصديقي «الذاكرة تعتقد وبعد ذلك تتذكر».

وكأن فيروز تجبي الكنوز، تحلج قطن الجرح تغطس «بالدوا أحمر» وتكبسه.

وبنفس المسجلة الهرمة يخرج صوت أغاني الحصاد في الذاكرة المتهدمة

«وع الأنعاش يا بوشلاش»

نساء يضئنَ حين تقطع الكهرباء، وحين تسرق سوريا لهنَ زينتهن، وحين يقصلهن الحصاد فيهربن من منجل الزمن، وحين يلمحن في يد الحطاب فأس اليأس، يتركن كل ما ليس لهن ويدخلن إلى دارهن، ليحصوا فحم القلب «الألماس رأي الطبيعة بالفحم» وأنتن ألماس هذا الوجود يا نساء سوريا الصامدات. ورجال ألقمت أفواههم العبوات الناسفة، ورضعوا زيت الكاز من خموش النار، يهيلون مداميك الحياة يوسعون منافذ الهواء. و»يتلوَّذون» من زخة مطر أو خطر مباغتة. ويتلون أسماء من ابتلعهم فم الغياب. وينتظرون على إيقاع تلك الترنيمة العجيبة... يا الله ما إلنا غيرك... يا الله.

الشعب يريد والوقت يريد والموت يريد والمرسم يعيد صدى بعيد ياه... وهل تتم الشام بدون مرسم ورسّام؟ بلا ضوء في الليل كثير العتم، تغدو الدمعة شمعة. مرسمٌ مترع بالشموع. بعض الشموع لا تنطفئ، فهي مرسومة هناك باليد التي تشعل الحياة، تشعل الأمل، تشعل الذاكرة في صقيع المسافة، في بيوت تحرّها الرهافة ويعجز عن قطعها السكين.

بيتي الآن، لا أعرف شكله، ولا ماذا سيكون فأنا موجود في المملكة المتحدة، بيوت أصدقائي تمنحني بعضا من السكينة. وجه لؤي وجلال وحسام يحضرون لي ذلك البيت السوري الذي لا يمكن أن يتهدم.

أحمد عمر

في شهوة البكاء على الأطلال

«لو أنّا كتبْنا عليهمْ أن اقْتلوا أنْفُسَكُمْ أو اخْرجُوا
من دياركم ما فعلوه إلاَّ قليلٌ منهم»
(سورة النساء)

اتفق التعبير العربي القديم على صيغة الجمع عند ذكر الدار. فهي ديار وليست داراً، فلا معنى للدار من غير الجيران، والأهل. ولم تكن القصيدة لتبدأ إلا بالوقوف على الأطلال التي درستها الرياح والأزمان، بعد الانتقال طلباً للكلأ والمرعى، الانتقال يجري الآن طلباً للكرامة والمرعى. القصيدة ناقصة إن لم تحنّ إلى المكان الأول، أو هي غير عذراء إذا لم تبدأ بالوقوف على الدار. الوقوف على الأطلال إعلان للهوية الإنسانية والوطنية»! والغريب أنهم كانوا عرباً، رحلاً، يقيمون في خيام متنقلة. فكيف لو كانوا عرباً ممنوعين من المغادرة؟ لكن عفواً فقد غدونا رحّلاً متنقلين، مقيمين في خيام أو مخيمات، أربعون بالمائة من الشعب السوري يقيمون في مخيمات في الوطن حسب تقارير الأمم المتحدة.

خلال إقامتي في بلدي سوريا بدلت دوراً كثيرة. وكنت سعيداً على غير عهد الأولاد، بأن لي بيتاً يقيني التشرد والبرد والحر، وتلك قصة تحتاج إلى شرح درامي طويل، وكنت معجباً كثيراً بقصيدة تحدّ في المرحلة الابتدائية لميخائيل

نعيمة، تقول في مطلعها: سقف بيتي حديد... ركن بيتي حجر فاعصفي يا رياح وانتحب يا شجر. لم يكن يخطر لنعيمة البراميل وصواريخ أرض أرض. كنت شغوفاً في صباي باستطلاع هندسة البيوت الكردية في عامودا. كانت القامشلي أكثر قروية ومدنية، ولم تكن تغويني. عامودا كانت أكثر تناسقاً وتجانساً مع بعضها.

باكراً، لم يكن في بلدتنا سوى بيتين من حجر، متشابهين في الهندسة التصميمية، يبدو أن مهندساً واحداً أشرف على تشييدهما، وكانت زيارتهما أقل بهجة على غير ما كنت أتخيل، فالبيوت الطينية أليفة: الباب، ثم «الكنيف» في المدخل دائماً، حوش، أو فسحة كبيرة، في وسطها بئر، تؤاخي بركة تملأ بالماء عادة، الماء في البئر سهلة الإدراك بدلو يجري على بكرة ترقرق أو تغرد فرحاً بالماء، أو عطشا إلى الزيت أو ألماً من التعذيب. سرير حديدي عالي السيقان، يتسع لنوم العائلة كلها، دالية أو سنديانة في وسط الدار. غرفتان عادة تتفرعان من غرفة مدخل... فكرت كثيراً في فلم وثائقي عن البيت.

ثاني بيت كان في حلب، في سيف الدولة، للدراسة، الثالث كان في حي الإذاعة، الرابع كان في شارع النيل، كان بارداً جداً في الشتاء. أقسى شتاء، كنت قد ضللت كثيراً، ومع الضلال زاد شقائي، الرابع كان في القامشلي، «غرفتان فوق السطوح» تزوجت فيهما زواجاً رومانسياً إذا شئتُ مدح تلك الفترة. ثم انتقلت إلى القصير، وسكنت في غرفة كبيرة تصلح بيتاً لسبعة خيول، أو بيتاً لحصادة زراعية. أقضي وقتي على نهر العاصي. لم أستمتع بالسكنى في القصير، وفوجئت بشجاعة أهلها وبطولتهم إبان الثورة، كانوا مهربين، وأنانيين، لكن الله يبدل الناس من حال إلى حال، ثم سكنت لمدة شهرين في حي علويّ اسمه عكرمة، وكانت أقسى سكنى في حياتي، صاحب الدار، كان يشكو لي أنه علويّ أصيل، لكن الجيران يحسبونه سنياً «من الدرجة الثانية». الصباح كان حربياً دائماً، ففي السابعة تبدأ محركات الجيب واظ بالهدير إيذاناً بشروع الحرب اليومية على الشعب، ويتحول الصباح إلى جحيم، إلى أن تهدأ الدبابات الروسية ذات العجلات المطاطية في التاسعة. روى لي صاحب الدار قصة مؤلمة فهربت من الدار، القصة؛ هي أنه تزوج من صبية بدوية، فباحت له ليلة الدخلة، بعد أن استحلفته أن يصون دمها، بأن كلباً ولغ في الإناء فنكث وعده معها، وسلمها إلى أهلها في الليلة، ليسلم الشرف الرفيع من الأذى! أكرر: كانت سكنى مؤلمة. عندما انتقلت إلى القرية العمالية الصناعية بات الجيب واظ ناقوساً يدق في عالم النسيان.

سكنت عشر سنوات في سكن حكومي مهندساً موظفاً في الريف، كان سكناً معقولاً، لولا قلة الخدمة في الريف، والاضطرار للنزول إلى حمص من أجل التسوق والانترنت والصحف، ثم وفّقت إلى التسجيل في مؤسسة الادخار السكني، وبعد سنتين جاء دوري لاختيار شقة؟ الدور

ثلاث فئات؛ ألف، باء، جيم، والتصنيف حسب المساحة، فاخترت الشقة الأكبر، ثم أجلت دوري في الاختيار، لأحصل على شقة قصدت اختيارها تقع على مفرق وتطل على حمص كلها، وحصلت على الشقة التي كنت فيها أرغب. واستطعت أن أفي ديوني بعد سنتين، من عرق جبيني أو من عرق قلمي. أن تحصل على بيت في سوريا يعني أنك محظوظ. في الثمانينات عرفت شاباً خسر قدماً في حرب تشرين، وكان سعيداً بأنه حصل على شقة تعويضاً عن قدمه! في الحساب البعثي هذا يعني أن لي أربعة أقدام! حوافر يعني. وجدت مرة وحيدا لافتة بعثية تقول: أن لا معنى للوطن من غير أن يكون لك فيه منزل! غريب جداً! رفاق بعثيّون يدركون معنى الوطن! هذه اللافتة تشبه أخرى وجدتها في أثناء إحدى الاستدعاءات إلى الأمن والمخابرات وكانت المرة الأخيرة قبل النزوح العظيم، تقول: الأمن في خدمة المجتمع. الغرابة كانت أن أجد لفظ «المجتمع» في عرين الأمن والمخابرات! لقد خدموا سوريا المجتمع خدمة ممتازة.

بيتي القديم في عامودا تحول إلى علبة اسمنتية، بعد أن اشتراه جار يؤمن بالشرف الرفيع الذي ترفع من حوله الحيطان والأسوار. القصير تدمرت، حمص تعرضت إلى قصف وحشي، تحقيقاً «لحلم حمص» وتحويلها إلى دبي سورية. دار المؤجر الشريف، الذي سلم المغدورة غير العذراء إلى أهلها فقتلوها، لا تزال سليمة، أقمت نصف سنة في اسطنبول، ثم ها أنذا أقيم في ألمانيا مغترباً، وأشتهي أن أقف على الأطلال وأبْكي الدّيارَ، ديار ليلى ومية وعبلة كما بكى ابنُ خِذامِ وامرؤ القيس وعنترة ومحمود درويش.

ناصر فرغلي

حيطان مؤقتة

باب الدمع

.....
بعد صريرٍ يشبهُ الدهشة،
دقَّ على صدرِه مثل أُمٍّ
حين عبرناه في آخر الليل
داخلَيْنِ بأقدامنا اليمنى
وأرواحِنا الخفيفة
إنه البابُ... هذا البابُ الذي
أفسحَ دمعُه البُنّيُّ الطريقَ
لألوانٍ بالوناتِنا
البابُ... هذا البابُ الذي
تشقّقتْ فيه الحَسَرات
حين عبَرْتِه في أول النهار
بقدميْنِ حائرتيْن وحقائبَ ثقيلة
دونما التفاتةٍ إلى الوراء
دونما حتى صفقةٍ أخيرة

توقظُ قلبَهُ الخشبيّ على الحياة
البابُ ... هذا البابُ الذي
تمنَّى
لو انّه يصيرُ نافذة.

أغنية على الممر

.....
كان لا بدّ من عداءٍ مبدئيّ
قبل أن تصيرا صديقيْنِ.
أنتِ والممَرّ
أنتِ والنهرُ الذي يوزّعُنا
على مرافئ الصباحِ والمساء
مِن ذَهَبِ النوم
إلى فِضّةِ الحَمّام
ومن عبقِ القهوةِ إلى غزَل الحديقة.
وليس أوسعَ مِن مرور سمكتيْنْ
أو عابريْنِ في جسدٍ واحد
أحدُهما يخافُ من الممراتِ الطويلة.

كان لا بُدّ من ممراتٍ طويلة
هذا ما حاولْتُ إفهامَكِ
كي تَحْلُوَ المطاردة.

وأين كنا لِنذهبَ
بضحكاتكِ المُجلجلة
كلما احتملتْكِ ذراعاي
من آخِرِ الصالةِ إلى أول السرير
لولاه؟ لولا الممر؟

أجل، كان لا بد من عداءٍ مبدئيّ
قبل أن تصيرا
صديقيْن.

سرير الناسك

.....
في وَرَعِ المُريد
ولهفةِ تلميذٍ يسابقُ الجرَس
أدخلُ إلى السرير
مِن جانبٍ واحد
هو ذاتُه دائماً.

أعيشُ
كما يعيشُ النائمونَ
تفيضُ طلاسِمُنا على الشراشف
لكن جدراناً غيرَ مرئية
وذكرياتٍ شائكةً
تُكَدّسُ الأحلامَ
في النصْفِ ذاته، دائماً
تاركةً النصفَ الآخَرَ
للكناريات التي سقطتْ
من تمتماتِ ليلِكِ
للّيالِكِ التي سكبتْها رائحتُكِ
في حواسّيَ الخمس
والصبّارةِ التي نمَتْ
على عطشِ الرغبات.

الوسادة الباقية

....
دون أن ألمسَها
أُمَسّدُ الهواءَ مِن حولِها
الوسادة التي
أراحتْ حُلمَها تحتَ رأسِكِ
من وجعِ الليل
وتدوّرَتْ مع خاطراتِه
وانحناءاتِ أنفِه ووجْنتيْه.

أقتربُ
كما يُقْتَرَبُ من أثَرٍ قديسٍ
في كنيسةٍ نائية
وبالكاد
أسمحُ لوجهي أن يلامسَ المجال
بغريزة حيوانٍ أعمى
أُقلّبُ في ألبوم الرائحة
مستعيداً القدرة
على التنفس بعمق.

حَمّام الأُلْفة

....
ما الذي يُمكنُ أن أفعل
بالمناشفِ الصغيرة
أو بكريّات القُطْنِ
سوى الوقوفِ عندَها كلَّ دهشةٍ
مكرِّرا السؤالَ نفسَه:
ما - ذا- يمكنُ- ني – أنْ – أفعل؟!

ما الذي يمكنُ أن أفعل
بالدوائر التي تركَتْها على الرخام
قواريرُكِ الملوّنة
قبل أن يعود الحمّام
إلى بياضِه اللاسع

ولماذا لم تنْسيْ، مثلا،
فرشاةَ أسنانٍ؟
ورديّةً ومعقوفةً ومؤنثة
بجوار فرشاتي الوحيدة
في برودة الكأسِ الوحيد؟

مطبخ الأبلة الجميلة

....
هو لي مَحْضُ مساحةٍ من البيت
أعانقُكِ فيها مِن ظَهْرك
لأن يديكِ مشغولتان بشيءٍ سواي.

وإذا رسمْنا خطوطاً مستقيمة
بين الثلاجةِ والطاولة
بين الفرنِ والخزانة
بين الحوضِ وزرّ الإضاءة
بين حبّةِ قلبي وسكّينِ شفتيْكِ
فستجدينني دائماً في الطريق
كائناً زائدا عن حاجةِ المكان
مستعدّاً في أي لحظةٍ
لتلقي ملعقةٍ
أو قُبلة.

آخِر دخولنا الجنينة

....
كانت الساعةُ على الربيع تماما
وجمالُ الحديقةِ حاسماً.
هواجسي التي تسيرُ أمامي
مِن شِدّة البهاء
لامَسَتِ الخريف.

صديقٌ كاد يسقطُ في النهر
حين طارد حُزني مثل الإوزّة.
آخَرُ اعتبر أن تفويتَ الحديقة
".. الجديرةِ بشاعرٍ أندلسي .."
طعنةٌ في قلبِ الصداقة.

لم أطعن الصداقةَ في الأخير
غير أن لي أياماً طويلة
بلا مرورٍ واحدٍ على العشب.

هل لأنكِ بعيدة
وأنا
حدائقي لا تُشرقُ
إلا على رُوحٍ في قَبْو؟

الشرفة المؤمنة

....
لم تكُنْ عاليةً بما يكفي
مَشْهدًا عاطفيّا
لم يَكُنْ تحتَها ميدانٌ
يُغري بخُطبةٍ تاريخيةٍ

ولكنّها
فقطْ
انتظَرَتْكِ
بما يُشبُهُ الإيمان

صادقَتِ الفصولَ
وأحْصَتِ الأيامَ على سُبَحِ المطر

توازنَتْ على حافةِ اليأس
حتى خفتَتْ حجارةُ العابرين
أخبرَتِ الطيورَ
أنكِ آتيةٌ في كلّ عامٍ غَدًا:

"فلا تسكُنِي يا طيور
ولا تُغطّني يا لبلاب
ويا غمامُ...
لا تُظللْ وحدتي"

وانتظرتْكِ
بما
يشبه
الإيمان.

هذا كل ما فعلتْ شرفةٌ
لتكونَ سيدةَ الشرفات.

مرايا

....
أرْبَعُ مرايا في أربعِ حُجرات

منحَتْكِ
أربعَ فُرصٍ للعبةِ المانيكان.
لاختبار صُوَرٍ
ستلتقطُها كاميرا في وقتٍ ما.
أحياناً
يتلامسُ الأنفانِ
في البحثِ عن هُدُبٍ في الأغاني
وأحياناً
تقفينَ على كرسي للتأكد
من رُمّانِ ساقيْكِ.

أما أنا
فما زلتُ أختصرُ المرايا
كَمَن استعارَ آلةً
ويودّ أن يعيدَها بسرعة
فالمرايا الأربع
في الحجراتِ الأربع
لم تكن تعني لي
غيرَ أربع وجهاتٍ أخرى
للنظرِ إليكِ.

فوضى

....
فوضانا الهشّةُ
أثرُ مقشّاتِنا على غُبار الوقت
الصوَرُ التي فازتْ بنظرةٍ واحدة
لتَظلَّ الذاكرةُ جوعى
والنظرُ ظمآن،
الملابسُ التي تبادلتْ جِلْديْنا

وتساقطتْ في انهمار المحبة،
عُلَبٌ غادرتْها الهدايا
فسكنتْها الضحكات،
فناجينُ قبّلَها (الرُّوجُ) في موضعٍ واحد
كتبٌ وكتبٌ وكتبٌ أخرى
خَسِرْتُ رِهانَ قراءتِها تحت عينيْكِ
موسيقى لا تكفّ عن الحوَمان
على مواضعِ خُطاكِ
شعبٌ من النمل يهتفُ
بما نثرتِ من الحلوى...

بأيّ قلبٍ
يمكنُ أن أَمُدّ يدًا
إلى ما صنعَ اللهُ في هذا المكان؟!

غالية قباني

وطن مؤقت

عندما أنظر الى صور المخيمات من السوريين، أفكر بآلاف البيوت التي هجرها النازحون أو هجّروا منها. بيوت كانت قبل ان تهدّم او تزول، او تتهدد بالزوال هي واحشاؤها (سكانها) بسبب الغارات الجوية.

لا يستطيع الانسان ان يعيش بدون بيت خاص لزمن طويل. ومن تابع مناطق المخيمات الفلسطينية في سوريا والاردن ولبنان، لاحظ كيف تحولت الخيم او الأماكن المفتعلة بأسقف من الصفيح، الى بيوت لها أسوار تميز خصوصيتها عن البيوت المجاورة، وترتفع احيانا الى طابقين او أكثر، تزين الازهار بعض شبابيكها. بيوت كانت تعمر وتتسع ويتزوج فيها جيل آخر احيانا. حدث ذلك فلم يبق من المخيم الا اسمه. انه حي يحمل اسم «المخيم». مخيم اليرموك في دمشق مثالا واضحا على ذلك. كان سكانه بحاجة الى «بيوت» لأنه لا يمكن ان يعيشوا طويلا في خيم ينتظرون عودتهم الى بيوتهم الاصلية. أنظر الى صور سكان المخيمات السوريين واتساءل ان كانوا سيحولون خيمهم الى بيوت بالطريقة نفسها ان طالت اقامتهم بها.

أنا أيضا اضطررت لترك بيتي قبل الآن. بيتي الذي جمع ايقاع روحي وصدى انفعالاتي في وهج الشباب. فيه ركضت الى غرفة والديّ منتصف ليلة كانون الثاني/يناير ١٩٨٨على وقع صيحة استنجاد من أمي عندما أسلم روحه على فراشه. قال لها تصبحي على خير»... رفع اللحاف فوق رأسه... ورحل.

في ذلك البيت علقت لوحات نسخت عن أعمال أصحابها، ولوحتين أصليتين من رسوم ناجي العلي اشتريتهما منه في معرضه الوحيد الذي أقامه في الكويت. في البيت ذاك كونت مكتبتي التي عكست تطور وعيي من المراهقة حتى النضج. وتراكمت أوراقي، رسائل وبطاقات ودفاتر شخبطت عليها انفعالاتي او كتبت مشاريع نصوص وقصص. بكل تشوش هذا الوعي من كتب متناقضة أو أكبر من استيعابي، لأعيد اكتشافها لاحقا بعد سنوات. في ذلك البيت تركت اشرطة فيديو لأفلام مختارة كنت انا واصدقائي نتبادلها في بلد يندر أن تعرض السينما فيه أفلاما مميزة من النوع الذي لا يحقق ربحا تجاريا.

تركت ذلك البيت لأن جيش صدام غزا الكويت. البلد التي دخلته طفلة صغيرة وغادرته امرأة تخصصت في العمل الصحفي.

في بداية عودتي الى سوريا خريف ١٩٩٠، كما حصل مع آخرين من أهل ومعارف اضطروا للمغادرة بدون تمهيد مسبق، في سوريا وبعد شهور استعدت معنى البيت، فقد فتح اهلي بيتهم الذي كان يستقبلنا في حلب أوقات الاجازات وبات بيتا دائما للعائلة التي وجدت نفسها فجأة بدون بيتها الذي ضمها لسنوات طويلة في الكويت.

استعدنا معنى البيت، بيت العائلة وبيت الديمومة، بعد صدمة الغزو العراقي للكويت. لكن ذلك البيت، هناك في حي «المشهد» بجبل الجوشن المعروف بـ«الأنصاري» لم يعد موجودا. بالأساس لم يعد بيتنا منذ أكثر من عشرين سنة. لكني أشعر بالوجع وانا أرى الى صور ومقاطع فيديو تظهر البيوت في المنطقة وقد تهدمت بسبب القصف الوحشي عبر براميل الموت. لم يعد بيتنا هناك، لكن الجيرة في غالبيتها لا تزال. ذكرياتنا. مشاويرنا الى مركز الحي، حيث بائعو الخضار، ومحلات النوفوتيه التي تبيع مستحضرات الشعر والتجميل والتي كانت تسعفنا وقت الحاجة السريعة اليها، الصيدلية وطبيب الحي. وبيوت اقرباء آخرين غير بعيدين.

لم يكن مجرد بيت باعته أمي قبل أكثر من عشرين سنة لتنتقل الى حي أرقى في شارع النيل. البيت في حيّ المشهد كان خلاصة تعب أبي في غربته. خلاصة صبرنا نحن أبناؤه ووزوجته على عدم قضاء الاجازات في الوطن او شراء ما يعد رفاهية خارج الأكل ولوازم الدراسة. لقد وفرنا جميعنا من المتعة والرفاهية والتبطر، لكي يكون لنا بيت يضم العائلة التي باتت أكبر من ان تحل ضيفة على بيت عم او خال. العائلة التي كان الأبوان فيها يخططان لمدة ٣٠ سنة للعودة النهائية! تراكمت الأغراض فوق الخزائن وخلفها وتحت الأسرة، أطقم صحون وأدوات مطبخ وأغطية ومفارش، كلها كانت تتسرب للبيت الجديد بطوابقه الثلاثة. انتهى بناء البيت وفرشه ولم تعد العائلة نهائيا الى الوطن. كانت الجذور التي شرّشت في البيت المؤقت في المهجر وإلفتها، اقوى من البيت الدائم في الوطن الاصلي مسقط رأس غالبية أفرادها. ثم دخل صدام الى

الكويت بقواته وأجبر العائلة المترددة على العودة الى المنبع، بعد هجرة طالت.

بيت العائلة صار بيوتا خلال ربع قرن. غاب البيت الكبير بعد رحيل صاحبته قبل سنوات. ولم يعد لي من موقع دائم في مدينة حلب غير ذلك الذي في الذاكرة. وبيوت فرعية للأخوة. عندما انقسمت حلب بين النظام والمعارضة المسلحة انقسمت العائلة الكبيرة داخل الخريطة. ثم تسربت غالبية من كانت بيوتهم على خط النار الى المناطق البعيدة عنها قليلا، عائلات اخوال وخالة، باستثناء شقيقتي التي تعيش وحيدة في منطقة تأقلمت مع ظروفها وحرسها وسكان جدد نازحين. لا ترضى بالخروج من بيتها كي لا يُسرق ويتم إفراغه كما حصل مع بيوت اخرى في المنطقة. أقول لها قد يصيبه قصف بواحد من البراميل التي تلقيها الطائرات ويذهب البيت ومن في داخله. أختي لا تقلق من الموت. يقلقها ضياع البيت. بيتها هو صدفتها ومن دونه ستشعر انها مكشوفة وضعيفة. أما بقية العائلة فتحتمي ببيوتها رغم خسارة مواقع العمل، محلات او ورش. ترفض الخروج الى المنافي. التخوف نفسه يتلبسهم. الخوف على البيوت من أن يتركوها خلفهم. فلا يجدونها عندما يعودون. بشر من غير صدفة. بشر مفضوحون للعيان بدون خصوصية. يتمسكون ببيوتهم كآخر قطعة خشب وسط هذا التسونامي الجارف. وما الوطن إلا بيت. وما البيوت الا أولى حدود الأوطان.

ورغم ان بقاء عائلتي هناك يقلقني ويجعلني خائفة طوال الوقت على سلامتهم، إلا ان قرارهم يحقق في داخلي نوعا من الغرور، أنهم باقون في بيوتهم، هناك. ان الظروف سمحت لهم بما حرمت غيرهم منه، البيوت.

تلك البيوت ومواقعها وسكانها، تمنحني اطمئنانة بأن مدينتي حلب، لا تزال قائمة، وان استمرارية مدينة عريقة مثلها يعني حظا وفيرا لاستمرار مدن وبلدات سوريا الأخرى.

أثناء ذلك، وفي الوقت الضائع المقتطع من عمري ومن عمر البلاد، أنتظر بقلق الزمن القادم، وأنا في بيتي بلندن، البيت الذي اشتريناه انا وزوجي بمساعدة من البنك قبل سنوات، مشروعا استثماريا يساعدنا مستقبلا في الاستقرار في الوطن، حيث سنقضي تقاعدنا رفقة الأهل والأحبة والأجيال المختلفة التي تؤكد استمرارية هذا الشعب. وما خوفي الا ان يتحول هذا البيت المؤقت الى بيت دائم في زمن الانتظار.

إعداد: حسام الدين محمد

ماذا يعني «البيت»؟: نازحو سوريا يتحدثون

أكثر من مليون سوري تركوا بلادهم وعبروا الحدود نحو تركيا – ومع ذلك فإن العديدين منهم ما زالوا متمسكين بمفاتيح بيوت من المستبعد أن يتمكنوا من رؤيتها من جديد. الصحافي والمصور برادلي سيكر يستمع الى قصصهم...

كل شيء يتعلق بالتفاصيل الصغيرة: أظافر مطليّة، لعبة سخيفة، قبضة يائسة. كل يد تقدم مفتاحاً للحياة التي تقف خلفها، ولكن الشخص يبقى مجهولاً بشكل عام.

لكنها، على أية حال، كلها تملك شيئاً مشتركاً واحداً: كل يد تعود الى شخص تم اقتلاعه من بيته بسبب الحرب؛ المفاتيح تنتمي الى البيوت التي أرغم أصحابها على المغادرة.

الصور كلها لبرادلي سيكر، وهو صحافي ومصور بريطاني عمره ٢٧ عاماً يعيش ويعمل في تركيا منذ ٢٠١٢، يركز في عمله على قضايا الهوية، الهجرة، الجنسانية والتأثير السياسي الاجتماعي لكل ذلك على المنطقة. رغم أن مركزه هو إسطنبول، فإنه منذ حزيران /يونيو ٢٠١٣ يتجول في البلاد ليلتقي ويصور بعضاً من المليون نازح الذين عبروا الحديد من سوريا.

سمّى سيكر مشروعه «نكبة»، رغم أنه يعلم أن الكلمة مشحونة بالدلالات في الإقليم، كونها الكلمة التي لا يمكن فصلها عن نتائج حرب ١٩٤٨ الفلسطينية، والتي أدت الى نزوح ٧٠٠٠٠٠ شخص من بلادهم، «أحياناً يفهمها الناس بمعنيين»، يقول سيكر. «لكن الناس يفهمون الأمر. في نظري، هذه أكبر كارثة خلال العقد المنصرم من حيث الأزمة الإنسانية. هذا، جزئياً، سبب استخدامي لهذه الكلمة، ولكن أيضا لحث الناس على الفعل».

قرّر سيكر أن يصور قبضات أبواب ومفاتيح اللاجئين بعد أن قلق من طريقة تغطية وسائل الإعلام للحرب. «لقد قمت بالكثير من المهمات، مغطياً الأزمة وأحسست أن الكثير منها امتهن وأساء استغلال آلام البشر». ويتابع: «أردت أن اعطي الناس الذين كنت أصورهم بعض الاحترام والمجهولية. الفكرة خلف الصور هي إيصال معنى أنك فقدت منزلك، وأعتقد أن هذا شيء يسهل ربط الموضوع مع القراء وبقية البشر».

يرى سيكر أيضا ان القبضات يمكن أن تعطي الكثير من المعلومات عن أصحابها، «يمكنك أن تعرف جنس الشخص، والقليل عن نوعية الحياة التي كان يعيشها، والمهنة التي كان يعمل بها. إنها معبّرة كثيرا».

موضوع سيكر الأول كان زملاءه في السكن من السوريين. منذ ذلك الحين التقط صوراً لحوالي ٨٠ شخصا. هو مشروع مستمر وقد أخذ به الى في مناطق تركيا، من مخيم للاجئين في «إصلاحية» إلى موقف حافلة في مدينة كلّس على الحدود السورية، جنوب البلاد، الى المدن الرئيسية مثل إسطنبول في الشمال.

«لدي الكثيرين على قائمتي للتصوير للأسابيع القادمة. الأمر أكثر صعوبة مما تتوقع بالنسبة لسلسلة تصويرية من هذا النوع. هناك أشخاص ينسون إحضار مفاتيحهم، أو يكونون مشغولين، او يسافرون الى مكان ما في اللحظة الأخيرة قبل موعد التصوير».

المشاركون في المشروع سئلوا أن يقولوا بعض الكلمات أيضا عن معنى البيت بالنسبة لهم. والرسالة التي تثير المشاعر تتراوح بين «روحي» الى «المكان الذي سأعود إليه مفتشاً عن جذوري».

«إنه أمر مثير للاهتمام أنني لم أجد رسالة تتكرر» يقول سيكر. «تقريباً كل واحد قال شيئاً مميزاً به. أعتقد أن كل شخص لديه رؤية مختلفة عن البيت».

كل صورة، إذن، تأتي من قصة شخصية. هائل هو شخص محب لكرة القدم وقد حضر مباراة لمانشستر يونايتد مرة في زيارة له إلى إنكلترا. عبود استخدم لعبة الليغو الملونة، وهي هدية من أخيه، كمصدر للإضاءة حين انقطعت الكهرباء عن بيته خلال القصف.

علا وعبود تزوجا في تركيا بعد أن التقط سيكر صوراً لهما، وقد دعياه، عبر صديق لهما، لالتقاط صور لحفل زفافهما. يتذكر سيكر أنها كانت لحظة مرّة حلوة؛ حيث قام الزوجان ببث حفل زواجهما عبر سكايب ومن خلال عدة أجهزة كومبيوتر محمولة إلى أقاربهما المشتتين في أربع قارات.

من المحزن أن عدداً من هؤلاء الذين أجبروا على مغادرة بيوتهم لا يمتلكون بيوتا لو أنهم عادوا أو قرروا العودة». «بعض البيوت دمرت - لكنهم ما زالوا يحتفظون بمفاتيحها»، يقول سيكر. «شخصيا، لقد احتفظت بمفاتيح ستة أو سبعة بيوت سكنت فيها في بلدان مختلفة، أعتقد أنه أمر إنساني أن نفعل ذلك. هذه المفاتيح صارت رموزاً لبيوت الناس، وأيضاً هي امتداد لما يحصل في بلادهم. هناك شيء عاطفي في كل ذلك.

للمزيد يمكنك الإطلاع على رابط الصحافي:

bradleysecker.com/syrian-nakba

عبده وازن

المفاتيح

المفاتيح وحدها بقيت
خبأوها كذخائر في صدورهم
هم يعلمون أنهم لن يعودوا
أن البيوت أمست بلا أبواب

المفاتيح لا يتخلّون عنها
يوقظونها من نومها ليتذكّروا
ليشمّوا رائحة أبوابهم
ليلتمع في عيونهم بريق العتبة.
أنها كل ما تبقى لهم
من حياة كانت هناك
من سماء كانت تظلّلهم
من شجرة الباحة
وبنفسج السياج
إنها كل ما تبقى
من أماسيهم المقمرة

من صباحات كانوا يسبقونها
إلى حقول الشمس

من ظهيرات أيامهم وغروبها.

الآن يجلسون
ينظرون إلى هناك
ينتظرون غيمة تحمل إليهم خبراً
يترقّبون نجمة تشرق من أرضهم
لكنهم في الليل فقط
يبصرون أنفسهم هناك
أمام عتباتهم
يفتحون الأبواب
ثم يغلقونها
هم يعلمون أنهم لن يدخلوا
لكنهم لا يتخلون عن مفاتيحهم
وحدها سترافقهم
في يومهم الأخير.

هشام الواوي

كيف تبني بيتاً؟

مسألة هندسية عقارية سهلة: كيف تبني بيتاً؟!

لم يُجِبْ والدي عن هذا السؤال مباشرة، فالرجل ليس مهندساً ولا «نجار باطون»، بل إنه اشتغل على طريقة المحاربين القدماء، قدم بياناً عملياً استمر ثلاثين عاما أظهر فيها طريقته في البناء، من دون مخطط ولا خرائط. اشتغل بِنَفَس غَوّاص، متوكلاً على الأزمات والانتصارات والخيبات وبيانات الحكومة، وبأسلوب تجار المفرق، أصحاب البضائع الكاسدة، بنى بيته.

بدأت الحكاية، بحسب تقديري، عندما افتتحت المطربة صباح نشاطها الفني الطويل، كانت كلمات أغانيها سهلة، وألحانها ساذجة، أما الصوت الذي يشبه مسكبة صغيرة مزروعة بالنعنع فقد طار بالكلام واللحن كالمنطاد فوق المدن الصغيرة المتكورة على ذاتها كالأجنة، وطاف على البيوت عبر شبكة إذاعية بدائية وبضع تلفزيونات بالأسود والأبيض متناثرة بخجل مشحون بالفضول، فضول معرفة أسرار الرجل المتحرك داخل الصندوق الخشبي الذي كانت النساء العجائز يغطين رؤوسهن بحركة عفوية عند ظهوره، وكان الاستماع الجماعي إلى نشرات الأخبار شائعاً عندما تتحلق ثلة من الرجال حول مذياع ضخم معلق على الجدار كلوحة ثمينة. كان الجمع ينفضُّ ببطء بعد أن ينهي المذيع وصلته على صوت صباح تنادي وكأنها تسكب المازهر «يا بيتي يا بويتاتي».

ورث أبي عن أبيه تسعة أشجار زيتون تشكل زاوية الكرم الكبير الذي تَوَزَّعه أحد عشرَ شقيقاً وشقيقة، باعه أبي في اليوم التالي وهو يقول بصوت جاف لا أثر فيه للزيت «بعت الزيتونات... الزيتونة بمية»، وبعد أن يسوي من قيافته المدنية ويعدل من جفاف حنجرته بشيء من الماء يضيف: «حطينا فوقن أربع مية وتسع وتمانين ليرة واشترينا الأرض». كان أبي يصمت قليلاً مفسحاً المجال لعملية حسابية سريعة أن تُجرى، تَجْمع سعر «الزيتونات»، بالمبلغ الذي «حطه فوقهن»، وبعد أن يطمئن إلى أن العملية قد أجريت بنجاح يصيح وكأنه خبير اقتصادي يذيع بفرح نتائج الأرباح السنوية «ألف وتلاتمية وتسعة وتمانين» ويعلق: هادا لما كانت الليرة تحكي!

كان والدي يعتقد بأن لليرة في الماضي لساناً فصيحاً «تحكي» به، «لما كانت الليرة تحكي» كانت لازمة يكررها عند كل مناسبة مالية كما كانت صباح تردد لازمتها «يا بيتي يا بويتاتي» بعد كل كوبليه.

عملية البناء سهلة إذا توفرت الأرض، وغضت البلدية أبصارها. امتلك أبي بالفعل هذين العاملين لكنه وَقَفَ وسط الأرض التي اشتراها «بألف وثلاثمائة وتسعة وثمانون ليرة لما كانت الليرة تحكي» حائراً. قاسها بالطول والعرض بخطوته الواسعة عشرات المرات وسجل نتائج القياس على عدة دفاتر صغيرة. كان يشير بيده نحو زاوية قريبة ويقول «هون غرفة» ويتابع حركته المدروسة موزعاً تفاصيل البيت على الأرض الفراغ «وهون الصالون، هون المطبخ والحمام لأنو الهوا شرقي»، يبتسم أبي بعد أن يهندس الهواء بيديه مشيداً بيتاً بثلاث غرف «ومنتفعاتهن». كانت فلسفة التوزيع الجغرافي التي يعتمدها أبي تتفوق على «البنيوية» التي كانت تلفظ أنفاسها مخلية الطريق إلى ما بعدها، وما بعد البنيوية، في عرف صاحب الأرض الذي يرغب أن يبني بيت أحلامه، المباشرة بحفر «الجور» لصب الأساسات.

حفر أبي «جور» الأساسات بنفسه ليوفر أجرة العمال، كان ينتهي من عمله الرسمي ويذهب مباشرة إلى الأرض فيخلع قميصه ويتناول فأسه ويبدأ الحفر، في يوم الحفر الأول كانت السينما تعرض فيلم «نار الشوق» الذي يظهر فيه وديع الصافي فتىً قوياً بصلعته الشهيرة ذاتها، يتنقل بحزن في شارع خال ويغني بصوت مصقول كأنه الرخام البدروسي «داري يا داري يا دار»، الأغنية حزينة شجية وضع فيها بليغ حمدي إمكانات موسيقية بديعة، رافقت الأغنية أبي وهو يحفر أساس بيته، كانت عملية حفر تسعة عشر حفرة بعمق متر ونصف عملية طويلة ومجهدة، توقف عرض الفيلم وحقق المنتج أرباحاً جيدة مستفيداً من مشاهد «هويدا» في بانيو الحمام، ولا يزال أمام أبي جورتين مستعصيتين بتربة قاسية كصوت وديع.

ظلت الحفر كما هي أكثر من عام، كانت «الحركة التصحيحية» حينها قد أسست لنفسها بقوة وحفرت لقواعدها جوراً أعمق من جور أبي، وقام تحالف ثلاثي «قوي» بين سورية ومصر

وليبيا لم تقو أخبارُ فوز جورجينا رزق بلقب ملكة جمال الكون بالتغطية عليه، هذا لم يمنع التراب وبقايا العلب البلاستيكية والخشبية من التراكم في حفر بيت أبي الذي كان يحاول شراء حديد وإسمنت لصب الأساسات ولكنه لم يعثر على مُوَرّد يبيعه بالأقساط، فاحتفظ بالأقساط معه، وانتظر، ولكن الأسعار كانت تقفز أمامه كأرنب سعيد يعيش بين أكوام من الجزر. صدقت الحكاية وتغلبت سلحفاة مدخرات أبي على أرنب الأسعار واستطاع أن يوفر ثمن حديد تسليح وإسمنت وكل ما يلزم لصب أساسات بيت مكون من ثلاث غرف «ومنتفعاتهن». كانت العملية سريعة وسلسة قبض المقاول المال وبلمح البصر امتلأت الحفر بالخرسانة الطازجة مغلفةً الحديد الصدئ من كل ناحية، وأخذ الإسمنت الطازج شكل الحفرة تاركاً المجال لبضع أسياخ من الحديد واقفة بشموخ معدني لتبدأ من عندها مرحلة البناء التالية.

الحلف الثلاثي القوي انهار بعد حرب تشرين، عندما سحبوا أبي إلى الخدمة الاحتياطية، كمعظم الرجال الذين تركوا بيوتهم وذهبوا إلى الحرب، بقيت فيروز وحدها تغني» اشتقتلك يا بيوتنا» بمساندة الحلف الرحباني الذي كان أقوى بكثير من الحلف الثلاثي. بقي أبي على الجبهة إلى ما بعد انتهاء الحرب، وكذلك بقيت الإذاعة تمتلئ بالأغاني «الوطنية» وتتحدث عن استنزاف طويل دون أن تذيع أغنية فيروز تلك مرة واحدة، لم يكن أبي رجلاً بدون حس وطني ولكن تفكيره انصرف إلى صب «الشيناجات» التي تربط أساس البيت، هذه المرة كانت الأقساط أقل ولكن الحرب مع اسرائيل أخرت مشروعه إلى ما بعد حرب الاستنزاف، استنزف الانتظار الطويل كل مدخراته وكان عليه أن يبدأ من الصفر مجدداً. كان هذا سبباً إضافياً غير الأسباب التي يرددها المذياع لأبي كي يكره اسرائيل التي أخرته عن إنجاز وعدٍ قطعه على نفسه منذ زمن بعيد.

تم، بعد ذلك، صب الشيناجات، ووقفت الأعمدة على سيقانها كالأيدي المرفوعة بالتضرع، ثم توقف كل شيء، لأن ما بعدها كان أصعب من كتابة التاريخ، فالسقف كيان هندسي متمرد يلزمه الكثير ليتشكل، السقالة المعدنية والقالب الخشبي الواسع وكمية مهولة من الحديد والإسمنت، كانت البلاد مجهدة من مقارعة الاستعمار والرجعية، والأسواق خاوية يسير فيها الناس ليتفرجوا على بعضهم البعض، وأسعار البيوت والأراضي آخذة بالارتفاع. فرك أبي يديه فرحا عندما شبت الأسعار كأشجار الحور المزروعة على أكتاف السواقي، ولكن لسوء الحظ فذلك الارتفاع لم يشمل أرض أبي، تضاعف سعر كل شيء ثم تضاعف مرة أخرى بعدها أصبح تضاعُف الأسعار سنّة وهدياً مباركاً، إلا الأرض التي يبني فيها أبي بيته لم ينظر إليها أحد، تم التعامل مع تلك «العَرَصة» كشيء بالٍ ومُعدٍ هربت من جوارها كل أشكال المدنية وأصبحت أقرب إلى مقلب كبير يتخلص فيه الناس من أشيائهم غير المرغوب فيها.

بات أبي حزيناً لأن الارتفاع لم يشمل أرضه، وحزيناً أكثر عندما كان يقف بين الأعمدة الخرسانية

فيبدو كأحدها، ينظر عالياً ويحلم برقاقة اسمنتية تضطجع فوق هذه الأعمدة ولو اضطر أن يقف هناك رافعاً يديه ليسندها.

هنأ نفسه عندما خوت الأسواق من الحديد والإسمنت، شمت من قلبه لأن منشآت دورة البحر الأبيض المتوسط لم تكتمل ولم تنتشلها من الفشل ذهبية كرة القدم ولا ذهبية بطولة الفروسية التي أحرزها الفارس الذهبي باسل الأسد، مع أن كل مياه البحر الأبيض المتوسط لم تكن كافية لتطفئ الكمد الحارق الذي يعانيه وهو ينظر بانكسار إلى الأعمدة التي تنتظر أن تحتضن السقف.

صب أبي السقف بعد أن استعان بأشقائه وجيرانه وأصدقائه، فقد شهدت الأسواق بعض الرخاء خلال حرب الخليج الثانية، حيث ذهبت كتائب وألوية من الجيش السوري إلى الكويت وعادت بقصص عن البذخ والثراء، بعدها أقام الجدران، واستطاع الحصول على استثناء لشراء البلاط والسيراميك من «مؤسسة الإسكان العسكرية»، تدبر أمر التمديدات الكهربائية والصحية بنفسه، لأن المعلم الذي باشر معه توصيلات الكهرباء مات بصعقة تيار قاسية قذفته عدة أمتار، أما «معلم الصحّية» فقيل له بأنه تطوع في الجيش وذهب إلى لبنان ولكنه سرعان ما «شكل فرار» وسيق إلى السجن العسكري في تدمر. لم يستطع أن يضع الأطقم الصحية بشكل كامل فتدبر أمر مغسلة واحدة ومرحاض عربي من النوع الرديء الذي تنتجه «مؤسسة معامل الدفاع»، أما الطلاء فقد كان سعيداً بأداء مهمة من هذا النوع وأنا شخصياً ساهمت بقسط وافر من العملية، فقد كنت أمسك السلالم وأديرها وأنقل براميل الطلاء من غرفة إلى أخرى. كنت سعيداً بروائح البرافين المنبعثة من الطلاء وكنت أعتقد بأنها منعشة وأسارع إلى كل سطل مفتوح لأتنشق ما طاب لي منها.

عندما انتهى تجهيز البيت وانتقلنا إليه كان ربيع دمشق قد أصبح خريفاً، وزادت أعداد الصحف المحلية وقنوات التلفزيون دون أن تزيد قيمة بيت أبي الذي ظل منفرداً وبعيداً لا يرغب أحد بزيارته ولا الاقتراب منه نظراً لوحشته وابتعاده.

لم يشأ أبي ان يقصي نفسه. أراد - فقط - أن يبني بيتاً.

حليم يوسف

أبي البيت وأختي سوريا

لم تكن علاقتي مع البيت في يوم من الأيام على ما يرام. ولدت في بيت طيني معزول في بلدة عامودة الحدودية. أبي المهاجر من إحدى القرى المحيطة بجبال أومريان من منطقة (سه رخه ت) أو فوق الخط، حسب التعبير الدارج، والتي ستسمى فيما بعد تركيا، بنى لنا في طرف البلدة، على طريق قامشلو، بيتاً طينياً ككل بيوت عامودة الطينية آنذاك. لم أكن أعلم أن موجة الإسمنت المسلح التي ستداهم البلدة، ستقضي في طريقها على ذلك البيت الطيني الذي كنت، وأنا صغير، أعتبره بيتاً أبدياً لي ولمن سيأتي بعدي. ولم أكن أتصور وجود مكان آخر يمكنني اللجوء إليه فيما إذا حدثت كارثة ما، بل ان الكارثة بعينها هي أن نفقد هذا البيت الذي «يسترنا» على حد قول أبي، الوحيد بيننا الذي اضطر في هجرته القسرية أن ينام في العراء وأن يهيم على وجهه متشرداً، معدماً، وما من بيت يؤويه. لذلك كانت علاقته مع البيت الذي بناه لنفسه ولنا بيديه وبعرق جبينه شديدة الخصوصية وتختلف عن علاقتنا نحن أفراد عائلته بهذا البيت. وعندما اكتمل بناء البيت الإسمنتي الكبير في حوش بيتنا الطيني رفض أبي مغادرة بيته الطيني القديم، وعندما غادره الجميع وسكنوا في البناية ذات الطابقين، بقي هو في غرفته الطينية وحيداً، سعيداً ببقائه حيث هو، مُصِرّاً على عدم السماح بهدم هذا البيت أو تغييره.

كان أبي يعتبر التخلي عن بيته القديم نوعاً من نكران الجميل، بعد أن منحه هذا البيت الأمان والستر وتشكيل عائلة ومستقبل ملؤه الخير والنجاح لأطفاله الذين يكبرون بهدوء، ومنهم مَن وجد طريقه في الحياة وتزوج وأنجب أولاداً. عدا عن ذلك فإن الدفء الذي يمنحه البيت الطيني يعجز الإسمنت عن تقديمه لساكنيه في الشتاء، كذلك البرودة المنعشة التي تتواجد في البيت الطيني في الصيف لا تتواجد مثلها في البناية الإسمنتية. ولم تنفع معه إخافته بوجود العقارب المختبئة في الطين وما إلى ذلك من وسائل الترغيب والترهيب التي كانت تثير لديه ضحكات ساخرة لا أكثر ولا أقل. وظل يردد بأنه ممتن ليس لبيته القديم فحسب، بل لهذا المكان ذي الاتساع الكبير الذي بات اسمه «سوريا». ولكي يردّ جميل هذا المكان الكبير عليه أطلق اسمه على إحدى بناته. والآن فان أختي سوريا هذه قد تجاوزت الخمسين بقليل.

شغلتني علاقة أبي الغريبة مع بيته القديم لدى انتقالي، الذي رافقه الكثير من الفرح، مع أخوتي إلى البيت الجديد، بعد أن تخلصنا من الخوف من لدغ العقارب الأفاعي ومن خشخشة الفئران والأجسام الغريبة التي كانت تسحب أذيالها بين الفينة والأخرى من شقوق الجدران الطينية المتشققة للبيت القديم. ولدى خروجي من عامودة وذهابي إلى الدراسة في جامعة حلب، اضطررت كغيري من الطلاب، لاستئجار بيوت وغرف غالباً ما شاركني آخرون السكن فيها. لم أشعر يوماً بأن البيت الذي استأجرته في حلب هو لي أو خاصتي أو هو «بيتي» حقاً. وبهذا فان البيت الذي في عامودة هو بيت أبي، ولأنني كنت أصغر إخوتي، فقد سبقني إخوتي إلى السكن في البيت الجديد مع عائلاتهم، وبقي أبي يسكن البيت القديم. وفي النتيجة بقيت ولأكثر من عقد من الزمن معلقاً في الهواء، يقولون لي في حلب أن لي بيتاً في عامودة وفي عامودة يقولون إن لي بيتا في حلب. وفي الحقيقة لم يكن لي أي بيت لا في عامودة ولا في حلب. وبالخروج النهائي من الوطن تتماهى علاقة الوطن بالبيت تحديداً ويرتقي البيت إلى مستوى الوطن بكل تفاصيله الصغيرة، ويصبحان جسماً واحداً. وقد يقضي المهاجر عمره بين حلمين متعارضين، يتجسد النصف الأول قبل الهجرة في الحلم ببناء بيت خاص، مختلف، يتطابق مع المقاسات المثالية وفيه الكثير من الرومانسي. ويتجسد النصف الآخر بعد الهجرة في الحلم بعودة مشرفة إلى حضن الوطن والحنين الجارف لـ«أول منزل» أي للبيت الأول المرتبط بالولادة والمجيء الى الحياة. وفي اللغة الكردية يرتبط البيت في جذره اللغوي بالغنى (مال)، حيث أن من لا بيتَ له هو إنسان فقير، معدم، ومعدوم الحيلة. وفي بلاد الاغتراب ونظراً لعدم إمكانية الركون إلى اعتبار وطن الإقامة وطناً فعلياً للمهاجر، فإن الركون إلى البيت لديه واتخاذه مسكناً مريحاً ومطمئناً يعتبر في حكم المستحيل، وخاصة بالنسبة لمن لم يكن قد ولد في المهجر. أي أن الهجرة بحد ذاتها وما لها من تبعات نفسية ووجدانية تحول غالباً دون بناء علاقة وطيدة مع البيت، هي وإن لم تجهز عليها فإنها تبقيها علاقة مرتبكة ومشوشة. وبناء على ذلك قد يفقد

البيت مفعوله السحري الأخاذ على المستوى الجغرافي، فيتمدد بقوة هائلة في داخل الإنسان على المستوى الروحي، فيأخذ أحدنا معه بيته وبكلمة أخرى وطنه، حيث يذهب.

فليتحسس كل منا روحه قليلاً، بحثا عن شيء ما، افتقده الجميع منذ زمن. قد يكون ذلك الشيء بيتاً أو ربما: وطناً.

إبراهيم اليوسف

القرية

ليس من نبأ غيره...!
ليس من سبيل إلى مبعث الأزيز
ورعدة الوقت
ليس من سدرة نحو الأهلين
ليس من خلاص من خيوط الوثاق
ليس من ذبذبات بين الأصابع المنفردة
قرب آلة الطنبور المرتمية
ليس من أذان هذا الصباح
في ثوب الغرباء
شرر من كل جهة
ودم
حساسين ذاهلة
على مقربة من الأجساد
هامدة
والبيوت مهدمة
كأسطورة لا تصدق

اطلعي يا شجرة من جلد الاخضرار
وتوضأي بصيف ليس على ما يرام
قناديل الأمس لاتزال في حداد الضوء
لم يطفئها العابر
يسرق الرّغيف من اصفرار البيدر
صوت الحاصدة
تترك خلفها
اللعاب
والدم
والدخان
افتح الحدقة على أوسع أفق
افتح الصورة الإلكترونية
على أوسع بلل وشهقات متيبسة
هضبة قرب حقل الرمي
أطفال في حقائب نهاية العام الدراسي
هاتف ترد عليه أنامل خشنة
وصوت مسعور
نساء في سمت الوأد
كهول وشيوخ
يتيبس عليهم السائل القرمزي
مشكولاً بروائح أصابع كريهة
سكاكين فولاذية
تتعلق بها الشهادة الأخيرة
والأغنيات
والحلم متردداً
بين الحقل وزرقة السماء الناقصة
هكذا يمر عسكر دجال
هكذا يسيرون نهاية العرض المسرحي
لا يتركون علواً لقامة أو مقبرة

هكذا يعبر زناة الرسالة التليدة
في صور سوداء
شهادة سوداء
مكائد سوداء
هم أنفسهم
تتقطر من فؤوسهم
ألوان الكعبة
وهي تتبعثر إثر عبورهم
الأخير
يحرقون كتب الرب
ويرتمون في الرماد
دون طيور أبابيل
دون حجارة من سجيل
لا شيء يضيع من شاشة التلفزيون
يتلمظ الصور لعاب بلغات لا نهاية لها
ليس من نبأ غيره
تلال تتتلل...:
تليلية وتل عرن وتل حاصل
جهات الخريطة
في جرحها
العميق... العميق....
ثغاء دون راع
ملاعب دون عطور العشاق
كتب متبقعة بالأحلام والكريات
ظلال لا تقيسها خطوات المارة
قل ما شئت في حضرة الخرافة
خارجة عن جلد الوقت
ليس لك إلا أن تحصي مداخلها ومخارجها
من الجهات الست

حيث تستبد بهم في آخر اللعبة
جهة واحدة
وجهة واحدة
لا تدلق دمك عارياً
في هذا الصراط السوري
دون دوي
لا تدلق روحك
قبل أن يلتئم اسمك
كأنك جئت مبكراً
كأنك عدت متأخراً
في «سري كانيي» تطلع الينابيع
مرة أخرى
فيها العويل
وسيل الدم المطواع
تستطلع ما بعد ميناء ساعة البيت
تغوص عقاربها في الدبق
والخبر الأول في «نشرة الأخبار»
ليس من صوت يلتئم الآن
ليس من حكمة تترصع
بنزيف قوس قزح
وشمس الصباح
مطعونة بالموسيقا الميتة
ما دمت تظهر
شاحب الخطوات
مثقل الشكوى
لا تترجمها رياح الصيف
عصف الأكذوبة الماجدة
ما دام لا يبقى
سوى بيوت من طين

لا يبقى من القرية
إلا خطوط بيوت
وبنات آوى
وبئر لا يطمر الصورة المتبقية
عويلك يرتفع...
عويلك يختنق...
عويلك ينزل درجات البئر
نحو الماء في لونه الجديد
نحو الماء في سورة جديدة
لم يبق لك
غير بندقية أبيك
ترفع عنها الغبار
كلما عاينت الأفق
تستدرج الجبال إلى محطات السهول
تقرأ رنين الصوت في جرحه
تداري الهواء
في هبوب مترقب
وطن قريب
وبوصلات تحرك عقاربها الرائحة المنتشرة
هو دمك
يهدر على عادته
هو دمك يحجل على عادتك
هو دمك بن أبي
ليس من نبأ غيره
في هذه القرية
الهامدة...!

إيسن ٢٩-٥-٢٠١٤

أوراق السرد

ألبرتينه لوكيليان - ترجمة: محمد شاويش

العم سليمان والمعلمة

(من أوائل النصوص الألمانية التي تناولت المأساة السورية)

مقدمة المترجم:

ألبرتينه لوكيليان كاتبة ألمانية مقلّة تتوجه في كتاباتها أساساً إلى الأطفال واليافعين. تجمع في كتاباتها بين الاحترافية العالية في فني القصة القصيرة والرواية والتفهم العميق لعالم الصغار وعلاقاتهم مع النظام التربوي. وتستفيد في ذلك من كونها هي نفسها تعيش علاقات عائلية مستقرة فهي متزوجة وتربي ثلاثة أطفال وكرست للتربية أوقاتها. تخصصت لوكيليان في الجامعة في فرعي الأدب الأمريكي والدراسات العربية وسيرى القارئ في هذه القصة بالذات آثاراً لتخصصها في الدراسات العربية. تنطلق لوكيليان في رؤيتها العامة من منظور تلك الشريحة من الطبقة الوسطى الألمانية التي قد يمكن توصيفها بأنها لبرالية ذات ملامح إنسانية قوية (ولعل القارئ يعلم أن هذه الطبقة المتوسطة في الغرب تحتوي على أوساط كثيرة تتراوح بين الإنسانيين المدافعين عن مجتمع يحمي البيئة ويحمي التنوع الثقافي وهو اتجاه الكاتبة كما يراه المرء في نتاجاتها الأدبية، وبين اتجاهات أخرى متنوعة تتراوح بين اليمين واليسار). وسيرى القارئ في هذه القصة هذه الخلفية الاجتماعية-الفكرية التي تنبني عليها كتابات ألبرتينه لوكيليان.

من كتابات لوكيليان: «الشَّعر السحري وكعكة البصل».

تعد هذه القصة «العم سليمان والمعلمة» من أوائل النصوص الأدبية الألمانية التي تناولت المأساة السورية، وقد حازت على جائزة معرض بون للكتب المتخصصة في موضوع المهاجرين عام ٢٠١١.

كتبت القصة عند بدايات الثورة السورية (وكما يرى القارئ حتى وقت كتابة القصة كان من الممكن تصور زيارة عائلة سوريا إلى أقربائها في ألمانيا لا بهدف النزوح بل كزيارة عادية تنتهي بالرجوع إلى الوطن!). وهي تعالج علاقات العرب (والمثال هنا هو عائلة سورية مهاجرة) مع نظام التعليم الألماني.

-١-

بعد انتهاء الحصة قالت السيدة كونتس بول: «يا جمال! أيمكنك أن تأتي إليّ بعد الدرس؟». أومأ جمال برأسه وأجاب على نظرة متسائلة لجاره في المقعد بأن هز كتفيه. لم يكن يعلم ماذا تريد مربية الصف منه، لكنه لن يكون أمراً جيداً بالتأكيد! بعد أن قرع الجرس جمع أغراضه ببطء في حقيبة. لم يكن يرغب أن يسمع الآخرون التوبيخ الذي سيطاله لا محالة. تقدم إلى المعلمة ببطء. صعدت بنظرها من الدفتر الصغير الذي تدون فيه ملاحظاتها بعد كل حصة.

«آه.. نعم! جمال! هل بحثت مع والديك في موضوع المدرسة التي ستنتسب إليها بعد انتهائك من هذه؟»

نظر إلى الأرض وهز رأسه نافياً.

كان يعلم أن زملاءه في الصف في نهايات الأسبوع الأخيرة شاهدوا مدارس أعلى مع أهلهم سينتقلون إليها جميعهم بعد انتهاء الصف الرابع.(*) جمال لم يقل شيئاً عن ذلك لأهله لأنه يعرف أنهم على كل حال ما كانوا ليذهبوا معه. إنهم ما كانوا يعرفون نظام المدارس الألمانية، ولم يحضروا قط اجتماعات الأهل في المدرسة.

«أظن أني سأذهب إلى مدرسة لندنبرغ» أجاب بصوت خافت. كل الأولاد الذين يسكنون في حيه المؤلف من بنايات عالية ذهبوا إلى مدرسة لندنبرغ المختلطة.(**) علاوة على ذلك كانت هي المدرسة الوحيدة التي يعرفها والداه إضافة إلى المدرسة الابتدائية.

---

*) في ألمانيا عندما ينهي التلاميذ الصف الرابع يذهب التلميذ إلى مدرسة أعلى قد تكون تؤهله للحصول على الشهادة الثانوية التي تؤهله للدراسة في الجامعة واسمها "غمنازيوم" Gymnasium وتسمى شهادتها "أبيتورAbitur"، أو تكون من نوع يناسب التلاميذ ضعيفي التحصيل وهذه تنتهي غالباً في الصف العاشر وتسمى "مدرسة رئيسية" Hauptschule.

**) يدل السكن في بنايات عالية على فقر الساكنين. يسكن الأغنياء عادة في بيوت مؤلفة من طابق واحد. والمدرسة "مختلطة" بمعنى أنها تحوي بآن واحد تلاميذ جيدي التحصيل وآخرين ليسوا كذلك.

جعّدت المعلمة أنفها كما تفعل في الدرس عندما تسمع إجابة لا تعجبها.

«صحيح أن مدرسة لندنبرغ تقع في مركز الحي، لكنها لا تناسب تلميذاً مثلك».

نظر إليها جمال متسائلاً.»أود أن أتكلم مع والديك قبل أن يسجلاك هناك».

نظر إليها جمال بعينين مفتوحتين من الخوف، ولم ينبس ببنت شفة. لو قال لوالديه أن المعلمة تريد أن تكلمهما فسيظنان أنه أساء السلوك وهو ما لم يكن يريده.

وضعت السيدة كونتس بول يدها على ذراعه مطمئنة: «لا تخف. فقط أريد أن أراهما وأتحدث معهما حول ذلك الموضوع». حدّق جمال في الأرض وفكر بعمق: ماذا يقول!

«لا أعرف إن كان عندهما وقت». أجاب متهرباً.

«بالتأكيد سيجدان ربع ساعة من الوقت. يكفي أيضاً أن يأتي واحد منهما، أبوك أو أمك، لوحده».

كاد جمال يضحك. السيدة كونتس بول لا تعلم. ما كانت أمه في حال من الأحوال لتذهب وحدها إلى المدرسة. حتى إلى السوق كانت تصطحب زوجها أو واحداً من أولادها لأنها كانت تخاف أن تضطر إلى التكلم بالألمانية ثم لا تفهم ما يقال لها بشكل كاف. ضيّقت المعلمة عينيها وهي تنظر إليه بتركيز ثم كتبت على ورقة صغيرة شيئاً وقالت: «خذ! عادة لا أعطي رقم هاتفي إلى أحد، ولكن ربما كان من الأسهل أن يتكلما معي بالهاتف» وأعطته الورقة الصغيرة. أخذها ودسها في جيب بنطاله.

عندما رجع جمال إلى البيت فتحت له أخته أميرة التي عمرها ثلاث سنوات الباب.

«أين أمي»؟ سأل وهو يبحث بعينيه يميناً وشمالاً.

أشارت أميرة إلى المطبخ: «ما زالت تطبخ، لأن عمي سليمان وامرأة عمي نورية سيأتيان غداً».

بالضبط! كيف أمكنه أن ينسى ذلك! منذ أسابيع لا يتكلم والداه إلا عن هذا الموضوع! كان عمه سليمان، شقيق والده، سيأتي إليهم في زيارة من سوريا مع زوجته وأولاده.

مد جمال رأسه من باب المطبخ ونادى: «مرحبا ماما، أنا رجعت». كانت أمه تعجن. لم تكد تنظر إليه: «اجلس مع أبيك في الغرفة. سيأتي الأكل قريباً».

أغلق الباب من جديد. لا بد أنها مشغولة جداً، بدليل أنها لم تلاحظ أنه عاد إلى البيت متأخراً كثيراً.

كان أبوه كالعادة يجلس في الغرفة متسمراً يتابع القناة السورية. منذ أن بدأت الاضطرابات

السياسية في سوريا صار يجلس بلا انقطاع هنا كما لو كان يستطيع بمتابعة التلفاز وحدها التأثير في الأحداث.

حتى جمال كان يفهم شيئاً من السبب في فعل والده هذا، إذ أن والديه في نهاية الأمر قادمان من سوريا ومعظم الأقارب لا زالوا يعيشون هناك. كل ما كان يعرفه أن أباه أجبر على ترك البلد منذ سنين عديدة ولم يكن يحب الكلام في ذلك، ولهذا كانت معلومات جمال قليلة عن تلك الحقبة من حياة أبيه.

مع ذلك كان جمال يفضل لو استطاع أن يشاهد القنوات الألمانية التي كان زملاؤه في الصف يحكون كثيراً عنها. لكن هذا لم يكن ممكناً. كان أبوه مصراً على أن الوطن هو الأهم.

لكن جمال كان يرى أن سوريا بعيدة جداً وعائلته في نهاية الأمر تعيش في ألمانيا. لقد ولد هنا وطيلة حياته لم يعش في أي مكان آخر.

وجلس بجانب أبيه على الأريكة وشاهد لبعض الوقت البرنامج العربي. لم يبد على أبيه أنه لاحظ وجوده. استمر يحدق في الشاشة ويعلق من حين لآخر تعليقات غاضبة على ما يراه.

أما جمال فكان لزاماً عليه أن يفكر باستمرار في الورقة الصغيرة التي كتبتها المعلمة لوالديه والتي هي في جيبه. كان يسأل نفسه متى تحين اللحظة الأنسب ليقول لوالديه إن معلمته تريد من كل بد الحديث معهما. لم يكن يعرف بالضبط ما الذي تبتغيه من ذلك.

بعد نصف ساعة دخلت والدته تحمل الطعام ووضعت صينية كبيرة على الطاولة أمام الأريكة وجلبت أختاه الأصغر منه أدوات المائدة. كانت هناك «مقلوبة»(*): أرز ودجاج وقرنبيط، أكلته المفضلة.

سأل جمال نفسه إن كانت اللحظة المناسبة جاءت لإخراج الورقة من جيبه أثناء الطعام، لكنه لم يستطع تنفيذ هذه الفكرة فقد تكلمت راضية طويلاً عن رحلتها إلى حديقة الحيوان مع الروضة، وأسهبت أميرة في وصف مشاجرتها مع صديقتها ليزا في باحة المدرسة، وأثناء ذلك كانت أمه تذهب كثيراً إلى المطبخ وكان أبوه لا زال غير منتبه إلا إلى ما في التلفاز.

ترك جمال أختيه تتكلمان وكان في الحقيقة سعيداً لكونه كان مضطراً لتعليق تنفيذ فكرته وتأجيل مهمة تسليم والديه الورقة إلى وقت لاحق.

كان عليه إذن أن ينتظر حتى تجيء لحظة مناسبة.

---

*) "المقلوبة" هي طبخة مشهورة من طبخات بلاد الشام. وتتألف عادة من أرز وباذنجان أوقرنبيط ولحم وقد يكون فيها مكونات أخرى.

-٢-

«هيه! هل تأتي معي؟». سأله فيليب وهما في طريقهما إلى المنزل. «أنا ذاهب إلى متجر game center لألعاب الكمبيوتر وسأشتري اللعبة الجديدة Need for Speed".

وقف جمال وحدق فيه مندهشاً: "أتقصد أنها جديدة تماماً؟".

أومأ فيليب برأسه مبتهجاً: "اليوم فقط نزلت اللعبة إلى السوق. هل تراهن أني سأكون الأول في كل المدرسة الذي يحصل عليها؟".

- "هذا وارد".

- "ماذا إذن؟ هل تأتي معي؟". شده فيليب من كتفه.

-"طبعاً". أجاب هذا وعجّل خطاه.

هو لن يستطيع شراء مثل هذه الألعاب حتى ينهي المدرسة ويذهب للعمل، فهو لا يأخذ حتى مصروفاً يومياً.

لقد كان أمراً مزعجاً له دوماً أن يتكلم زملاؤه في الصف عن مقدار النقود التي يحصلون عليها من أهلهم كل شهر. في مناسبات أخرى كان يحاول أيضاً أن يتملص من الأحاديث التي تشرح ظروف حياته المنزلية. لقد كان مختلفاً جداً عن زملائه ولم يكن يريد أن يسخروا منه. غالباً كان في هذه اللحظات يغادر المكان إلى دورة المياه الأمر الذي جلب له سريعاً لقب "ملك دورة المياه"، وكان هذا بالنسبة إليه أقل سوءاً من أن يعلم رفاق صفه أنه لم يكن ألمانياً وطبيعياً بالقدر الذي كان يظهره لهم. كان فيليب الوحيد الذي أخبره مرة أنهم في البيت يتكلمون العربية.

تقافز فيليب بحبور قاصاً ما جرى: "لم تكن أمي تريد أن أشتري لعبة أخرى، فهي ترى أنني على كل حال ألعب أكثر من اللازم. لكن أبي أعطاني اليوم صباحاً عشرين يورو إضافية". أضاف بفخر.

"رائع". أجاب جمال دون أي شعور بالحسد وتوجه إلى باب المتجر.

بعد قليل كان الصبيّان قد رجعا إلى الرصيف. كان فيليب يحمل حقيبة صغيرة ويهزها مبتهجاً إلى الأمام وإلى الوراء.

"أيمكن أن نجربها معاً فيما بعد؟". سأل جمال.

كان الولدان في الفترة الأخيرة قد التقيا من وقت لآخر بعد الظهر عند فيليب ولعبا بألعاب الكمبيوتر، وكان جمال متشوقاً لتجربة اللعبة الجديدة بقدر تشوق فيليب على الأقل.

"هذا غير ممكن". غضّن فيليب وجهه آسفاً. "خالتي ستزورنا اليوم" لكن ملامح من المكر ظهرت على وجهه: "لكني سأقول لأمي إن عليّ إعداد وظيفة رياضيات، بهذا لن يكون لزاماً أن أظل موجوداً، وسأتمكن من تجريب اللعبة. تستطيع أن تأتي إليّ غداً وعندها أكون عرفت كيف تسير".

هز جمال رأسه: "لا...غداً سيزورنا أناس".

"إذن بعد غد".

لم يرد جمال بشيء. إن عمه مع عائلته سيمكثون بضعة أسابيع، وفي هذا الوقت سيكون عليه أن يعتني بأبناء عمه، لكنه لم يكن يريد أن يخبر فيليب بذلك.

عند شجرة الكستناء العتيقة افترقت طريقا الصبيين: انحرف فيليب يميناً إلى "درب الكستناء" التي تقع فيها البيوت التي تسكن كلاً منها عائلة واحدة بينما سار جمال في طريق مستقيم قاطعاً مسافة أكبر حتى بلغ شارع "شيرم آليه" الكبير الذي فيه تمر السيارات بكثافة وحيث تتجاور فيه البنايات العالية.

أمام باب البناية التي يسكن فيها جمال قبع كالعادة ميهميد وشلته.(*) منذ أن أنهوا دراستهم في المدرسة صاروا يقضون هنا الكثير من أوقاتهم. بعضهم ما كان يرغب في العمل والبعض الآخر توقف محبطاً في وقت ما عن محاولة إيجاد مكان للتعليم المهني."هيه! أيها الصغير! اركض! مامتك تنتظرك". نادوه من بعيد. حاول جمال أن يمر من جانبهم ويبتعد باسرع ما يمكنه عنهم وتنفس الصعداء حين رأى "الروسي" الساكن في الطابق الثالث يخرج من باب البناية. ودخل جمال من الباب بسرعة البرق.

من الخارج سمع ضحك الفتية المكتوم وسمع صوت "داني": "هيه يا توفاريش(**) هل سترجع إلى روسيا الأم أم ستعود فوراً"؟

قهقه الآخرون للنكتة.

كان المصعد مرة أخرى قد تعطل فصعد جمال إلى الطابق الخامس على الدرج.

كانت أمه تنتظره وراء الباب الذي فتحت إحدى درفتيه. "يا حبيبي لقد تأخرت" حيته بنبرة لوم خفيفة.

---

*) كما يرى القارئ اسم "ميهميد" هو المقابل التركي لاسم "محمد". والجالية التركية كما هو معلوم هي الأكبر بين الجاليات الأجنبية في ألمانيا ومن المعتاد أن يسكن الأجانب (مثلاً العرب والأتراك) في البنايات نفسها كما هو الحال هنا.

**) "توفاريش" نعمي بالروسية "رفيق".

لقد انتبهت إليه اليوم إذن. "كان عليّ أن أساعد فيليب" أجاب جمال. صحيح أن هذا لم يتطابق مع الواقع لكنه لم يكن كذباً.

"أنت تتكلم عن فيليب كثيراً. ادعه مع والديه لزيارتنا".

نظر جمال إلى أمه مندهشاً. لم تقل شيئاً كهذا من قبل قط.

وهز رأسه: "والداه يعملان طوال النهار، من المؤكد أنه ليس عندهما وقت".

علاوة على ذلك سيمل فيليب عنده مللاً كبيراً لأن جمال لم يكن عنده ألعاب كمبيوتر، بل لم يكن عنده حتى كمبيوتر.

"لكنه صديقك، أليس هذا صحيحاً"؟

هز جمال منكبيه. "هذا صحيح بمعنى معيّن"

كان هذا صحيحاً. كانا يجلسان في المدرسة إلى جانب بعضهما، وكانا يظلان في الفرصة معاً أيضاً وأحياناً كانا يلعبان بعد الظهر بألعاب الكمبيوتر عند فيليب. مع ذلك كان جمال يجد دعوته فكرة غريبة وخصوصاً إن كانت الدعوة موجهة لوالديه أيضاً. لربما كان الناس في سوريا يفعلون هذا أما هنا فلا.

فجأة تذكر من جديد ورقة السيدة كونتس بول التي لا زالت مدسوسة في جيب بنطاله. لربما كانت الآن اللحظة المناسبة لإخراجها. دس يده في جيبه وأمسك بها لكن جرس الباب دق.

-٣-

جاءت أم جمال إلى غرفة المعيشة راكضة.

"يا حسين" نادت منفعلة. هل سمعت؟ أخوك قادم".

عاد جمال فسحب يده من جيبه مستغرباً لماذا كانت متأكدة أنها الزيارة المنتظرة، مع أن المفروض أن موعدها المساء، لكن لعل الموعد تغير دون أن يعلم.

ركضت الأم إلى غرفة النوم حيث كانت شقيقتاه تجلسان على الأرض وتلعبان الورق. غرفة الأولاد التي كان الإخوة يتقاسمونها من قبل ستقوم في الأسابيع القادمة بمهمة غرفة ضيوف.

يلّا يلّلا(*)..."تعالوا وسلموا على أقاربكم".

أبعدت البنتين إلى الممر وربطت حول رأسها بسرعة أجمل منديل عندها.

كان أبوه قد ذهب أمام الباب وانتظر في الممر، ووقف جمال وراءه وسمع خطوات تقترب

*) "يلّا يلّا" بالعربية في الأصل.

ولكن كأن الصوت كان لشخص واحد يصعد الدرج. لعل العم سليمان جاء وحده وظلت بقية العائلة تحت مع الحقائب.

كلما اقتربت الخطوات ازداد انفعال أم جمال. سوّت ثوبي البنتين وثبتت ضفائرهما بالملاقط، وعادت للتأكد مما إذا كان منديلها أيضاً في وضع صحيح. اقتربت الخطوات أكثر.

لكن من ظهر من الزاوية لم يكن العم سليمان بل كانت السيدة كونتس بول.

انتاب جمال الرعب وشحب وجهه. نخزت أميرة ذراعه برفق ونظرت إليه متسائلة.

"نهاراً سعيداً". تقدمت المعلمة في اتجاه أبي جمال ومدت يدها محيية: "لا بد أنك السيد حلبي". صافحها أبو جمال ولكنه ترك يدها فوراً، ونظر إلى المرأة التي تقف أمامه بريبة. لم يكن يعرف من هي وماذا تريد منه.

"نعم... والآن" أخرجت نفسها من الموقف وضحكت مرتبكة ونظرت حولها: "آه... مرحباً جمال".

"مرحبا سيدة كونتس بول". أجاب جمال بصوت فائق الغرابة. وقلب أبوه نظرة صارمة متسائلة بين المرأة الغريبة وابنه.

"هذه مربية الصف" أوضح جمال وقد فقد صوته الرنين. لا زال الرعب يملؤه.

"آه... معلمة... ادخل"(*) تدخلت أم جمال الآن. فتحت الباب كله وأشارت بيدها إليها لتدخل. نظرت السيدة كونتس بول بتساؤل إلى أبي جمال لكنه الآن كان أيضاً يشير بيده داعياً إلى الدخول إلى الشقة.

وما كادت تدخل الشقة حتى دوى صوت راضية مستاء: "يجب أن تخلعي الحذاء"! "ششش..." نهرها جمال ولكن السيدة كونتس بول كانت قد خلعت حذاءها بالفعل ووضعته على الشريط القماشي.

فتحت الأم باب غرفة المعيشة: "ادخل... ادخل..." ومهّدت بيدها الوسائد ودعتها لأفضل مكان على الأريكة ثم هرعت إلى المطبخ مسرعة.

جلست السيدة كونتس بول ووضعت مترددة حقيبة اليد على ركبتها. وخفض الأب من صوت التلفاز وجلس أيضاً، وظل جمال وشقيقتاه عند الباب.

ما الذي تريده معلمة الصف بالضبط من مجيئها إلى هنا؟ أكانت حقاً تنتظر أن والديه سيهاتفانها على الفور؟

*) تتكلم أم جمال في الأصل بلكنة أجنبية تنبئ عن عدم إتقانها اللغة الألمانية.

ودس يده في جيب البنطال، صار يحس الورقة في هذه الأثناء وكأنها متوقدة ناراً بين أصابعه. لم لم يعطها فوراً لوالديه بالأمس حين عاد إلى المنزل؟ عندها سيكون لديهما على الأقل فكرة عن الموضوع.

جالت المعلمة بنظرها في الغرفة. "بيتكم لطيف".

هز أبو جمال رأسه وتطلع إليها في هيئة المنتظر.

ساد صمت محرج إلى أن عادت الأم من المطبخ تحمل صينية. لقد جلبت شاياً وصحناً كبيراً من البقلاوة.

"اجلس" قالت الأم بحدة لجمال مشيرة إلى الأريكة. وذهب باحثاً عن أبعد مكان ممكن عن السيدة كونتس بول، وجلست شقيقتاه إلى جانبه ناظرتين بفضول إلى الزائرة غير المنتظرة.

ملأت الأم ثلاثة فناجين شاي وفي كل منها وضعت كمية سخية من العسل وقدمت الفنجان الأول للمعلمة عارضة عليها في الوقت نفسه ما خبرته: "عسل جيد في الشاي" قالت موضحة.

تنهد جمال: لم يسمع أمه قط تتكلم كل هذا القدر باللغة الألمانية.

"و... و..." أجهدت نفسها في التفكير "ميرمية أيضاً" ونظرت إلى جمال متسائلة فترجم بسرعة: "Salbei".

أخذت السيدة كونتس بول جرعة وقالت: "هم... الشاي لذيذ جداً".

ووضعت الفنجان وأخذت تتجول بنظرها بين الأب والأم جيئة وذهاباً. "لا شك أنكم تتساءلون عما أفعله هنا. والآن: الأمر يتعلق طبعاً بجمال".

وتوقفت عن الحديث برهة تماماً كما تفعل في المدرسة عندما تريد أن يصغي الجميع إليها باهتمام. "إنني مهتمة بالحديث معكم عن خطوته التالية في الدراسة".

تساءل جمال بينه وبين نفسه لم هو هذا الأمر بالنسبة إليها مهم إلى درجة أنها جاءت بسببه بنفسها إلى منزله.

نفخ الأب بامتعاض: "جمال سيذهب إلى مدرسة لندنبرغ"، قال موضحاً وقد شبك ساعديه على صدره. "كل الساكنين هنا يذهبون إلى تلك المدرسة".

"هذا هو الموضوع بالضبط " أجابت السيدة كونتس بول ووضعت حقيبة اليد على الأرض وانتقلت إلى حافة الأريكة. "إن مدرسة لندنبرغ هي مدرسة..." وترددت في الكلام: "كيف أقول... إنها مدرسة فيها تلاميذ صعبون جداً جداً".

كان جمال يعرف بالضبط ما تعنيه. ميهميد ومجموعته من اليافعين كانوا في مدرسة لندنبرغ أيضاً. بعضهم كانوا يتباهون على الدوام كيف هربوا من الدرس ولا عجب أنهم لم يختموا الدراسة والآن لا يجدون عملاً.

"إنها ليست المدرسة المناسبة لجمال" تابعت السيدة كونتس بول حديثها. "عليه أن يذهب إلى الغمنازيوم ويحصل على الأبيتور، لأني أرى في ابنكم تلميذاً ذا موهبة كبيرة"(*).

هذا هو الموضوع إذن. فكر جمال وجال بنظره بين أبيه والمعلمة. إنه يحسد زملاءه الألمان الذين سيذهبون كلهم تقريباً إلى الغمنازيوم، لأنه يعلم أن المرء هناك يتعلم أكثر بكثير.

طقطق أبوه بلسانه باحتقار: "وما الداعي لذلك؟ جمال سيذهب إلى المدرسة فقط طالما كان ذلك ضرورياً وبعد ذلك سيذهب للعمل".

وهزت الأم الآن برأسها باندفاع: "نعم. الزوج يتقاضى قليلاً. نحن عائلة كبيرة. الأولاد يكلفون غالياً".

نقر أبو جمال على ساقه بأصابعه: "إن ابني يعرف ما هي مهمته".

ضغطت المعلمة شفتيها على بعضهما بحيث تحولتا إلى خط نحيل وتنهدت: "سيد حلبي، ليس لدي شك أنك أوضحت له هذا، ولكن هل فكرت أيضاً أن جمال بشهادة "المدرسة الرئيسية" من الصعب أن يجد عملاً"؟

ونظرت إليه قليلاً بصمت ثم تابعت: "لو تركته يختم دراسة الأبيتور ستتضاعف فرصه حتى لو لم يتابع الدراسة بعد ذلك". وشبكت أصابعها بقوة حتى برز بياض مفاصل أصابعها وصمتت مرة أخرى.

بعد هذا نظرت إلى جمال: "ألن تكون مسروراً إن ذهبت إلى الغمنازيوم"؟ قالت له بابتسامة ودودة.

وما كان يستطيع أن يتخيل شيئاً أجمل من ذلك، لأن التعلم يمتعه كثيراً، ولكنه كان يعرف تماماً كم ينتظر والداه ذلك اليوم الذي يصبح فيه أخيراً كبيراً كفاية ليستطيع تحصيل نقود ومساعدتهما.

ما الذي عليه أن يقوله الآن؟ هز كتفيه بعجز ونظر إلى الأرض.

مدت السيدة كونتس بول يدها إلى حقيبتها: "والآن هذا جيد. تستطيعون معاً أن تتكلموا حول الموضوع مرة أخرى وعلى ما أفترض أعطاكم جمال رقم هاتفي".

---

*) انظر الهامش رقم 1.

"إيه..." احمرّ جمال وانعقد لسانه. وهنا قفزت أمه وأشرت بيدها إلى الباب: "نعم... نعم... معي رقم هاتف في مطبخ".

تنفس جمال الصعداء. لقد أنقذته أمه. صحيح أنها تعني على الأغلب قائمة طلاب الصف لكن هذا الآن سيان.

"جيد. إذن اتصلوا ببساطة بي عندما تتخذون قراراً".

نهضت المعلمة وذهبت إلى الباب وارتدت حذاءها مرة أخرى وقالت بعد هذا: "شكراً جزيلاً على الشاي اللذيذ والبقلاوة سيدة حلبي".

هزت أم جمال رأسها ضاحكة: "اسمي ليس حلبي. فقط زوج وأولاد. أنا سيدة شوري".

"هكذا؟" قطبت السيدة كونتس بول جبينها مندهشة.

"عندنا تحتفظ الزوجة بعد الزواج باسم العائلة" أوضح أبو جمال. "إنها... كيف يقولون... متحررة".

"لم أكن أعرف ذلك حتى الآن بالمرة" مدت السيدة كونتس بول يدها مصافحة والدي جمال: "إلى اللقاء. سيد حلبي وسيدة شوري، لقد أسعدني كثيراً أن أتعرف إلى عائلتكم".

-٤-

ما كادت المعلمة تذهب حتى عاد والد جمال إلى غرفة المعيشة ورفع صوت التلفاز من جديد. رفعت الأم الصحون صامتة وذهبت بها إلى المطبخ. ذهبت الأختان إلى غرفة النوم وعادتا إلى لعب الورق، وتبعهما جمال وألقى نفسه على فراشه وتناول الكتاب عن علم الفلك الذي استعاره من مكتبة المدرسة وبدأ في القراءة ولكن أفكاره كانت تعود وتجمح بعيداً. إذن تريد السيدة كونتس بول من كل بد أن يذهب إلى الغمنازيوم. لقد كان التعلم يمتعه وبالتأكيد ما كان ليصادف مصاعب في الغمنازيوم. إن فيليب سيذهب بعد انتهاء الصيف هناك أيضاً وكان جمال سيسره أن يظل معه في صف واحد. لكنّ أبويه لن يوافقا على ذلك قط. في نهاية الأمر كان يعلم أن النقود التي يتقاضاها أبوه من عمله حارساً ليلياً أقل من أن تكفي العائلة. وفوق هذا كان يظن أن أن أمه ستنجب قريباً طفلاً آخر وعندها سيكون من الملح أكثر أن يساعد العائلة بما أنه الابن الأكبر.

"ما هو الغمنازيوم"؟ سمع راضية تسأل فجأة. كانت قد بلغت الرابعة للتو لكنها دائماً كانت تحاول أن تفهم بدقة كل شيء وعلى الدوام كانت تطرح أسئلة.

"هذا يعني غمنازيوم" أوضح جمال بصبر. "وهي مدرسة يذهب إليها الأولاد الأذكياء على

وجه الخصوص الذين يريدون بعد ذلك أن يصبحوا أطباء أو مهندسين". ونظرت إليه برأس مائل مفكرة: "وهل تريد أيضاً أن تصبح هكذا"؟

"ربما". أجاب جمال متململاً وهز كتفيه.

وبدت راضية مكتفية بهذا الجواب لأنها عادت من جديد إلى لعب الورق.

بعد ساعتين دق جرس الباب من جديد، وهذه المرة جاء العم سليمان فعلاً مع زوجته وأولاده.

ذرفت أم جمال دموع الفرح حينما عانقت الخالة نورية. كانتا بنتي عم ولم تريا بعضهما منذ سنين عديدة، وعلى وجه أبيه أيضاً ظن جمال أنه رأى علامات التأثر.

بدا العم سليمان مختلفاً تماماً عن أبيه الذي سمن مع مر السنين وظهرت تجاعيد الهم على وجهه المستدير. كان العم أطول بمقدار رأس كامل ونحيلاً مثل رياضي وكانت ثمة تغضّنات مرحة كثيرة على وجهه.

"يا جمال" حيّى الآن ابن أخيه مبتهجاً. "لقد أصبحت فتى كبيراً وصرت تشرف اسمك. انظر. هذا ابني عثمان وعمره أيضاً عشر سنين مثلك، وهذان هنا أخوه عدنان وأخته تميمة".

وذهبت المرأتان مع الفتيات بعد قليل إلى المطبخ وتبع الصبيان الثلاثة الأبوين إلى غرفة المعيشة.

وفي وقت قصير كان الرجلان غارقين في الحديث، تبادل أخبار الأصدقاء والأقارب وأبو جمال طرح كثيراً من الأسئلة عن الوضع السياسي الراهن في سوريا، وكان عند العم سليمان جواب عليها جميعها، ولكن جمال أخذ انطباعاً أنه يهتم أقل بكثير من أبيه بالسياسة. ذلك حيّره لأن عمه في نهاية الأمر هو من يعيش هناك.

عثمان وعدنان ابنا عمه كانا خجولين كثيراً ولم يجيبا على أسئلته إلا بكلمة واحدة قصيرة. الأسابيع القادمة يمكن أن تصبح مسلية مع مملين مثل هذين، فكر ثم تنفس الصعداء حين خفف عنه الهم ظهور أمه وخالته أخيراً آتيتين بالطعام.

وتكرر دخولهما بصحون وصواني جديدة معرّمة بمآكل لذيذة. سال لعاب جمال فوراً. الآن فهم أيضاً لم كانت أمه في الأيام الماضية على هذه الدرجة من الانشغال في المطبخ. لقد كادت المائدة تنهار تحت ثقل المآكل الكثيرة التي طبختها.

-٥-

انسلّ جمال من باب غرفة النوم وارتمى على فراشه. أحس بمتعة أن يكون لمدة قصيرة وحيداً. منذ أن جاء العم سليمان وعائلته قبل أسبوع للزيارة كانت الشقة تئز على الدوام كأنها خلية نحل.

عثمان وعدنان في هذه الأثناء ما عادا خجولين أبداً بل تحولا إلى حد ما إلى صبيين شرسين كانا غالبان ما يتجولان مزمجرين في الشقة، على أن جمال أحبهما لأنه استطاع معهما أن يلعب ألعاباً تختلف كل الاختلاف عما كان يلعبه مع شقيقتيه ولأنهما كانا مثل أبيهما ميالين إلى المزاح. وعندما كان جمال معهما يمرون بميهميد ورفاقه ليذهبوا إلى ساحة اللعب صار هؤلاء يمتنعون عن تعليقاتهم المؤذية. صار جمال يتمنى لو يكونان شقيقين له ويبقيان معه دائماً.

مع هذا كان جمال يسر عندما كان يذهب صباحاً إلى المدرسة ويترك وراءه الضجة والفوضى في الشقة بضع ساعات.

كانت أمه أولاً تأمل أنه سيبقى في البيت طيلة مدة الزيارة ولكن جمال أقنعها وأقنع أباه أيضاً أنه لا بد من أن يذهب كل يوم إلى المدرسة وإلا ذهبت مربية الصف إليهما من جديد.

منذ زيارة السيدة كونتس بول لم توجد فرصة للحديث عن اقتراحها أن يذهب إلى الغمنازيوم، وطالما في الشقة الصغيرة عشرة أشخاص كانت الفرص لذلك غير مواتية وعلاوة على ذلك كان جمال يعلم رأي أبويه في الموضوع فلم يكن هناك إذن شيء يمكن الكلام عنه. مع ذلك كان يخشى استدعاء السيدة كونتس بول له ليأتي إلى الأمام إلى طاولتها. بأي شيء كان سيجيب عندها؟

كان العم سليمان هو من افتتح فجأة حديثاً عن المدرسة. "جمال يا ابن أخي قل لي: أأنت طالب شاطر؟ أتأخذ علامات جيدة"؟ أومأ جمال برأسه في تواضع. "هذا جيد. التعليم مهم. انظر إلى ابني عثمان. إنه ذكي ولكنه كسول. وأنا أقول له دائماً: تعلم بجد لتستطيع فيما بعد أن تدرس دراسة عليا وتحصل على دخل كبير، لكنه يضحك لهذا فحسب ويفضل لعب كرة القدم".

حدق جمال بعمه مندهشاً.

"هنا في ألمانيا الكثير من المدارس الجيدة. يمكنك أن تعد نفسك سعيداً لأن لديك ابناً ذكياً مجتهداً يا أخي".

"أيوه(*)... إنه ابن جيد". وافق أبوه. "ولكن ألمانيا غالية. ليس لدينا نقود لنتركه يذهب إلى المدرسة مدة طويلة".

رفع العم سليمان يديه للدعاء وانحنى على أخيه قائلاً: "يا أخي أنت تعيش مع عائلتك في بلد جيد فيه مجالات كثيرة، وفي يوم بعيد سنعيش إن شاء الله(**) أيضاً في سوريا هكذا. دع أولادك يتعلمون مهنة جيدة فهم المستقبل".

*) "أيوه" بالعربية في الأصل.

**) "إن شاء الله" بالعربية في الأصل.

بعد ذلك توجه إلى جمال قائلاً: "اجتهد يا جمال دوماً وعندها يمكنك أن تصبح مهندساً وتعتني جيداً بأبويك".

واستجمع جمال شجاعته وقال بصوت منخفض: "في الأصل أريد أن أصبح طبيباً". ضرب العم بيده على فخذه متحمساً ثم ربّت بود على كتف أخيه: "رائع. إن فتاك يعرف الآن بالفعل ما يريد. فاطمة... نورية... أسمعتما هذا"؟ نادى بينما كانت أم جمال وزوجته تدخلان غرفة المعيشة. "جمال يريد أن يصبح طبيباً. إن الفتى يعجبني".

نظرت أم جمال إلى ابنها مندهشة: "هل هذا صحيح"؟

أومأ جمال برأسه ثم عاد ونظر إلى الأرض. "ربما لاحقاً عندما تكبر أميرة وراضية".

"عندها يكون الوقت قد تأخر". تدخلت الخالة نورية فجأة. "انظر إلى عمك سليمان. لقد كان يريد أن يصبح محامياً ولكنه بدلاً من ذلك ذهب إلى حلب بعد المدرسة ليعمل في المصنع الكبير، واليوم لا يزال هناك. أكيد أن أحوالنا ليست سيئة وقد صار رجلاً مهماً ولكنه كان يفضل أن يصبح محامياً".

"خالتك معها حق" وافقها العم سليمان. "وأنت يا أخي. ماذا كنت تريد دوماً أن تصير"؟

طقطق أبو جمال بلسانه ولوّح بيده معبراً عن الرفض.

"حسين كان سابقاً صحفياً رائعاً" قالت أم جمال بصوت خافت فرشقها زوجها بنظرة استياء.

"بالطبع" ضرب العم سليمان جبهته ضاحكاً "كيف نسيت هذا"! لقد كتبت عندما كنت في سوريا مقالات رائعة. لم توقفت عن ذلك وصرت تضيع حياتك في الحراسة الليلية؟ هنا في ألمانيا أنت حر ويمكنك أن تكتب ما تفكر فيه، لم لا تستغل ذلك"؟

وقف أبو جمال فجأة وفتح باب غرفة المعيشة بحركة سريعة" "خلص.(*) لننه الحديث". زأر غاضباً وترك الغرفة.

"بالفعل لقد كان هكذا كان سابقاً". أوضح العم سليمان دون انفعال. "الآن سيقضي بضع ساعات متأملاً ويعود ويتصرف كأن شيئاً لم يكن".

"إن شاء الله(**). نأمل ذلك". غمغمت أم جمال.

٦

بعد أسبوعين سافر العم سليمان وعائلته عائدين. وبقدر ما كان جمال مسروراً لكونه صار

*) "خلص" بالعربية في الأصل.

**) "إن شاء الله" بالعربية في الأصل.

عنده من جديد وقت وهدوء ليقرأ كان يفتقد أبناء عمه. كانوا قد صاروا أصدقاء حميمين ولعبوا كثيراً معاً. وقد افتقد أيضاً عمه سليمان الذي كان دائماً رائق المزاج بصورة لا تصدق.

أبوه صار الآن نادر الجلوس أمام التلفاز وغالباً يكون في مشاوير في الخارج. جمال ما كان يعرف ماذا يفعل ولكنه لاحظ أن أباه أحسن مزاجاً بكثير من السابق. لقد تغير شيء ما.

"يا جمال. كيف كان الأمر في المدرسة"؟ سأل هذا اليوم على الغداء. في المدة الأخيرة فعل هذا كثيراً. وعندما تعجب جمال مرة أوضح له أبوه أنه يريد أن يحاول فهم نظام الدراسة الألماني. لم يكن جمال يعرف لماذا بدأ الآن يهتم بذلك ولكنه أجاب بطيب خاطر على كل أسئلته.

"لقد أعطونا الموضوع الذي كتبناه بالألمانية وحصلت على العلامة واحد".(*) نقل جمال الخبر مفتخراً.

-"هذا جيد جداً. عن أي موضوع كتبتم"؟

- "كان علينا أن نصف يوماً من الصباح الباكر حتى المساء المتأخر".

"وأي يوم أخذت"؟ سألت راضية. "لو كنت أنا لأخذت الغد لأنني سأصنع في الروضة فانوساً".

"هراء. عليك أن تأخذي يوماً مرّ بالفعل"، صححت لها أختها الكبيرة.

لاحظ جمال أن أباه كان ينظر إليه مترقباً. وتردد لأنه كان لديه بعض الخوف أنه سيغضب من جديد، لكنه عاد فقال بسرعة: "لقد أخذت اليوم الذي تكلم فيه العم سليمان عن المدرسة والعمل".

نظر إليه الأب متفكراً. "لقد كان هذا يوماً متميزاً. هل تذكر أني ذهبت بضع ساعات"؟

أومأ جمال برأسه. كيف يمكن له أن ينسى انفجار غضب أبيه الذي كان في الأوقات الأخرى صموتاً؟

"لقد ذكرني عمك بما كنت عليه سابقاً. لم يعجبني ذلك، لكني بعد ذلك بدأت في التفكير". ودخل في صمت عميق ونظر نظرة غريبة كل الغرابة.

نظر جمال إلى أبيه بانتباه وأخذ يترقب.

"بعد هربي من سوريا ظللت مدة طويلة بلا هدف أسعى إليه. عمك ذكّرني بالأحلام التي كانت لدي سابقا". جال الأب بنظره منتقلاً من جمال إلى زوجته ثم إلى ابنه من جديد قبل أن

*) يتدرج نظام العلامات في ألمانيا من واحد إلى ستة والواحد هو أعلى درجة.

يكمل: "لقد تكلمت مع بعض الناس الذي يمكن أن يساعدوني. ثمة في المدينة هنا مكاتب لجرائد عربية ويمكن أن أعمل قريباً صحفياً إن شاء الله".(*)

ضربت أم جمال بيديها على وجهها بسعادة "نعم. الحمد لله"(**) ربما يستطيع جمال فعلاً أن يصبح طبيباً".

جمال رماها بنظرة مستغربة. إذن هي لم تنس مع أنها لم تقل ولا كلمة عن الموضوع.

منذ زيارة السيدة كونتس بول والحديث مع العم سليمان صارت أمنيات جمال أكثر من السابق بكثير. أكثر لدرجة أنه كان يسهر أحياناً ويتخيل نفسه يعمل في مستشفى كبير ويشفي الناس.

"الآن يعلم الله ماذا سيحصل". أجاب الأب. "لكني قررت أنك يا بني ستذهب إلى الغمنازيوم إن شاء الله"(***)

"صحيح"؟ بدأت عينا جمال تشعان فرحاً. أومأ أبوه راضياً. "معلمتك امرأة ذكية. لقد اتصلت البارحة مرة أخرى عندما كنت في المدرسة. لقد فكرت طويلاً في مشكلتنا واقترحت أنك يمكن أن تعمل، ماذا يسمى هذا، عملاً جانبياً وتحصل على بعض النقود، بحيث نستطيع فيما نأمل أن ندعك تذهب مدة أطول إلى المدرسة".

كان جمال يشع سعادة. ما كان يعلم أن السيدة كونتس بول تكلمت مع أبيه مرة أخرى. ولم يكن يتوقع أبداً أن أباه سيتركها تقنعه.

"الآن يمكن لي أن أقدم بالفعل مساعدة للتلاميذ في الدروس، وحين أصبح أكبر يمكن لي أن أعمل مساء". اقترح متحمساً.

لم لم يخطر له هذا على بال من قبل؟ شكراً للسيدة كونتس بول أنها بذلت جهداً لأجله. فكّر جمال بهدوء. وشكراً للعم سليمان لأنه لولاه لكان أبوه على الأغلب لا زال يجلس أمام التلفاز ولا يهتم بغير السياسة.

"حين يستطيع بابا أن يعمل صحفياً ربما تكفي النقود وعندها لن تحتاج إلى أن تعمل وتستطيع أن تركّز كلياً على دراستك". فكرت أم جمال بصوت عال.

"هذا لا يعني أيضاً أننا نستطيع تركك تكمل دراستك العليا لاحقاً لكن على الأقل تستطيع أولاً أن تكمل الأبيتور". قال الأب واضعاً متحفظاً.

---

*) "إن شاء الله" بالعربية في الأصل.

**) "الحمد لله" بالعربية في الأصل.

***) "إن شاء الله" بالعربية في الأصل.

أومأ جمال برأسه.

حتى ذلك الحين ثمة وقت طويل، ولربما انفتح طريق آخر.

-٧-

في صباح اليوم التالي انتظر جمال فيليب بنفاد صبر. "سأستطيع أيضاً الذهاب إلى الغمنازيوم" ناداه من بعيد. "عندها نستطيع أن نظل أصدقاء".

"نعم. هذا سيكون ممتازاً. لكن أنحن لا زلنا أصدقاء؟ أنت ليس عندك وقت أبداً". دمدم فيليب وضرب برجله حجراً.

"أعلم" سلّم جمال له بصحة ما قال وأحس بوخز الضمير. في الأسابيع الأخيرة لم يلعب إلا مع أبناء عمه ولم يعد أبداً يهتم بفيليب. "كان عندنا ضيوف". "أف... نحن أيضاً يأتينا ضيوف كثيراً ولكن ليس كل يوم".

فكر جمال بمقدار المعلومات التي يجب أن يحكيها لفيليب. لكنه ترك التحفظ أخيراً: "أقاربي كانوا هنا لمدة ثلاثة أسابيع. في الأصل كان والداي يريدان حتى ألا أذهب إلى المدرسة لأتمكن من اللعب مع أبناء عمي دوماً".

"حقاً"؟ نظر فيليب إلى جمال باستغراب. "أمي ترسلني إلى المدرسة دوماً حتى عندما أقول إني مريض".

"ولكنك لم تكن مريضاً أبداً".

هز فيليب كتفيه. "سيان. هل سكن أقاربكم عندكم"؟ أراد أن يعرف.

"طبعاً، الخمسة كلهم".

"عجباً. أنا أنزعج حين تأتي خالتي لتزورنا مدة ثلاثة أيام فقط". تنهد فيليب. "ألديكم إذن شقة كبيرة للغاية"؟

"لا... لكن لا بأس". أجاب جمال متململاً وطرح موضوعاً آخر للحديث. "هل نلعب في المساء بلعبتك Need for Speed"؟

هز فيليب رأسه: "لا. هذا غير ممكن. أمي أخذتها مني منذ ثلاثة أيام لأني لم ألتزم بالاتفاق أن ألعب ساعة واحدة في اليوم فقط". وحوّل وجهه. ولكن فكرة خطرة له: "لكن بإمكاني أن أجيء عندك".

تردد جمال فقط قليلاً قبل أن يجيب: "طبعاً. صحيح أننا ليس عندنا كمبيوتر في البيت

ولكن قرب بيتنا ثمة مكان لعب جيد".

"أو كي. هذا أفضل من أن أقبع وحيداً في البيت". قال فيليب هذا الرأي وهو يفتح باب المدرسة.

في فترة ما قبل الظهر هذه وضعت السيدة كونتس بول مع الصف مخطط حفلة توديع المدرسة التأسيسية(*). كل الطلاب والأهل سيجتمعون معاً للمرة الأخيرة وكلٌّ يجلب معه شيئاً للأكل. بعض التلاميذ أرادوا حتى أن يقدموا بعض الاستعراضات: أغنية أو حوارية أو قصيدة هزلية.

بعد الدرس استدعت جمال إليها في المقدمة. "اليوم تبدو مبتهجاً بصورة خاصة". لاحظت مبتسمة. "هل ثمة سبب خاص لذلك"؟ هز جمال رأسه بقوة. "ظننت أن حضرتك تعلمين. لقد سمح لي بالذهاب إلى الغمنازيوم"! ونظر إليها مشرق الوجه: "شكراً لأنك أقنعت أبي يا سيدة كونتس بول".

"أعتقد أنني فقط جعلته يفكر. يسعدني أنك لا زلت تستطيع الذهاب إلى مدرسة تناسبك". كان يبدو عليها الرضى الفائق.

"هل سيأتي والداك إذن أيضاً إلى حفلة التخرج"؟

قبل مدة وجيزة كان جمال لا زال يومئ بأدب ولكنه كان يعلم تماماً أنهما ما كانا سيجيئان. ولكن الآن ما عاد متأكداً من ذلك.

"سأسألهما". أكد لها وودعها.

على الباب ظل واقفاً قليلاً. "ربما كان بعد من الأحسن لو أن حضرتك دعوتهما"

ضحكت المعلمة "هذا ما سأفعله بسرور".

*) بالألمانية: Grundschule وهي المدرسة التي يدرس فيها التلميذ في الصفوف الأربعة الأولى.

ماهر حميد

أبو مستو العرصة

كنت أسير في أحد الأزقة قرب «باب الحديد» بحلب، ليلاً، ولم تكن الفوانيس في الشارع كلها مضاءة. وفجأة، أحسستُ بظل إنسان يترنح أمامي بطريقة غريبة. كدت أن أدوس عليه. التفتُّ إلى الشارع المجاور مستطلعاً مصدرَ الظل والخشخشة، فإذا برجل ثمل يمشي وقد عكس الفانوس البعيد ظلة المترنح، أجهد نفسه بالمشي حتى وصل بين قدمي.

بادرني: أس أس أس أسَّلام عليكم!

- وعليكم السلام.

- إش هالعالم التعبانة يا أستاذ؟ ولك إذا حدا قال لك إنه في أعرص من «أبو مستو» لا تصدقه!

- مين أبو مستو؟

- أبو مستو ما غيره.

- طيب، عرفت، ولكن أيش به أبو مستو؟

- قلت لك. هو رجل عرصة.

أحسستُ بأنني (ومن خلال خبرتي في التفاهم مع السكارى بالأخذ،

والعطاء، وتكرار الكلام، والضحك من دون سبب، وضرب الكف بالكف) أستطيع أن أخرجه من حيز هذه الفكرة، ولكنني، في المحصلة، خرجتُ بمعلومة وحيدة، وهي أن أبا مستو عرصة!

بعد ذلك تأبطنا ذراع بعضنا البعض وتابعنا المسير، فراح يتحدث عن أخيه عبدو الذي نهب ميراث أبيه، وعن زوجته بتول التي أخذت الأولاد والذَهَبات وطفشت من دون أن تقول له بخاطرك يا «محمد».. وبقينا نمشي حتى صرنا بجوار مسجد قديم فأخبرني أن جده هو من قام ببناء هذا المسجد وأنه يسكن هنا بجواره. وحلف علي أن أشرب معه كأساً من الشاي. والحقيقة أنني كنت مستمتعاً باكتشاف شخصيته فلم أتردد بالدخول.

كانت الغرفة التي يسكنها ملاصقة لحائط المسجد، ومبنية كيفما اتفق. ربما كانت قبل هذا مستودعاً أو غرفة للكراكيب، فكل ما فيها عتيق وكئيب ووسخ.

بعد أن قدم لي الشاي أخرج من تحت الفراش آلة كمان أحد أوتارها مقطوع. قال لي:

اشرب الجاي أستاذ، واسمع هالمقطوعة.

وبدأ يعزف على نحو لم أشهد مثله في حياتي. إنه أجمل ما يُمكن أن يُعزف بجوار محراب مسجد قديم.

قلت له: أنت تعزف مثل نجمي السكري بالضبط.

قال متحسراً: أخ لو عندي كمنجة مثل كمنجته يا أستاذ.

دفعني اكتشافي لمعلميته في العزف إلى أن أعنفه بالكلام، بقدر ما يسمح فارق السن بيني وبينه، على ما يفعله بحق نفسه، إهماله لنفسه والسكر إلى حدود الضياع. ثم أخرجت مبلغاً صغيراً ووضعته في يده. ولكنه رفض، وأنا ألححت عليه قائلاً:

- خذه واشتر به أوتاراً جديدة للكمنجة. لأسمع عزفك في المرة القادمة بشكل أفضل. وضحكت وقلت ممازحاً: حتى تبطل تحط الحق على الوتر المقطوع.

أخذ المبلغ على مضض، ووعدني خيراً.

وبعد حوالي خمسة عشر عاماً...

كنت أشتري بعض المستلزمات من محل تجاري، وكان هو يشتري. عندما شاهدني ترك ما في يده واندفع نحوي يصافحني ويقبل رأسي بحرارة ويقول:

- أشو يا خاي؟ كأنك ما عرفتني. لك أنا محمد... يلي شفتني مرة بباب الحديد.

اقترحت عليه أن نتمم شراء حاجياتنا ونجلس في المقهى المجاور. وافق بحماس كبير، وحاول

أن يدفع فاتورتي، ولكنني لم أقبل.

قال لي بعد ما جلسنا في المقهى:

- أنت لك فضل كبير علي. بتتذكر المصاري يلي عطيتني اياهم؟ رحت ثاني يوم إلى الخمارة، حتى أشرب كاس، ما لقيت في خلقتي غير أبو مستو. الله وكيلك انسدت نفسي، وخرجت. واشتريت بالمصاري أوتار للكمنجة. ركبت الأوتار، ودوزنتها، وعزفت...

- تميت أعزف يا أستاذ لحتى روقت، وحملت حالي ودخلت جامع جدي، وأخذت مصحف وبديت أقرا فيه حتى صاح المؤذن لصلاة الفجر... الله أكبر. وربنا هداني يا أستاذ. الله وكيلك ما شربت نقطة عرق من يومها. واشتريت مصحف جديد لحالي، صار عندي كمنجة ومصحف. وعم بشتغل هلق، والله فتح عليّ... واستأجرت بيت غير هداكا، ودهنته. أنا دهان موبيلا بعجبك، ما بشتغل غير الشغل المدلل، وحياتك ما عم لحق شغل.

سررت لحاله، وسررت أكثر بأنه استطاع أن يدوزن نفسه. وتمنيت له الخير وودعته. وقبل أن أخرج من الباب سألته: صحيح ما قلتلي؛ كيفه أبو مستو؟

فاكفهرّ وجهه وقال: يلعن أبو يلّي نفضه، واحد عرصة ابن ستين عرصة!

محمد فطومي

النّاعورة والحجر الأملس

"سليمان عمّي"، وليس العكس...

فإمّا أنّك تعرفه بكنيته تلك على شاكلتها المقلوبة، وإمّا أنّك لا تعرفه البتّة.

أمّا الأطفال؛ مريدوه الأكثر نفرا وإخلاصا، فلم تكن تشغلهم معرفة اسم هذا الكهل الضّخم، ذي الشّاربين الرّماديّين والملامح العصبيّة الوديعة في آن. ولو اضطرّوا، فسينادونه عمّي ككلّ الغرباء الطيّبين. عامل الموانىء السّابق هذا، وتاجر الخردة المحنّك الذي يعرف جيّدا كيف تُلتهم الحافلات الحكوميّة وشاحنات المقاولين حتّى العظم، ينتهي به المطاف حلقة هي الأكثر توهّجا في عقد المسرّات كلّما نشبت فرحة في المدينة. كان الأطفال فيما بينهم يشيرون إليه مختزلين قامته الفارعة وعربته الظّريفة كجواد قصير، وهالة الإغواء والتّشويق المُحيطة بهما بعبارة وحيدة: النّاعورة.

مع ذلك كان سليمان عمّي في عيون الأطفال أكثر من مجرّد ناعورة حظّ، كان العيدَ بكلّ تفاصيله وألوانه وذكرياته وعبثه ومغامراته الجريئة وحاجتهم لإنفاق ما في جيوبهم دون ضابط. سليمان عمّي هو العيد، وهلال العيد هلاله أيضا. عرف كيف يحافظ على عرشه لسنين مديدة، فهو السّرك الذي لا يأتي والمسرح الذي لا يأتي والملاهي التي لا تأتي. لكنّه سيموت وسيُشيّع ما من شكّ، وستصلح النّاعورة في الأخير بابا لقنّ الحمام فوق السّطح، إذّاك لن يمتلك الحجر الأملس

مصيره، فربمّا طُمر في حفرة، أو انقلب حجر شوارع إلى الأبد. أمّا العيد فلا يموت وسيظلّ النّحس والسّعد يحوّمان في سماء المدينة ويتداولان تأليف حكاياتها... النّحس والسّعد هما الأبقى في النّهاية لكن هذا لا يعني أنّ أحدا لم يرغمهما على إطعام عياله مقطعا من الزّمن من قبل. بعيدا عن السرّ الكامن وراء قدرته على سرقة الاهتمام وخطف الأنظار، كان سليمان عمّي مناسبة سخيّة ليخلي الأطفال والشّباب المتحمّسون للحياة السّبيل لمارد القمار الأسير داخل صدورهم الغضّة. وليطلقوا العنان للخطر اللّطيف كي يدغدغ أبعد نقطة في مخيّلاتهم، ولينتقموا من آبائهم الملحاحين جدّا طوال الوقت في التّحقق من أنّ كلّ ملّيم في جيوبهم قد اتّخذ قناة صالحة وعاقلة، وافدا كان أم منصرفا. كان سليمان عمّي جديرا بأن يحبّه الأطفال لسبب غامض كالغيب الذي في جوف النّاعورة... ربمّا إجلالا للغيب الذي في جوف النّاعورة... لا أحد - على أيّة حال - يكره أن يمتّع نفسه بفوز ما من حين إلى آخر، بقي أن نجد من يساعدنا على إعادة النّظر فيما إذا كانت آلام الشّهوة ترتقي إلى الكيّ بالقمار أم لا. ذاك دور سليمان عمّي باستحقاق، فمن غيره يعرف كيف يعالج الأمر، صبره المهيب، وحجره الأملس المطواع الذي استطاع ترويضه كقرد عروض، سيتكفّلان بهزيمتك وامتصاص آلامك... سيكسبانك اتّزانك، ويكسبانه رزقه.

اللّعبة واحدة لا تتغيّر بحسب المبلغ المراهن عليه... يرمي سليمان عمّي الحجر الأملس فوق العجلة الدوّارة فإذا الحجر الصّغير يتقافز وينقر أرجاء الدّائرة كجرادة، ويظلّ هكذا يتلاطمه موج الأصابع الخشبيّة المتحاذية التي تغطّي سائر المساحة المستديرة. حتّى تتمكّن الذّراع البلاستيكيّة المرشوقة في خصر النّاعورة من إيقافها أخيرا. قُسمت الدّائرة إلى أربع حصص متساوية لكلّ منها لون مختلف. الأسود هو الخسران طبعا، الأحمر هو مضاعفة المبلغ، أما بقيّة الألوان فتعني أنّ العجلة تدين لك بأربع أضعاف المبلغ لو راهنت المرّة التي تليها وربحت. يد السّاحر المدرّبتين على تكرار الحركة ذاتها بدقّة متناهية أثناء اللّعبة، موكول لها أن تبقيك على مسافة من الفوز دون أن تشعر بأنّك تخسر. وحين تفرغان يسمح لها سيّدها بفسحة انفلات، فتراها تحرّك النّاعورة في الاتجاهين كما اتّفق من أجل ضجيج أكبر.

إنّه العيد... إنّه العيد دائما حين يصير لك هلال.

قبالة متنزّه مسوّر بقضبان عالية من الحديد، يقف سليمان عمّي أمام طاولته المرحة كأسد. حين يصير لك هلال تنتفي السّنة الفلكيّة فتتقارب أيّامك الأثيرة... واليوم عيد... عندما تصل البهجة ذروتها ويمتلىء المكان بالنّاس والهواء برائحة الألعاب النّاريّة سيكون سليمان عمّي محاطا بالأطفال كإبريق حوله فناجين، مطلوب من الإبريق أن يملأ الفناجين أملا في مضاعفة ملاليمهم، ويملأ درج الطّاولة بملاليمهم. سيكون على الإبريق أيضا ألا ينكسر أمام الجبابرة الّذمام الموزّعين في كلّ شبر من المدينة لتقاضي معلوم الانتصاب. كما سيكون عليه أن يجلب لابنته الزّهراء القرط الذي وعدها به، وأن يأكلوا لحم الضّأن ليومين متتاليين.

لدى اقتراب الشّباب المندفعين الساخرين من كلّ شيء على الدّوام، يغيّر سليمان عمّي القناع الذي على وجهه ليبدي على ملامحه قسوة وجدّيّة تعطف بقسماته نحو ما يدلّ على أنّه ثور جامح يستفزّهم في صميم رجولتهم ويتحدّاهم أن يركبوه. كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة لاستدراج تلك الكائنات المتمرّدة.

ثمّ إنّ أسد النّاعورة يدرك يقينا بأنّه من غير الحكمة الظّهور أمام أولياء الأطفال في مظهر رجل معتوه اختار أن يرمي بقوت عياله في فكّ المجهول، لن يُصدّقوا زعما كهذا، وستنقلب المسرّة إلى علامة منفّرة سيّئة. فالكبار هم الكبار وهم كبار لأنّهم مجهّزون باستشعار خارق يخوّل لهم أن يصدّقوا متسوّلا ويكذّبوا آخر مهما بدا حاله مثيرا للشّفقة، فكيف إذن ببهلوان قطع نقديّة كسليمان عمّي لو ادّعي أنّه يبذّر الأموال حبّا في التّبذير.

لذا كان عليه مادام تحت رقابتهم أن يحاول، مُستعينا بابتسامته العفويّة المُصطنعة وقبّعة السّعف النّسائيّة على رأسه، أن يدنو ما استطاع من منشّط احتفاليّة.

أمام المتنزّه سكوت يخيّم حول النّاعورة، بالإمكان الإحساس به وسط الضّجيج... طقس المواجهة على وشك الانطلاق... الأطفال يطوّقون العربة، القطع النقديّة تتسابق الصّعود إلى ظهر الناعورة. تستقرّ قطعة محظوظة في درج الطّاولة... تمسك يد سليمان عمّي برأس خشبيّ يتوسّط القرص الدوّار... يغيب الرّأس في قبضة الرّجل. لثانية تثبت يده على تلك الوضعيّة فيُخيّل للمراهنين أنّها يوم بأسره. تنفر عروق يده. تتصلّب عضلاته. تجتمع حبيبات عرق على جبينه. ينعقد حاجباه. تتحوّل القامة العملاقة إلى كتلة أعصاب موتورة. ثمّ في طرفة عين يفلت عقال أصابعه فتدور النّاعورة، تتمازج الألوان فلا يعود بإمكانك تمييز الأسود من الأصفر ولا تمييز النّاعورة من سليمان عمّي. عندئذ يلقي بالحجر الأملس فوق الصّحن الدوّار، ثمّ يتراجع نصف خطوة إلى الوراء بارتياح مشوب بالقلق.

المهارة هي الحظّ، ولكي تمتلك العيد بحظّه عليك أوّلا ألا تخلف موعدك معه أبدا مهما بدا لك بخيلا. ثمّ الأهمّ هو أن تفسح لنفسك حيّزا بين طيّاته. العم سليمان تدبّر الأمر جيّدا، إذ لم ينجح في ذلك وحسب، بل لقد تحوّل بمرور الوقت إلى موعد. ثمّ ها هو يفقد صفة الموعد كما لو أنّها قطرة ماء لامست سطحا ساخنا. فمنذ أصيب بالشّلل وهو يتنقّل فقط بين فراشه وبين الحمّام بواسطة كرسيّ متحرّك. خطوات كئيبة، مضجرة... لا سعد في الرّتابة ولا نحس... منذ لازم الفراش وهو يرفض الخروج في نزهة، بل ويرفض المكوث أمام منزله لبعض الوقت رغم إلحاح الزّهراء ابنته. اليوم، يوم التنظيف العام في البيت، اليوم ينقلب سافل البيت أعلاه، وعلى الشّيخ قسرا أن يخرج.

وكعادتها منذ برك في البيت، ستراكم زوجته ملابسه المغسولة كلّها فوق حبل الغسيل وتثبّتها جميعا بمشبك واحد.

خرج الكرسيّ المتحرّك، وكما توقّع لم يجد تسلية في مراقبة المارّة... لكنّ فوجا من التلاميذ استرعى انتباهه. فراح يراقب حركاتهم بذهول واضح.

كان الرّهان بينهم من يمشي أكثر خطوات على يديه. كثر هرجهم. تعالت صيحاتهم. كاد احتكاك نعالهم على الأرض يغطّي ضحك بعضهم من بعض كلّما سقط أحدهم. كان الشّيخ ساهما، شاردا يحدّق فيهم وعلى محيّاه ابتسامة بعيدة رسمت على وجهه ما يوقع في النّفس أنّه وسطهم يتشقلب ويضحك ويصارع. كان فمه نصف مفتوح. وخيط لعاب بدأ يسيل أطرف شفتيه.

فجأة أعادته من رحلته ابنته الزّهراء وهي تنقر بلطف على كتفه وبيدها كوب ماء بارد ومروحة سعف.

- أبي أين رحت؟

استعاد «سليمان عمّي» رشده ببطء.

أدار بصره ناحية الشابّة. رمقها بنظرة مبلّلة متراخية، ثمّ قال:

- اعذريني لم أشعر بوجودك ... ثمّ أعقب:

يجب أن تعذريني يا ابنتي... إنّها المرّة الأولى التي أرى فيها أطفالا.

عبير درويش

صراع على الورق

أف ... أف ... أف.

ستتوقف ...

دقات الساعة اللعينة تلك عليها أن تتوقف،

ستتوقف يوماً ما عن التوتر وعندها سيتوقف قلمي عن إيذاء الكثيرين!

لم أكن أعلم حتّى اليوم أنّني أمارسُ القتلَ على الأوراق، لم أكن أعلم أنني أستحق الضجيج لأنني من خلق الألم هنا، لأنني وبكل حقد مارستُ شعوذتي على القدر لأغيّر أحلاماً وأكتب كوابيس مؤلمة.

شفرات المروحة تدور ويدور رأسي المدجج بالأفكار، أريد التخلص من عبوديتي لكنني لا أستطيع الفكاك من قصصي وخيالاتي المرسومة في ذهني!

تضيق الأريكة على جسدي كالقبر فأشعر باختناقٍ شديد، أفتّش عن هواءٍ آخر لا يهرب مني ويختفي.

هذا اليوم سأكتب النهاية اللئيمة لروايتي، سأجعل من نزار أضحوكةً لكل من يقرأ فمنذ الصفحة الأولى ونزار يمتلك حيزاً كبيراً من الكراهية في داخلي، حاولت قتله مراراً ولم يمت.

إنه رجلٌ عنيدٌ على الأوراق، خاضَ معي الكثير من المعارك ولم يستسلم لقلمي يوماً، يتمتع بذكاء بالغ فيجعلني تائهاً بين الحروف لاكتشاف وسيلة ما لموته ....

لا أستطيع أن أتعارك معه حتى النهاية فأنا تعبت من الشر المتصاعد في سلوكه وكل محاولاتي لترويض أخلاقه باءت بالهزيمة، ليس السقوط الحتمي المفاجئ له سوى ضرب من ضروب الجنون لأنني حتماً سأسقط معه ككاتب وسينتقم من قلمي دون تردد.

أنا المذنب في هذا فقد جعلت من تركيبته النفسية إعجازاً لحلولي المنطقية ولم أترك مساحةً لرؤيتي المستقبلية عندما تضخّم غروره وتبجّح في وجهي متناسياً أنني من أتحكم بمصيره، لقد حررته من قيودي وهذا كان خطأي الأكبر!

« لم تكن سلمى تعلم بقدوم نزار إلى القرية وكانت قبلها بأيام ترى كوابيس عنه، تشاهد أحداثاً من اليقظة دون أن تدري، وهي التي استهلكت الكثير من الصبر للتخلص من آثاره المؤلمة على روحها.

كان يسيطر على كلّ شيء في القرية فكيف لها أن تواجهه وحيدة، لقد قتل أخاها وأقنع الجميع أنه بريءٌ من دمه، أجبرها على التخلي عن خطيبها سعيد وأوقع بينهما وخرج مبتسماً يستعدّ لاستقبالها بين ذراعيه بكل وقاحة.

كان انتهازياً ومراوغاً بامتياز وعليها اليوم أن تنتهي من ذلك الضلال الذي أوقعها به في سرير العبودية والخوف.

لن تضيع ثانيةً بين الافتقاد للحسم وبين رغبتها المريضة بالانتقام فبعد انتهاءِ لعبته في إفساد عقول ضحاياه أصبح نادراً ما يزور القرية، ونادراً ما يكترث لسلمى ولما تحمله في جوفها من انعكاسات مريرة للألم، إنها لا تثق بمسميات التسامح ولا حتى مبادئ الإنسانية المتراكمة في عقول الأكثرية من البشر، لم يكن أحد يعلم مقدار صراخها في سريره عندما يمتزج الحقد مع الوجع، كانت شديدة الخصوصيّة في معاناتها لذلك لم تكن تعي أنّ هذا سيجعلها ضحيّةً مجهولة الهوية في عالم نزار.

في هذا اليوم تناقل أهل القرية خبر عودته وكأنه داء الطاعون القادم من وراء الموت، كان نزار محاطاً دائماً بالجواسيس ربما لأنه يعلم حجم الخراب الذي صنعه في القرية لذلك كانت سلمى ترى في عيونه نظرة التأهب الدائمة وكثيراً ما كان يغفو في أحضانها وعيناه لا تتقابلان في الحلم...

كان من السخف لسلمى أن تفكر بدورٍ آخر للجريمة لكنها لم تعد تتمكن من ممارسة الدجل الأنثوي مرةً أخرى حتى لو كانت المرة الأخيرة، أطلقت العنان لمخيلتها الشيطانية وفجأة قررت

أن توسّع انتقامها لتتخلص من أعمق الأوجاع، رحلت بعيداً في رحلتها الشاقة مع النهاية، حيث يجلس سعيد باكياً على أخيها تارةً وعلى أنوثتها تارةً أخرى.

سعيد ذلك الحبيب المنتشي بالرجولة يقرر أن يكشف قناعه أمامها ليخيّب أحلامها دفعةً واحدة وكم من اللحظات السيئة ستبقى في الذاكرة إن لم تستخدم سعيد أداةً لدفن مرارتها وهو الذي يستحقّ تلك العقوبة العادلة.

لا أستطيع السير نحو النهاية فهي مُتعبَة ويكاد قلمي يجفّ إلهامه؟!

هل أعود لاستخدام لغتي المهجورة لأحجب أفكاراً وأشجب أخرى في ممارساتي الخبيثة مع الكتابة.

كنت أفعلها سابقاً كي لا أقع في فخ الأحداث وأتعثّر بالمفردات السيئة لكنني الآن مجبرٌ على إثارة اللياقة الأدبية كي تكتسب بعضاً من الابتكار فالحبكات التقليدية غالباً ما تتخلخل انفعالاتها فتُسقطني في براثن الرتابة وتلتهمني ....

آآآآآآه ...

الغرفة تضيق كلما ضاقت أفكاري وأشعر أنني لست وحيداً فيها ...

أستحضر وجه نزار القاسي ...

وجه سلمى المغطى باليأس والألم ...

سعيد البارد في كلّ تقاسيم وجهه ...

وجوه... ووجوه كثيرة دخلت تدريجياً إلى روايتي واحتملت معي قواعد الصعود إلى الصفحات لتشقَّ طريقها نحو الأحداث وتهوي فجأة ثم تضمحلُّ ببطء حتى تصل معي إلى النهاية التي لا أعرف حتى اللحظة كيف أرويها ولم يستحضرني لخياراتها سوى الفوضى وهل أستطيع بإرادتي الروائية إدخال المزيد من الوافدين الجدد حتى لو كانت أدوارهم لا تملك أدنى حدود المساحة؟

أشعر برغبة قوية في الهروب إلى النوم... ذلك الفعل التقليدي الدؤوب الذي أرتكبه كلّ مساء كي أتخلص من فراغي الفكري المُرهَق.

سلمى: استيقظ سيدي... أرجوك أن تستيقظ ...

نزار عاد إلى القرية وعليك أن تعلّمني طريقةً ما لقتله...

أرجوكْ ... لا تخذلني هنا ... إنها النهاية وعليّ العودة كما كنتُ في الفصل الأول.

أنا لم أكنْ سيئة صدّقني... لقد بكيتُ على موت أخي كثيراً ولم أقم بخيانةِ حبيبي سعيد يوماً.

أنتْ ... نعم أنتْ... أنتَ من جعله شخصاً بائساً بحقّي

وكيف طاوعك قلمكَ الجاحد بقلب الأحداث بهذه الطريقة المؤذية لأحلامي.؟!

أنا ...أناااااااا

... لم أكن أريدكِ هكذا لكنّ عقلي من قادني إلى تلك الأمكنة دقيني ..

قلتُ لمخيلتي أن ترحمكِ من بؤسي ككاتب لكن الطبيعة الانسانية طفتْ على الأسطر واختارت النموذج الأمثل لردّات فعلكِ فكان دوركِ منسجماً

مع الواقع القصصي ومنطقياً لي آنستي ...

سلمى... سلمى... أين اختفيت... كلميني، أنا تائهٌ وأحمق.

لم أقصد إيذاءكِ... لم أكن متعمّداً دوركِ، لقد تدفّق إلى الأوراق دون أن أدري، حاولتُ مراراً كبحَ انفعاله الموجوع والقفزَ به إلى الأمان دون الوقوع في ضروبِ الأعراف الأدبيّة.

نزار: اصمتْ ... أنتَ كاتبٌ كاذبٌ بامتياز ...

اخرج من رأس سلمى وكلّمني. لم تكن يوماً لتجرؤَ على كتابة أحداث روايتكَ دوني فأنا المحور الأهم في دوران القصّة وعليك أن تمتثلَ لرغباتي لأنّني من سيحدّدُ النهاية.

سأقتلكَ ... قسماً بقلمي سأقتلك.

لن تتمكن هذه المرة الهروبَ من قصاصي ولن تحرفني عن الواقع عندما تقترب النهاية.

مضحكْ... أنت روائيٌّ مضحك ومثيرٌ للشفقة، وكيف لروايتك أن تعرف طريقها للنشر ولم تسمح لها برخصة الخروج عن المنطق والتقليد؟

لا تستخف بي يا سيدي فأنتَ من صنعني هكذا ثمّ إنكَ لم تسرد عني ولا حتى فضيلةً واحدة، لقد صوّرتني بأبشع الصفات ومن قال لك أنني لم أحب سلمى وأنت لم تدري كم من المرات كان بيننا شيءٌ ينمو على صفحاتك البائسة.

ألمْ أقل لك أنك غبيٌّ وساذج!

كلا ...هذا مستحيل، لن أسمح لك باستفزازي فأنت مليءٌ بالتناقضات المركبة وأنا من ركّبتها لذا لن أُملّكَ نشوة النصر ولن أسمح لك بالتدخّل في لعبة القيادة، سأبقى متأهباً لطاقاتك ولكلّ محاولاتك في الهروب من مصير القلم.

سعيد: لماذا كلّ هذا التضخيم؟

دعه يا نزار يكتبنا كما يشاء فهو الكاتب وأنا لا أستطيع إيجاد مخرجٍ آخر للانتهاء من سخافة تلك الرواية...

لقد مللت ...أريد أن أرتاح من القلق والمسؤوليّة، فأنا متعبٌ منذ شهور ولم يكن يستلهم فكرةً ما لإيقاف هذه المهزلة الأدبية!

هل علينا أن نبقى هنا أكثر من ذلك؟

كلَّ ليلة تُذكّرني عيون سلمى بضعفي، وأنا لم أستطع الاستمتاع بدوري كرجل في تلك الرواية، الفكرة المتاحة حتماً ستكون جيدة للجميع وأنا لا أكترث للنتيجة إنما أريد خروجاً آمناً لكل الشخصيات.

نزار: أنت مريضٌ يا سعيد وكيف لسلمى أن تتقبّل توبتك عن الخيبة وأنت تكرّرها حدثاً تلو الآخر؟

اخرسوا جميعاً ...اصمتوا ...لن أدخل معكم في اللهو والعبث بأفكاري، ولن أكتبكم للتشهير بطرائق سلوككم فالتدوين الأمثل لتجنبكم هو الخروج عن النص، على قلمي أن يكبحَ غطرستكم وعليّ ككاتب أن أبتعد عن الاسراف اللفظي كي لا أفقد الصدق، لذا لن أستطيع التخلّص منكم بسهولة فأنا مرهقٌ منكم منذ الحرف الأول وكلّ الرخاء الأدبي المخزّن في مخيلتي كان يغيبُ عني كلما تعمّقتُ طويلاً في إنضاج تراكماتي الذهنية بكم ...

لن تفرضوا إرادتكم على سياق السرد ولن تجعلوني أضحوكة القرّاءْ ...

توقفي سلمى ....

لن يلوّثك قلمي بدماء نزار ...

سلمى لقد أحببتك أكثر من كلِّ هؤلاء المرتزقة ...

أنا جديرٌ بحبك لي على الأوراق، لن ألمسك سوى بالصمت فاعذريني إن كتبتك كالأنثى التي لا تعرف للألم سوى فعلَ الانتقام.

نزار وسعيد معاً: أنت سارقٌ ولست كاتبا!

سلمى: أشكركَ لأنك أخرجتني من ورطة الأوراق!

الغرفة تتسع مجدداً والأوراق تتناثر من يدي ...

الساعة الخامسة فجراً ولم أتمكن بعد من كتابة النهاية...؟!

01
St. 22

أوراق الشعر

كريم عبد

وجهُكِ يَلوحُ وصوتُكِ يتردّدُ في الوديان!

ماذا أُعطيكِ وأنتِ مُلكي
وماذا تعطيني وأنا الخسارة؟!

***

أحيّيكِ
بشمسٍ موشكةٍ على ثلج الحدائق
رغم إنني أخرسُ الآن خرسَ الأوراقِ
وذهولِ الأوراق
فليس ثمَّةَ بهجةٌ
حينَ تظهرينَ وتختفينَ في مرآة الليل
***
وجهُكِ يلوحُ وصوتُكِ يتردّدُ في الوديان
فأسمعُ يديكِ تتلمسان قميصي
تتلمساني بثلج الحدائق...
صوتُكِ طعمُ المشمشِ وخرير السواقي

وهيمان الطيور
بين صوتِكِ وثلجِ الحدائقِ يسقطُ
قناعٌ
خانتهُ الأعشابُ والجروح
فأسمعُ أجراسَ الليلِ في وديان الليل...
أجراسَ الندى وهسهسةَ الشوكِ وصيحةَ الشوك.
هسهسةٌ تخطفُ الروحَ من غصنِ الرمان
وبهجةِ زهرِ الرمان
.....
.....
يتلألأُ وجهُكِ في شرق المرآة
وغرب المرآة
فتهجُّ الطيور!
لكنَّني مذهولٌ
لا أعرفُ كيفَ ألمسُكِ أو أُناديك
أخرسُ...
لا أعرفُ أن أبيّنَ لك سبباً
لا أعرفُ كيف...
لا أعرف
.....
.....
القناعُ يسقطُ على الثلج
والجرحُ القديمُ يُوجعُ القناعَ
لكنني أخرسُ
لا أعرف كيف!
***
أنتِ رائعةٌ أيضاً لأنك جعلتني الآن،
الآن فقط
أعرف معنى الخرسِ.

الخرسُ وليس الصمت
وصرتُ قادراً على التفريق بينهما
وهذا لعمري ليس بالشيء القليل
ألستِ رائعةً إذن؟!
.....
.....
تهتزُّ الغيومُ تحتَ قميصي فتضطربُ مياهُ البئر
تتحركُ الأيامُ تتدافعُ مع الليالي
يهدأُ وقعُ خطاكِ
تهتزُّ الغيومُ في سماء الحديقة
فأشمُّ رائحةَ ليمونٍ في الهواء الندي
طفلةٌ تحملُ المرآةَ تُعلّقُها على شجرة
أو تضعُها خلفَ الشمس
ربما تُلقيها على الأعشاب
فتنبضُ الأيامُ والساعاتُ والدقائقُ في المرآة
تظهرُ وجوهٌ وتختفي وجوهٌ خلفَ سياجِ الحديقة
***
كيف تسقطُ الأقنعةُ والأيامُ والذكرياتُ
في بئرٍ هرمٍ
ولا تعودُ عصافيرُ الفجرِ إلى أشجارنا المُنتَظِرة؟!
روحٌ سريعةُ العطب
لا تكاد تبتهجُ بشيءٍ
حتى تجدهُ بعيداً مُنحدِراً يتلاشى
.....
.....
المرآةُ تضحكُ
المرآةُ قناعٌ آخر
قناعٌ يضيء
قناعٌ مخاتلٌ يظهرُ ويختفي كاشفاً كلَّ شيء

تسّاقط الدقائقُ والساعاتُ في ظلالي
في ظلال الحديقة
هشاشةُ الإنسان
هشاشةُ الزمنِ المكسورِ
والقناعِ الذي يضحكُ والمرآةِ المطعونة
***
تسّاقطُ
الدقائقُ
والساعاتُ
والقبلاتُ
على الأعشاب
متلاشيةً مع الفجر
آثار قبلاتي على خدّيكِ
على وجهكِ المتلألئ في بحيرة الليل
يتلألأُ العشبُ بالذكريات
تتلألأُ الأشجارُ
أتلألأُ،
تتلألأُ ظلالي
فتهربُ آلافُ الأرانبِ في البراري
***
أقفُ أمامَ الأيامِ والليالي
أرى مدينةً أخرى
أخرجُ منها مُسرعاً
لعلّيَ أجدُكَ ثانيةً عند الباب
لكنَّني ألمحُ ظلالَكِ تتلاشى...
الدقائقُ والساعاتُ تنفرط من بين يديَّ
قطراتُ ندىً مضيئةٌ تبلّلُ وجّهَكِ
كنتُ أظنُّ أنيّ قادرٌ على النسيان
حتى تعثرتُ ثانيةً وكدتُ أسقطُ

فوجدتُ نفسي أتكئُ عليك
كم أنتِ جميلةٌ
حين تطيرينَ مع العصافيرِ وهرجِ العصافير
وهي تهجُّ من المرآةِ لتختفي تحتَ قميصِكِ
آثارُ الفجرِ على نهديكِ
قبلاتي يبلّلُها الندى
متى ينتهي هذا الليلُ الطويلُ
كي أصلَكِ
كي أقرعَ أجراسَك
وأتركَها ترنُّ في أرجاء الحديقة
في ليل المدينة وفي أرجاء السموات
***
صامتاً
أطوفُ العالمَ وحدي
حدائقُ العشاقِ على رأسي
شراراتُ الوجدِ تقدحُ في قلبي
أعرفُ إنني لا أستطيعُ أن أغيّرَ شيئاً
أعرفُ إنكِ والمرآةَ تفكّران بي
أعرفُ
ولا أستطيعُ الصياح...
أغرقُ بكلِّ ثيابي وجروحي وبساتينِ العراق
في بحرٍ تتلاطم أمواجُهُ في المرآة
أصرخ كي يسمعَني الليلُ وأجراسُ الليل
آلافُ الأرانبِ تركضُ في روحي
تركض في حقولٍ مكشوفة
كأني رأيتُها في حُلمٍ
في غابةٍ وغرقتُ معها في قطرةِ ندى
آلافُ الأرانبِ تركضُ
تركضُ...

تركضُ...
لا أكادُ أصيحُ من فرحتي وأركضُ معها
حتى تدخلَ المرآةَ متقافزةً وتختفي
.....
.....
لا أستطيعُ أن أفعلَ شيئاً...
لم يعدْ يعنيني شيءٌ
أخرسُ لا يهمُّني الصمتُ ولا الكلام
متشرداً في شتاءِ ليلٍ طويل...
ما أجملَكِ حين تطلّين عليَّ فتتسعُ الحديقةُ
تُلامسُنا الظلالُ فتغمرُنا البهجةُ وجروحُ البهجة
ما أجملَكِ عاريةً تحتَ مطرٍ خفيف
ما أجملَكِ عاريةً تحيطينَ بي من جميع الجهات
***
أرفعُ يديَّ
فيتوقّفُ المطر
أخطو وحيداً
كأن لا أحدَ في الحديقة
لا أحدَ في المدينة
لا أحدَ في هذا العالم
.....
.....
ترنُّ الساعاتُ والأجراسُ والأشجارُ
في جميع الحدائق والليالي
فنعود إلى المرآة
ندخلُها ونختفي
دونَ قناعٍ أو ذكرى
دون أن نمحوَ آثارَ القبلِ المرتبكةِ على وجوهنا
دون أن نمحوَ آثارَ خطواتِنا على الأعشاب

لكنَّ حفيفَ ظلالنا سيبقى هناك
بين البيوت والذكريات
بين المرايا والطيور التي تختفي في المرايا
حتى تستيقظَ الحديقةُ وتغني الحديقة...

نادي حافظ

لا شيء أفعله هذا الصباح

(١)

يا ربي:
لمن أربّي
هذا الجسد
إذا كان لا يحط عليه طير؟

(٢)

قل لمن يلتقيك:
هناك رجلٌ مسكونٌ
منذ زمن
مرةً يتحوّل إلى حديقة
لأنه يشتاق إلى الأطفال
ومرةً إلى باص
لا يجد المحشورون فيه النَفَس
ومرةً قطة
ومرةً جَمَلْ

قلْ له:
يا ناس
اقبضوا عليه إنْ وجدتموه
قبل أنْ يتحوّل
إلى قبر

(٣)
رأسه محشو بالعفاريت
وقلبه جمارةٌ
صديقي الذي قابلني في متاهةٍ
ذاتَ حلم
فجعلتُ روحي جبّانته
كلّما اشتقت إليه
أقمتُ القيامة
وقعدتُ أتأمّلُ الصياحَ
الذي يخرجُ من بنيه.

(٤)
لا تلوموا الجدران
التي ننسى عليها: صورنا
ومعاطفنا / ووجوه أحبابنا / وأحيانا قلوبنا
إذا احدودب ظهرها
لا تلوموها
إذا لبستْ قمصاننا
وخرجتْ ذاتَ ليلةٍ
باحثةً عن البحر
لتتخلص من غبائنا
وأعمارنا التي طفحتْ
على جلدها

لا تلوموها
إذا استيقظت
عند صلاة الفجر
حزينة
ورفعت وجهها إلى السماء
وصرخت:
(يا رب زلزال)

(٥)
لستِ وحدكِ
التي تتحدثُ إليها الحوائط
ويخرّ مَنْ في البراويز
عند قدميها
كلنا كنّا كذلك
قبل أن يطردَنا مالكُ العمارة.

(٦)
إلهي
في العتمةِ لا يراني
بينما تلمعُ ساعتُهُ
في يدهِ العمياء
التي تلوّحُ
للعفاريت

(٧)
كل شيء على ما يرام:
البنتُ الحالمةُ وأرنبُها
مشتبكين
في السرير.

الضابطُ ويدهُ هابطة من السماء
على قفا مواطنه.
مدرس اللغة العربية
وكرشه ينتفخ كـ(براشوت)
كلّما تنفّس.
العانس بقميصِ نومِها البرتقالي
نائمة على وجهها
في أوّلِ الليل.
الرئيس في كرسيّه
ودخانُ سيجارهِ
يملأ سماءَ قريتين.
كل شيء على ما يرام
وهذا هو العالم
هذا النهار

(٨)
لا شيء أفعله هذا الصباح
سأكتبُ وصيتي للنمل
وأبشّرُ الصابرينَ
بفيديو كليبٍ مثير
وأغني قليلا
للذين نسوا أحلامهم في الخزانات
ومضوا مظلمين
سألعق أفكاري
سُكّرة
سُكّرة
حتى تجيء الذبابةُ الخضراءُ
بدمع جديد

(٩)
ترفعُ كأسي في أوّلِ الليل
وأرفعُ روحكَ في آخرِهِ
ألوّحُ للعابرين
وتلوّحُ
لنجمةٍ في السماء
سهرتْ للصباحِ
بحُكمِ «ورديتها» القاسية
ترفعُ كأسي هناكَ
وأرفعُ روحكَ هنا
كأننا بارعانِ
في حَمْلِ الأثقال

(١٠)
هنا
مرّتْ على شفتي الحياةُ
وطالَ ظلّي
أو مشى عني قليلاً
نحو راحتها على الأبواب
هل ظلّي يحب الدم
أم سرحتْ به جنيّةٌ
ضحكتْ على جدّي
وفرّتْ
من حكايته؟

هنا
كانت أميمةُ لا تنام
وقطها
يحكي وراءَ البابِ

(أسبابا ملفقة)
ليدخل حضنها مرحاً

هنا
الله يا هذا الـ(هنا)
ماذا دها...
لتصرّ أن تبقى
هناك؟

أوراق النقد

عبد الرحمن حلاق

«مدن اليمام» للروائية إبتسام تريسي: شخصيات بين السموّ والوضاعة

تشكل الثورة حدثاً استثنائياً في تاريخ الشعوب فهي صرخة الـ (نحن) في وجه ذاتها، هذه الصرخة التي قد لا تحدث إلا لمرة واحدة كل عدة قرون، ولا تحدث إلا ضد الظلم والفساد المستفحلين في بنية المجتمع الثائر، ولذا فهي مختلفة كلياً عن ثورات التحرر فهذه الثورات تبقى صرخة في وجه الآخر الغريب المحتل. وفي حين تبقى ثورات التحرر ذات تأثير طفيف على المجتمعات المحيطة، فإن الثورة على الذات تبقى مثالاً يحتذى على صعيد العالم وتبقى دوائر تأثيرها تموج في المحيط فترة زمنية طويلة.

وإذا كانت ثورات التحرر قد حازت على انتباه الكتاب والأدباء ردحاً من الزمن فإن الثورة على الذات تستمر أمداً أطول بكثير من حيث كونها مادة ثرية لمختلف صنوف الإبداع، وما نزال حتى يومنا هذا نجد الكثير ممن يتناولون الثورة الفرنسية بالكتابة على طول العهد بها.

على صعيد الثورة السورية نستطيع القول إنها ما تزال في بدايتها رغم مرور أربع سنوات عليها، ورغم ذلك انبرت عدة أقلام لمواكبة الحدث العظيم هذا، منها ما كان يعيش الحدث في الداخل، ومنها ما كان يعيشه وهو في الخارج. من قلب الحدث تطل علينا إبتسام تريسي بروايتها (مدن اليمام) ليس ككاتبة تراقب

ما يحدث لتكتب ولكن كامرأة تشارك في صنع ما يحدث وتعيش لحظات سموه ولحظات ألمه، وتراقب عن كثب تحولاته وانزياحاته، تحلق مع شعارات الحرية وتتألم من رصاص المستبد. ثم تقدم لنا وبأسلوب أدبي أنيق ولغة رشيقة روايتها التي تتناول من ضمن ما تتناوله فكرة استغلال المستبد لأبشع نوازع الشرّ في الإنسان ، ومقدرة المستبد على توظيف بعض القناعات الباطنية لتربية جيش من المنتفعين والقتلة يحفظ له بقاءه على كرسي الحكم، وفي المقابل يمكن أن نتلمس من خلال تطورات الخط الدرامي للأحداث عظمة شعب وهو يقاوم البطش والدمار، يقاوم محاولات المستبد لتطييف الشعب وتقسيمه، وإرغامه على الابتعاد عن كل ما هو سلمي مدني إنساني، نتلمس كذلك عظمة شعب يسعى للعيش في ظروف إنسانية سليمة لا تمت بصلة للتمايزات الدينية أو المذهبية أو العرقية.

تتوقف الرواية عند السنة الأولى من عمر الثورة السورية. بذلك يمكن القول أن الرواية ترصد بدايات تشكل الثورة خاصة في مرحلتها السلمية. عندما كانت قوات المستبد السوري تستبيح دماء المتظاهرين ونشطاء الإغاثة.

ولأن الرواية تتناول الحدث من داخله كان لابد للراوي أن يكون شخصية مشاركة في الحدث، وكي لا تقع في مطبات المباشرة والتسجيلية اعتمدت الكاتبة ثلاثة رواة لكل دوره حسب موقعه، وجميعهم مشاركون في الحدث (الأم - حنظلة - نورس) هذه الآلية أسهمت وبشكل كبير تغطية شاملة للمكان وأعطت أفضلية متقاربة للشخصيات خاصة وأن هكذا حدث لا يتضمن بطولة فردية، فالبطل هنا وفي الثورة هم الجموع، لذلك شكلت شخصيات الرواية مجموعة دوال هامة يتضمن كل منها معناه الذي يسهم ببناء معمارية النص - الحدث.

من هذا المنطلق تأتي دراسة الشخصية في مدن اليمام على جانب من الأهمية بمكان. خاصة وأن الزمن في مدن اليمام مؤطر بالحدث، والحدث وإن كان منتظماً برحلة بحث الأم عن ابنها الناشط والمعتقل فيما بعد إلا أن هذه الحكاية تتولد منها حكايات وتتناسل قصص تروي بطولة مكان قرر أن يستعيد وجهه الحقيقي الوجه المشرق لأبنائه.

لهذا كله ارتأيت أن أتناول الشخصية كونها أحد أهم مكونات العمل الروائي إذ لا يستقيم حدث دون وجود من يقوم به فعلى عاتق الشخصية الروائية تنهض الأحداث وعلى عاتقها أيضاً ينهض النص بمجمله.

بداية لن نجد في هذه الرواية شخصية رئيسة وأخرى ثانوية فالنص أقرب إلى الملحمة منه إلى الرواية الفارق أن البطل الملحمي يقود الجموع في سلسلة مواجهات الغاية النهائية منها ترسيخ القيم الأخلاقية التي ينادي بها المجموع وبالتالي فهو يعبر عن مشاعر المجموع وطموحاته في

بناء أمة، بينما نجد في مدن اليمام أن هذا المجموع لم يسلم قياده لفرد بل تولى بذاته المواجهة ما جعل الحدث الروائي فيها يقتصر على حالة صراع بين الخير والشر، صراع شعب ثائر لأجل حريته وكرامته يتصدى له المستبد بكل ما يملك من عصابات مستفيدة ومنتفعة من وجوده، يمدها بكل أسباب القوة، هذا الحدث حتم ظهور شخصيات عديدة ومتنوعة وموزعة على مساحة واسعة، وفي الوقت ذاته تتساوى إلى حد ما في الظهور، وكثير منها لا يتعدى ظهوره مساحة دور صغير في حكاية أو حدث، هذا التنوع وهذه التعددية جعل من البنى الحكائية تتناسل وتتوالى على امتداد النص الروائي، وفي معظم هذه الأحداث نرى أن الناظم بينها إما شخصية الراوي أو المكان ذاته وفي مجملها تعكس أكبر قدر من هذا الصراع بين القبح والجمال، بين الشرف والوضاعة، بين الخير والشر، وعلى وجه الخصوص بين الحرية والاستعباد.

وبغية تناول الشخصيات في مدن اليمام سأحاول الارتكاز على ما توصل إليه فيليب هامون في دراسته حول الشخصية الروائية حيث يحدد ثلاثة محاور لدراسة الشخصية تتمثل في (مدلول الشخصية. مستويات وصف الشخصية. دال الشخصية) وذلك في ضوء تحليل الشخصية الروائية: "بوصفها وحدة دلالية قابلة للتحليل والوصف أي من حيث هي دال ومدلول، وليس كمعطى قبلي وثابت"، وتتأتى وظيفتها الأدبية « حين يحتكم الناقد إلى المقاييس الثقافية والجمالية»[*]

وبناء عليه يصنف هامون الشخصية الروائية إلى ثلاث فئات: (المرجعية. الواصلة. التكرارية)

١. الشخصيات المرجعية: وهي شخصيات تحمل علامة مرجعية وإحالية (تحيل على معنى ممتلئ وثابت، حددته ثقافة ما. وباندماج هذه الشخصيات داخل ملفوظ معين، فإنها ستشتغل كإرساء مرجعي يحيل على النص الكبير للإيديولوجيا أو الثقافة. إنها ضمان لما يسميه بارت بأثر الواقعي.[**] من أهم هذه الشخصيات في مدن اليمام تأتي شخصية حنظلة الشخصية الشهيرة التي أنتجها الفنان الفلسطيني ناجي العلي، وغير خافٍ على أحد مدلول هذه الشخصية بأبعادها الثقافية والنضالية التي تتسم بأرقى سمات الكفاح السلمي إذ تعتمد الكلمة والرسم سلاحها في وجه الشرور الواقعة على الإنسان بالمطلق. وقد أضافت الكاتبة لهذه الشخصية مستويات جديدة بأن أنسنتها ومنحتها دوراً هاماً في تقصي الحقائق. تتسلل شخصية حنظلة من خلال الأوراق إلى عالم الفيس بوك وتنشئ صفحة سرية تضيف إليها شخصية الأم فقط. ومن خلال هذه الصفحة سيكمل حنظلة رواية أحداث في مناطق لا يمكن لشخصية الأم أن تتواجد فيها إنها تقنية الكاتبة في التعويض عن الراوي العليم واستبداله براوٍ مشارك في الحدث. نراه بداية في جسر الشغور ثم في حماه وبعد ذلك حمص وأخيراً في دمشق، يرصد وينقل الأحداث يسبح في

*). ص ٢٢١ نفسه

**). ص ٢٢١ نفسه

الزمن من خلال تقنية الاسترجاع فينقل لنا بعضاً مما جرى في حماه في ثمانينات القرن الماضي، ثم يعود إلى الحاضر ليعتقل ويكمل رويه بما يعيشه ويراه. كذلك تتسم هذه الشخصية ببعض سمات الشخصية التكرارية، خاصة فيما يتعلق بنقل الأخبار، وحياكة الاستدعاء والتذكير ضمن النسيج العام للرواية، وفيما يتعلق بالشخصيات التكرارية فإن (مرجعية النسق الخاص للعمل وحدها كافية لتحديد هويتها، فهذه الشخصيات تقوم داخل الملفوظ بنسج شبكة من الاستدعاء والتذكير ووظيفتها وظيفة تنظيمية وترابطية بالأساس، إنها علامات تشحذ ذاكرة القارئ)(*). يشترك حنظلة في ذلك مع الشخصية الأساس في الرواية (شخصية الأم) وفي الحديث عنها يمكن القول أن هذه الشخصية تشكل محوراً أساسياً في الرواية فمن حيث كونها مدلول تحيل إلى تلك المرأة التي لا همّ لها سوى الحفاظ على سلامة ابنها ونجاحه وتتسم بخوف دائم عليه أما من حيث مستويات الوصف فهي أيضاً شخصية مناضلة ولا تستطيع إلا أن تكون مع الجموع الثائرة على الظلم ، أما من حيث البناء الروائي فهي من تخلق خطوط الحكاية وهي الراوي الرئيس لها ومن خلالها حصراً يحضر الراوي الثاني حنظلة وكذلك الراوي الثالث نورس، إنها أشبه بمخرج درامي تأسره الأحداث وتحركه بدلاً من أن يقوم هو بتحريكها فلا يمتلك غير الإمساك بالكاميرة ليلتقط أهم ما يراه. وبدافع من قيمه الإنسانية ينخرط طواعية بالحدث العام، تبدأ الحكاية برؤيا تبعث على القلق والخوف وهي التي تخاف من أي منام تراه إذ سرعان ما يتحقق.

تجلس مع طفلها على صخرة وسط مياه الشاطئ تلاعبه ويشير إلى سمكة ملونة جميلة وهو يضحك وبلحظة تتقدم موجة هائجة تغمره ليختفي لحظات عن عينيها.

تدرك هذه الأم الآن أن طفلها الذي كبر لن يقف موقفاً حيادياً في ثورة شعب انطلقت، خاصة وأنه في سنته الجامعية الأخيرة في العاصمة دمشق حيث بدأت الأحداث تتصاعد، تماماً مثلما أنها هي أيضاً لن تستطيع الوقوف موقف المتفرج مما يحدث وهي ابنة مدينة عانت ما عانت في مطلع الثمانينات من المستبد ذاته. وإذ تسافر إلى دمشق لتلتقي بولدها تتعرف على أبي سعيد الفلسطيني الذي يهبها بعضاً من تاريخه الشخصي على شكل دفتر ومجموعة أوراق خاصة تحكي رحلة أبيه في التشرد والنزوح (حيث طلبت الأوراق بدافع فضول الكتابة فهي في الرواية ليست أماً وفقط بل كاتبة أيضاً) وتكتشف بين الأوراق رسماً لم ينشر من قبل لناجي العلي يصور فيه شخصية حنظلة.

إن شخصيات الرواية يمكن تقسيمها إلى فئتين وحسب. (الشخصيات الثائرة والشخصيات القامعة للثورة أو أدوات المستبد في القمع). فبالإضافة لشخصية الأم وشخصية حنظلة نجد الشخصيات التالية والتي تلعب دوراً بارزاً في تكوين النص الروائي:

*). ص ٢٢٣ نفسه

نور:

ويعد الاسم بداية دالاً مرجعياً يحيل إلى كل ما هو مضيء على المستوى الإنساني وهو طالب جامعي فاجأته الثورة قبيل تخرجه يحمل في داخله عذابات جده وأخواله أيام أحداث الثمانينات يعيش في مخيم اليرموك، ينشط منذ الأيام الأولى للثورة في المظاهرات السلمية وعندما يشتد القمع يتحول مع مجموعة من أصدقائه للعمل الإغاثي يعتقل أول مرة ويخرج ليعتقل ثانية، لا نرى لهذه الشخصية حضوراً مباشراً في الحدث إلا في بعض مفاصل الرواية لكننا نكتشف في رحلة أمه الثانية إلى دمشق عندما اعتقل للمرة الثانية أنه أحد الشخصيات المؤثرة والفاعلة جداً في وسطه لدرجة أن أمه أحست أن كل من في دمشق يعرفه (صرت أنتبه حتى إلى أشجار الطريق، فتقول لي همساً إنها تعرفه، وقد مر بها يوماً، ومست أصابعه لحاءها بحنان! هو هنا في كل مكان في دمشق... الأزقة والشوارع ووجوه العابرين.)[*]

يأتي هذا المقبوس على لسان أمه بعد أن تكتشف وهي في خضم العمل الإغاثي أن كل من التقتهم يعرفون نور لهذا كتبت في الإهداء (كان نوراً لي فقط، وصار نوراً لمئات الأصدقاء الأحرار... كان ابني، وأصبح ابن سوريا... ابن الشمس... يمتلكه السوريون... يستبدلون صورته بصورهم الشخصية على الفيس بوك... يكتبون عنه... يحبونه مثلي، وربما أكثر...)[**]

نورس:

من أصدقاء نور في النشاط السلمي للثورة، مخرج سينمائي (وهذه بحد ذاتها علامة مرجعية) يعتقل في المطار وهو يحاول تهريب فيلمه الذي صنعه عن الدكتاتور، يساهم بدور فعال في روي الحدث من داخل المعتقلات التي تنقل بينها بدءاً في دمشق وانتهاءً في سجن حلب المركزي، من خلاله نكتشف الدور العظيم للأم وهي تتابع قضيته مع المحامي وتزوره في السجن، كذلك يسهم نورس في ترسيخ الرؤية الفكرية للرواية من خلال البعد الإنساني الذي يطرحه.

أما باقي الشخصيات المنضوية تحت علم الثورة فتبرز الوجه المشرق لشعب قرر أن ينال حريته، هذا الوجه الذي لا يمكن وصفه بغير كلمة (سوري) حيث نجد في مجموعة العمل الإغاثي شخصيات تمثل معظم الطوائف السورية جمعهم نداء الحرية وعزز صداقتهم العمل على تأمين الكساء والغذاء والدواء لضحايا القمع الأسدي.

في الجانب الآخر تتحرك عدة شخصيات مختلفة الدوافع والأسباب لكنها تتفق جميعاً في محاربة كل من ثار على المستبد حرباً لا هوادة فيها مستخدمة أبشع صور القتل والإجرام وأبشع

*). مدن اليمام إبتسام تريسي صـ ٢٩٧

**). مدن اليمام إبتسام تريسي صـ ٧

أنواع الانحطاط الأخلاقي بعضها دفاعاً عن مكاسبه وطمعاً بالمزيد وبعضها ناجم عن إيمان عميق أوجدته تربية خاصة تخلو من أي وجود لأي وازع أخلاقي أو ديني أو فكري إنها شخصيات تمثل أدنى مستويات الوضاعة التي عرفتها البشرية، لذلك كان من البدهي أن تحارب نقيضها بلا هوادة. وسأتوقف عند شخصيتين اثنتين منهما:

ست الحسن:

شخصية معقدة منحتها الكاتبة كثافة سيكولوجية خاصة بحيث عادت بها إلى مرحلة ولادتها لأم هربت مع عشيقها وأمضت عمرها تعمل في خدمة البيوت في ظل غياب زوجها الدائم أما الأب الحقيقي لهذه الطفلة فهو من يفترض أن يكون عمها. فنحن أمام طفلة نشأت بداية في أسرة منحلة أخلاقياً ونتيجة غياب الأب وتحت ضغط الحاجة المادية فقد كانت الصغيرة تتدبر أمورها بطرق خاصة كأن تحصل على حذاء أو ثوب من بائع بعد أن تسمح له ببعض الاستمتاع بها وقد يحدث كثيراً أن يستمتع بها بائع ما ثم يطردها بلا أي مقابل، وعندما نضج جسدها بدأت تفكر بالانتقام من المجتمع كله ومن الرجال على وجه الخصوص فأنشأت علاقات مميزة مع رجال الأمن والمسؤولين وبدأت رحلة الإثراء ومع بداية الثورة نجدها في معمل السكر في جسر الشغور مع الضابط المسؤول عن قمع المتظاهرين، حيث تم اقتياد عدد من الأسيرات إلى داخل المعمل وهناك تنتقم منهن على طريقتها الخاصة ، كذلك نراها على شاشة التلفزيون السوري مع اثنتين من فصيلتها وقد تحجبن وبدأن بفبركة قصص الاغتصاب المزعومة لتشويه وجه الثوار . ست الحسن نموذج للمرأة السادية التي استعان بها المستبد كإحدى أدواته في قمع الثورة، وتزداد شراستها كلما اصطدمت بالنموذج المعاكس الذي يذكرها بوضاعة أصلها، فإحدى المعتقلات في معمل السكر عندما أحست أن هذه المرأة ستتلذذ بإهانتها وهتك عرضها وقفت وبصقت في وجهها ثم رمت بنفسها في المرجل الذي يغلي فيه ماء السكر.

(عبد السلام) الملقب بالخضر:

عندما كان يأخذ بعضاً من صيد رفاقه ويعود إلى البيت كانت جدته تقول له (شاطر ياولد، لم يخب ظني فيك، أنت أمهر من فرقاطة)[*] والفرقاطة اسم لطائر يطير فوق الماء بسرعة ولا يجيد الغوص أو التعامل مع الماء يعرف بـ»قرصان الهواء» لبراعته في خطف الفرائس التي تصطادها الطيور الأخرى.

وتمثل هذه الشخصية إحدى أقذر أدوات المستبد في قمع الثورة، إذ يؤمن عبد السلام إيماناً كلياً بأن الموت في سبيل الرئيس هو الغاية الأسمى في الوجود، حتى أنه يعنف نفسه كثيراً

*) . مدن اليمام إبتسام تريسي ص ٣٤

عندما توسوس له ولو بمجرد خاطر بغير ذلك، وبحكم تربيته المنعزلة في منطقة جبلية، وعدم تلقيه أي تعليم نراه يمتلك قدرات جسدية مميزة واندفاعاً غرائزياً غير مقيد بأي وازع على الإطلاق، لقد أسهمت هذه التربية الخاصة إضافة لما تلقاه من تعاليم أثناء خدمته العسكرية في تكوين عقيدة خاصة. تجعله يستبسل في القتال دفاعاً عنها وفي الوقت ذاته يستغرب لماذا رمت يمامة نفسها على منحدر صخري قاتل لحظة محاولته اغتصابها، لقد خلقت منه هذه العقيدة وحشاً لا يعرف غير القتل واللواطة ولا يتردد مطلقاً عن قتل طفل ثم التمتع بمؤخرته. يشترك في هذه العقيدة مع شخصية أخرى (الملازم خضر) الذي تم تكليفه بنقل البنات الأسيرات إلى معمل السكر في جسر الشغور حيث يصل الأمر عند هذا الملازم حداً جنونياً في القتل والاغتصاب لدرجة أن وقع أسير شهوة القتل فبدأ يطلق النار حتى على رفاقه الأمر الذي أدى إلى مقتله، ذلك بعد أن كان قد أوقف سيارة على الطريق العام فيها شاب وفتاة فأردى الشاب بطلقة ثم التفت إلى الفتاة فمزق ثيابها وذبحها ثم اغتصب الجثة وأكمل جنونه بأن أمسك سكيناً وبدأ يرسم بها خطوطاً على جسد الفتاة. إنه شكل من أشكال الاستذئاب الذي لم يره من قبل علماء النفس وإلا ما كانوا اقتصروه على المضطربين عقلياً، إنه خلل جيني يعيد الإنسان. عبر تربية محددة. إلى حالة ذئبية خاصة.

إذاً نحن أمام رواية تسعى جاهدة لتفكيك وتحليل هذه الرغبات الجامحة وغير المسبوقة في القتل والاغتصاب وقهر الإنسان من خلال تسليط الضوء على سلوك الشخصية تارة وعلى كثافتها السيكولوجية تارة أخرى، وبذلك تشكل هذه الرواية خطوة أولى في مقاربة هذه البنية الاجتماعية المغلقة بغية كشفها بشكل واضح خاصة بعد أن كشرت عن أنيابها بصورة قاتلة إنها بنية الاستبداد والشرائح الاجتماعية المنتفعة منه والتي تشكل له حاضنة اجتماعية تطيل من أمده على حساب دماء بريئة.

«مدن اليمام» رواية للكاتبة إبتسام تريسي
مكتبة الدار العربية للكتاب ـ القاهرة ـ ط١ ـ ٢٠١٤

أوراق الحوار

أجرى الحوار: عادل سعيد بشتاوي

عربـيّ يفـوز بالجائـزة الأولى لمسـابقة الرواية في مالطا

وليـد نبهـان: رويـت فلسـطين لمالطـة ومزجتهمـا معـاً في روايـة الإنسـان

احتفلت جمهورية مالطا في الخامس من كانون الأول (ديسمبر) ٢٠١٤ باعلان الروائيين الثلاثة الفائزين في مسابقة الرواية للعام ٢٠١٣ وفاز بالجائزة الأولى الروائي والقاص وليد نبهان، وهو فلسطيني يحمل الجنسية المالطيّة. شارك في الاحتفال الذي جرى في القصر الرئاسي (الأوبرج) في العاصمة فاليتا عدد من كبار المسؤولين يتقدمهم الدكتور جوزيف مُسكات رئيس الوزراء رئيس حزب العمال المالطي الذي قدم الجوائز للفائزين، ورئيس المجلس الوطني للكتاب الذي أشرف على تنظيم الجائزة واختيار الفائزين.

الروائي والقاص والشاعر وليد نبهان عضو شرف في رابطة الكتاب السوريين، وقد نقل عضو المكتب التنفيذي في الرابطة المؤرخ والروائي عادل بشتاوي باسم الرابطة تهانيه للزميل وليد نبهان بمناسبة فوزه، وتمنى له استمرار الانتاج الابداعي والانتقال إلى العالمية، وكان لهما هذا الحوار:

أوراق: ما هو الهدف من الكتابة بالنسبة لك؟

وليد: توجد أسباب كثيرة، ربما كان أحدها أنني أريد روايتي الخاصة بي، من منظوري أنا للعالم بأكمله، وأقصد بذلك المنظور الانساني بشكل عام. طبعاً هذا سبب لكن هناك اسباب اخرى ربما كان منها الانسلال من الواقع المحيط وتسجيل ما يحدث حولنا من الزاوية التي ينظر الروائي منها.

أوراق: هل نتحدث عن المراقبة؟

وليد: بالضبط، الكتابة هي عملية مراقبة دقيقة لنفسي وللآخرين.

عادل: الواضح أنك تدرّجت في الكتابة من القصة إلى الرواية فهل هذا تطور طبيعي في الكتابة؟

وليد: هي فعلا عملية تدرج وتشبه عملية الاحماء بالنسبة للاعب. بدأت بالقصة القصيرة لكون فضائها اصغر ويمكن مراقبة أشخاصها وتوجيههم بسهولة. صدرت لي مجموعتان، الأولى عام ٢٠٠٩ وكانت بعنوان «عائد إلى البيت»، والثانية عام ٢٠١١ بعنوان «صوت من الفخار». بعدها وفجأة اكتشفت أن القصة القصيرة لم تعد تتسع لمتطلبات شخوصي وتطلعاتهم. كما ان الرواية في بعض الحالات ليست سوى مجموعة من القصص القصيرة التي يمكن معالجتها تقنيا لتشكل فصولا في رواية، لكن طبعاً أسلوب كتابة القصة القصيرة يختلف عن كتابة الرواية لذا من الطبيعي أن تختلف المعالجة.

أوراق: هل هذه المعالجة ما يصفها البعض أحياناً بأنها معالجة النفس الطويل؟

وليد: يمكن قول ذلك، لكن ما ينطبق على عمل لا ينطبق على عمل آخر. مثلاً، خلال كتابة قصص المجموعة الثانية شعرت أن المساحة المخصصة لبعض القصص لم تكن كافية لاستيعاب ما حاولت التعبير عنه على لسان شخوص تلك القصص، لذلك اضطررت في حالة أو أخرى إلى انهائها تقنيا، لكن الشخوص طاردتني كثيراً بعد ذلك، كأن الاكتمال لم يتحقق في بناء بعض القصص.

أوراق: عندما تقول «الاكتمال» فهل هو اكتمال بناء الشخصية أم اكتمال السرد، أم ماذا بالضبط؟

وليد: اعتقد أن مجال التوسّع في بعض قصص المجموعة الثانية كان متاحاً في البناء لا في المساحة، فالوعي بهذا القصور المساحي الكامن أصلاً في القصة القصيرة كان من الدوافع التي قادتني إلى طريق الرواية.

أوراق: لكن هل شخوص الرواية أكثر عادة من شخوص القصص القصيرة لأن محيطها أوسع؟

وليد: ليس في الحالات كلها، ولا الزمن شرط أيضاً. مثلاً، تجد روايات من ألف صفحة أو أكثر تدور أحداثها في ليلة واحدة. طبعاً ما ينطبق على قصة لا ينطبق على أخرى. سيجد الكاتب أن بعض القصص قابلة للتعمّق أفقياً وعامودياً، بما يتضمن الاستفاضة السردية أو التعبيرية أو التصويرية، فهذا نوع من الاسترسال لكن الفارق كبير بين الاسترسال الذي يفرضه الكاتب على نفسه، والاسترسال الذي تفرضه طبيعية القصة. المشكلة ليست بسيطة. أحياناً تجد أن مكوّنات بناء عالم روائي متكامل موجودة في وعاء القصة القصيرة. أحياناً تضع نقطة في نهاية قصة قصيرة ما لأنك تشعر أنها اكتملت. في أحايين أخرى هذا الشعور ليس موجوداً، وربما لحق السرد بعض البتر لطبيعة الاختزال في وعاء القصة القصيرة.

أوراق: لكن ألا تعتقد أن ضبط السرد مطلوب أيضاً في الرواية لأنها أكبر من القصة لكن صفحاتها محدودة هي الأخرى؟

وليد: الكتابة هي موافقة المكوّنات كلها. مثلاً، في الرواية الأولى التي حملت اسم «هجرة اللقلق» كانت التقنية عفوية إلى حد كبير، بمعنى أن نصف الرواية بضمير المتكلم، أي «أنا»، ونصفها الآخر في الغائب المفرد، أي «هو»، فربما كان هذا التجزيء أحد الأسباب في أن كتابة هذه الرواية لم تكن مضنية تقنيا بل انها تدفقت بعفوية اذهلتني في بعض الاحيان.

أوراق: ومن هو «أنا» في الرواية، ومن هو «هو»؟

وليد: «أنا» ربما هو وليد بكامل امتداداته الشخوصية والانسانية. ربما هو شخص آخر. وربما وجد بعض من يعرفني أن «أنا» في الرواية يشبهني الى حد ما.

أوراق: وليد المقيم في عمّان ام وليد الغربة؟

وليد: وليد المقيم في الذات. الفلسطيني خارج فلسطين غريب ربما أينما حل، وهذه قصة يجب أن تُروى، وبلغة غير العربية ولقراء لا يجيدونها. ما حاولت تحقيقه في هذه الرواية هو رواية فلسطين لمالطا، ورواية مالطا لفلسطين، ثم مزج الروايتين معاً في وطن روائي أكبر هو الانسان أينما كان.

أوراق: وما هي النتيجة؟

وليد: النتيجة هي أن توظيف تقنيتي سرد في رواية واحدة أتاح التعبير بصورة أكثر دقة واكثر حميمية وتفصيلاً. توجد أشياء في عموم أوعية السرد يَحسُن التعبير عنها بضمير الأنا، وأشياء أخرى يَحسُن التعبير عنها بضمير الغائب. أعتقد أن استخدام راويين كان التقنية الأفضل لمثل هذا العمل.

أوراق: كيف؟

وليد: الراوي الغائب غائب في المفهوم القواعدي لكنه حاضر في السرد. يستطيع الروائي توظيف هذه التقنية لأن هذه الشخصية أقدر على التعبير بحميمية الصدق والمشاعر. السبب بسيط لأن ضمير الغائب خارج الاحداث فينظر إليها نظرة المراقب عن بعد. النصف الثاني مروي بالمتكلم فهو داخل الأحداث لكنه لا يستطيع أن يرى أعماقها كاملة لأن قدميه غائصتان في التفاصيل.

أوراق: هل يمكن القول إن الرواية قسمان: قسم ينظر من الخارج إلى الداخل، وقسم ينظر من الداخل إلى الخارج؟

وليد: ربما، لكن النظرتين هما في إطار العمل الروائي الواحد. ربما لهذا ستجد في الرواية نظرة شديدة الحياد تُروى بعينها الأحداث من الداخل.

أوراق: أنت نشأت في عَمّان ودرست وعشت في بريطانيا، فهل لهذين المكانين مكان روائي أم أن المكانيّة محصورة بفلسطين ومالطا؟

وليد: إذا أردت تشبيهاً وقلت إن مالطا جزيرة وتصوّرت فلسطين جزيرة فمحيط الرواية هو العالم. مسرح الرواية في الدرجة الأولى هو العالم العربي عموماً والدول المعروفة بدول «الطوق» بتحديد أقرب لأنها الدول التي استقبلت اللاجئين الفلسطينيين عام ١٩٤٨، أي مصر وسورية ولبنان والأردن.

أوراق: تأريخ؟

وليد: ليس تأريخاً بالمعنى الشائع، لكن الرواية معاصرة ومن الضروري أن تعرض بعض جوانب التاريخ المعاصر لهذه الدول ومنها التقلّبات الجيوسياسية، فهذه إضاءة وجدتها مهمة لفهم انعكاساتها على أحداث الرواية وشخوصها.

أوراق: أنت تكتب بالمالطية وهي من اللغات التي توصف باللغات «السامية»، وفيها جذور عربية لكنها تبقى لغة مختلفة، فما هو تقييمك كروائي وقاص لقدراتها التعبيرية، وما هي أوجه المقارنة بالعربية؟

وليد: اللغة المالطية تتضمن كتلة أساسية هامة لا تبتعد كثيراً عن العربية، ومن الباحثين من يعتقد أنها «عربية» في العموم. المقصود بهذا أن محرك اللغة عربي، لكن أطرافها اليوم خليط يتضمن تعبيرات ولفظات بالايطالية والانكليزية والفرنسية. هي إذاً مما يطلق عليه اسم «اللغات السامية»، والعربية فيها عربية قديمة تتضمن البربرية والامازيغية ولغات الساحل المغاربي

بحكم التقارب والاتصال، وكذلك الصقلية. إذا استعرضت أسماء الاسر المالطية فربما وجدت أن نصفها تقريباً ذات أصول عربية والنصف الآخر تقريباً أسماء من صقلية. البروفسور ويتينجر ألف كتاباً ضخماً عرض فيه أصول خمسة آلاف اسم مالطي كثيرها عربي، وعنده نظرية كاملة رأى فيها أن المالطيين كانوا عرباً بدّلوا ديانتهم وهذا واضح في قَدَريتهم، ولغة العبادة عندهم في المجمل مشرقية.

أوراق: لا استبعد ولا استنكر على الروائي أن يكون شاعراً، مع ذلك الشعر فن مختلف يتطلب معالجة مختلفة، وعندك ديوان في الشعر فهل الشعر عندك من صنف «الاخوانيات» أم أنه لون أساسي في لوحتك الكتابية؟

وليد: صحيح، لي ديوان صدر بعد المجموعتين القصصيتين والرواية. الشعر يتطلب كثافة إحساسية أكثر من السرد الروائي أو القصصي، لكن الشعر، كما القصة والرواية، يتطلب دقة الملاحظة. هناك فرق آخر، ربما، هو أن الشعر يتطلب اقتصاداً لغوياً وهذا من مقومات الشعر. للرواية أيضاً ايقاع لكن عالمها واسع ومفتوح. الشعر نبض يتطلب حالة نفسانية معينة ومنسوباً عاطفياً ذا نكهة معينة، أو لنقل إنه يتطلب منسوباً تعبيراً أعلى من السرد. هذه من الحالات المعروفة مثل الفرح الغامر أو الحزن الغامر والغضب الشديد، وغير ذلك من الحالات الانسانية المرهفة. نحن هنا نتكلم عن حالة نفسانية وذهنية معينة يتفجر منها جدول الشعر.

أوراق: هل يمكن القول إنه سبر للاوعي؟

وليد: اعتقد انه في الشعر يجب الإصغاء جيدا للاوعي.

أوراق: أنت استخدمت وصف «يتفجر»، إن كان كذلك فما هو صاعقه؟

وليد: الصاعق أحياناً في الشعر ليس سوى البساطة وقدرة القصيدة على المباغتة والمكاشفة.

أوراق: المرأة عند وليد نبهان ما هي؟

وليد: (صمت).

أوراق: لماذا الصمت؟

وليد: لأن المرأة كائن محيّر. هي مخلوق لغزي مثل النار، ان اقتربت منها كثيرا احرقتك، وان ابتعدت عنها كثيراً قتلتك البرودة حتى التجمد. التعامل الصحيح مع المرأة ربما كان في اختيار المسافة الصحيحة لكن المسافة الصحيحة لغز في حد ذاته لكونها متحركة ومتغيرة ضمن ايقاعات بيولوجية معقدة. لكي يفهم الرجل المرأة ربما كان عليه مجاراتها على السطح الهلامي لأن المرأة فعلا مخلوق معقد إلى حد ما، ولا شك أن الكائن الانثوي فيزيولوجياً أكثر تعقيداً من الرجل.

وليد نبهان في أمسية أدبية في مالطا

أوراق: هل التعقيد النفساني امتداد للتعقيد الفيزيولوجي، أم هو غير ذلك؟

وليد: اعتقد أنه امتداد لأن التعقيد الفيزيولوجي يقود إلى التعقيد النفساني. عليك ان تتخيل مثلا ما يمكن ان يفعله الادرينالين بنا. هناك تغول هرموني مرتبط عضويا بالكثير من الإملاءات السيكولوجية. وهو ضرورة «تطورية» من دون أدنى شك. لو لم يحتج الانسان لهذا المركب العضوي كضرورة بقاء لما قام بتطويره. وهذا ينسحب على المنظومة الهرمونية جميعها وهي في المرأة ربما أكثر تداخلا وتعقيدا مما نعتقد. الحالة النفسية في رأيي، انثوية كانت ام ذكورية، ليست سوى نتيجة فيزيولوجية ناتجة عن تفاعلات كيميائية غاية في التعقيد مسرحها الدماغ.

أوراق: إن لم تكن تنشد للمرأة في ديوانك فلمن؟

وليد: أنا أنشد للمرأة في كتاباتي كلها لا في الشعر وحسب. هي خالقتي ومرضعتي ونصفي الغامض. يحتاج الرجل إلى شاعرية عالية، ان لم يكن ابجدية مبهمة لكي يفهم المرأة، أو لتحقيق شيء من المقاربة الفهمية لأن فهم المرأة متجرداً من الشاعرية عصي على التقبّل.

أوراق: ربما قيل أن الاستمتاع بلوحة جميلة لا يشترط أن يعرف الناظر المستمتع ميكانيكية الرسم عند الفنان، ما رأيك؟

وليد: معرفة الميكانيكية ليست ضرورية، وربما كان هذا سر فهم المرأة.

أوراق: وهو؟

وليد: كونها عصيّة على الفهم الكلي. إذا استعرنا المجاز في اللوحة فلعله من الممكن القول إن الاغراق في التفاصيل الانثوية ربما أضاع على الناظر رؤية الصورة الأكبر التي تعرضها اللوحة.

الدكتور جوزيف موسكات رئيس الوزراء المالطي رئيس حزب العمال يقدم الجائزة الأولى للروائي وليد نبهان

بالضرورة كل أنثى امرأة لكن ليست كل امرأة بالضرورة أنثى. المشكلة أن الرجل لا ينظر إلى المرأة كما هي بل كما «يحبذ» أن يراها هو. هي، إذاً، نظرة يمكن وصفها بالرومانسية.

أوراق: والرجل؟

وليد: لدى الرجل نمطية ذكورية «مخيفة» على المستوى البيولوجي والسيكولوجي، لا سيما في المجتمعات «الأبوية» الاكثر تخلفا. الرجال يريدون أن يروا في المرأة الجمال والرقة والحساسية المرهفة، وهذه ليست نظرة واقعية او حتى عقلانية.

أوراق: لديك قارئات كثيرات جيد أنهن لا يعرفن العربية لذا لن يقرأن هذه المحاورة، فهل لك أن تكشف الفرق بين المرأة المالطية والمرأة العربية؟

وليد: لا اعتقد بوجود خلاف جوهري. المرأة هي المرأة في كل زمان ومكان. هناك بعض الاختلافات الثقافية لكن الحديث في العموم عن الكائن نفسه.

أوراق: منذ فترة لم أعد اسأل من أحاورهم لماذا لم يتزوجوا ولماذا لم ينجبوا، فإذا أردت التعليق هيا وإلا سأنتقل إلى السؤال التالي.

وليد: لا يوجد سبب «آخر» سوى انشغالي بالكتابة وخشيتي من سكرات التجمد والإحتراق.

أنا نسيت في الكتابة نفسي، ولعلي نسيت المرأة زوجة للسبب نفسه. لكنها حاضرة دوما فهي نصف الوجود الكتابي لدي.

أوراق: أليس للمرأة مكان في حياتك الآن؟

وليد: (صمت).

أوراق: (صمت).

أوراق: العزم على دخول بوابة الرواية، كيف تبلور؟

وليد: هناك فكرة تطارد الكاتب دائماً. وهي فكرة انجاز عمل أدبي سواء كان قصيدة أو قصة قصيرة أو رواية. هذه الفكرة موجودة حتى قبل أن يتعرف الانسان على الكتابة، لكن الانتقال من الفكرة والتجريد إلى البلورة والتأثيث يتطلب الكثير من العزم والاصرار والوقت وقبل ذلك كله، الموهبة. اللغة تتطلب الطَرْق التعبيري المتواصل أو المطوّل، وأقصد بالطرق البحث المضني عن الكلمة المناسبة، فإذا جمع الكاتب كلمتين أصدرتا معاً الصوت التعبيري المُشبع أو الحالة البيانية الاحساسية التي ينشدها الكاتب. أحياناً يؤدي قلب ترتيب كلمتين لا غير إلى اختلاف الميلودي السردي وطريقة إيصال الفكرة. القصيدة تريد أن تنقل شيئاً ما لكن هذا ليس كل شيء، فالمهم أن تُستنطق الكلمتان لا في عمل الايصال نفسه بل في طريقة الايصال لأن الشاعر في النهاية لن يأتي بفكرة من خارج الكون بل من ملاحظاته وحساسيته واستشعاره لترجمة المواقف التي تواجهه حياتياً.

أوراق: كم استغرقت كتابة الرواية؟

وليد: نحو أربع سنوات متقطعة كتابياً.

أوراق: لك وظيفة دائمة في مختبر أكبر شركة ألبان في مالطا، واختصاص في علم البكتريا، فكيف تجد الوقت للكتابة؟

وليد: الكتابة عندي ليست مجرد هواية. ربما قلت إنها حاجة. مشكلة الوقت مشكلة الكتّاب جميعاً. لكن، إذا اختار الكاتب الاشتغال في الخلق بالكلمة فعليه الاشتغال بخلق الوقت الضروري للكتابة. لا يوجد بديل، الكاتب عليه أن يجلس في النهاية ويكتب فلا من أحد سيؤدي هذه المهمة نيابة عنه. إذا كنتَ كاتباً فعليك أن تكتب. لا يوجد خيار ثالث. إن لم تكتب فأنت لست كاتباً..

أوراق: كيف استقبلت مالطا الرواية الأخيرة «هجرة اللقلق»؟ (L-Eżodu taċ-Ċikonji)

وليد: بعض النقاد رأوا أن روايتي الأخيرة أخرجت الرواية المالطية من حيزها الجزيري الضيق

إلى رحابة محيط العالمية. أحد الأسباب أن حدود الرواية مكانياً تمتد إلى فلسطين والعراق ودول الجوار. هذا توسيع لأفق الرواية المالطية لكن المكانة قائمة في الرواية لأن ماء بحر مالطا هو ماء بحر فلسطين، ومعظم المالطيين في الأصل الألفي من منطقتنا.

أوراق: إذاً، فرضت روايتك نوعاً من ضرورات توسيع الأفق الروائي المالطي؟

وليد: ربما «لفتت» انتباه الروائيين المالطيين إلى أهمية مد حدود مالطا الأدبية خارج الجزيرة لأن لها مكان في المنطقة. لا ينطبق على مالطا اليوم وصف «التقوقع» لأن العالم الآن مفتوح بعضه على بعض. هو، إذاً، الضيق السيكولوجي لا الضيق الجغرافي لأن نفسانية أهل الجزر ملوثة بنمطيّة مُسبقة عن الآخر في المكان والانسان، وربما قيل «ريبة».

أوراق: وما هي الحالة الآن؟

وليد: مالطا تغيرت في السنوات العشرين الماضية بشكل مذهل. الانضمام إلى أوروبا فتح بوابة كبيرة، لكن معروف أن مالطا أرادت دائماً أن يكون لها دور فاعل في قضايا الشرق الأوسط، واعتبرت نفسها في حالات بعينها جسراً طبيعياً بين أوروبا والعالم العربي. السبب الآخر تراجع سيطرة الكنيسة بشكل كبير.

أوراق: هذا طريق الرواية خارج مالطا، فما هو طريق الرواية إلى جائزة الرواية المالطية؟

وليد: طريق روايتي كان طويلاً وشاقاً. عمر هذا الطريق نحو ١٢ سنة كتبت خلالها باللغة المالطية لأنني أعيش في مالطا. هو أول عمل لي بالحجم الكبير تقدم به الناشر للجائزة على مستوى الجمهورية، وتم اختيار هذه الرواية كأفضل عمل روائي للعام ٢٠١٣. منافسي الآخر كان ألفريد سانت وهو مؤلف كبير ورئيس وزراء سابق ورئيس سابق لحزب العمال الحاكم اليوم وعضو في البرلمان الأوروبي، ويمكن اعتباره من المفكرين الكبار في مالطا.

أوراق: ليس سهلاً إزاحة كاتب كبير مثل سانت، فهل كان الاختيار مفاجأة لك؟

وليد: المفاجأة ربما كانت لأنني قادم من خارج اللغة والجغرافيا، ولست ناطقاً للمالطية بالولادة، ولم اتعلم درسا واحدا عبر مدارسها. أنا تعلمت من الشارع والصحيفة والتلفاز والكتب... بل تعلمت كثيراً من ألفرد سانت نفسه وشاركت في قراءة بعض أعماله للجمهور، لكن التغيير سنة الحياة، واعتقد أنه سُرَ لفوزي فنحن رفاق في درب الكتابة.

أوراق: المحطة الكتابية التالية؟

وليد: رواية جديدة أريد فيها معالجة العلاقة الشائكة لكن بشكل ما حميمة بين الشعبين المالطي والليبي. الليبيون جيران تاريخيون للمالطيين، لكن العلاقة تغيرت في القرون الخمسة الماضية بحكم صراع الأديان والحضارات فاستُبقيت في أذهان القلة صورة نمطية قبيحة عن الليبيين

وصورة نمطية مقابلة عند الليبيين للمالطيين وتحفظات اخرى كثيرة بعضها كوميدي. المعالجة لن تكون بحثية أو تاريخية وإنما إنسانية درامية تتضمن قصة حب وجريمة قتل، وغير ذلك.

أوراق: قل للقارىء العربي ما هي مالطا؟

وليد: مالطا تكوين جغرافي من ثلاث جزر عانى أهلها الأمرين من الاستعمار. لن أقول إن جراحها الاستعمارية برأت لكنها تخلصت من معظم فسادها الذي اختلف حدة وعمقاً بين المراحل الاستعمارية سواء كانت مرحلة فرسان الهيكل أو قشتالة أو أراغون أو فرنسا أو بريطانيا. مالطا الحديثة تاريخيا وسياسياً كانت إلى جوار العرب في المواقف الدولية في الجمعية العمومية للأمم المتحدة ومجلس الأمن. الموقف اليوم مساير للموقف الأوروبي، وكان من الممكن أن يكون أفضل من ذلك بكثير لكن اللوم لا تنفرد به مالطا، الدول العربية أيضاً مسؤولة ربما لأسباب نمطية يجب التخلص منها لأن مالطا دولة اوسطية جارة. هي أقرب الدول إلى حضارة العرب وكلامهم، ولهم تداخل اجتماعي واقتصادي وحضور في مصر والجزائر وغيرها، وحالات زواج المالطيات من العرب بالألوف.

أوراق: هذا سؤال طرح نفسه بنفسه: صف لنا المرأة المالطية.

وليد: رقيقة هي المرأة المالطية لكنها في الوقت نفسه نافذة. العربيات نافذات أيضاً لكن القانون في مالطا إلى جانب المرأة، وهذا موقف يُحترم. يجب أن يحمي القانون المرأة. المرأة غالباً هي الطرف المُعتدى عليه منذ أزاحها الرجل عن موقعها التاريخي قبل أكثر من خمسة آلاف سنة.

أوراق: أين المقارنة؟

وليد: (ضحك). إنسانياً لا يوجد فرق، هي عذبة ورقيقة كالمرأة العربية تماما. نحن نتكلم عن الكائن الحي نفسه، وهو لا يتغير كثيرا من وعاء ثقافي لآخر. لا استطيع القول إن المرأة كانت نصفي الآخر لكن حضورها كان عضويا.

أوراق: هل هناك فروق حقيقية مهمة بين الانسان والانسان في إبداع وليد نبهان الكتابي؟

وليد: الانسان واحد، الصفات نفسها، البكاء نفس البكاء والفرح نفسه، والضحك والاشارات كلها لغات عالمية مقروءة لدى الجميع.

أوراق: البعض يقول إن الهدف من تخليد الكتابة تخليد الكاتب؟

وليد: لم لا؟ كل ما عليه فعله هو ان ينجز عملا يستحق التخليد

بطاقة تعريفية:

الاسم: وليد خليل نبهان

المولد: عمّان ١٩٦٦

الدراسة والاختصاص: بكالوريوس علوم بيولوجية/ جامعة بريستول (بريطانيا).
ماجستير علوم حقوقية في اخلاقيات التدخل في الجينات الوراثية

العمل: مدير قسم علم الاحياء المجهري في شركة الألبان المحلية

الأعمال المنشورة:

«عائد الى البيت» وحكايات اخرى لم تحدث. مجموعة قصصية، إصدار نادي الكتاب المالطي، ٢٠٠٩

«صوت من الفخار». مجموعة قصصية، نادي الكتاب المالطي، ٢٠١١

«هجرة اللقلق». رواية. نادي الكتاب المالطي، ٢٠١٣

«في طريقي اليها». ديوان شعر. نادي الكتاب المالطي، ٢٠١٤

أوراق القضايا

نسرين طرابلسي

سلطة مزدوجة والمثليون في كل مكان: الجنس الثالث

لم يكن أنمار في حياتي شخصا عابراً... كان صديقا مميزاً إلى أبعد الحدود. كان مثل الأم والأخت والصديق، بإمكانه لعب كل الأدوار، فنان وحساس خفيل الظل ويسعى لتثقيف نفسه باللغات والموسيقى. عندما عرفت أنه مثليّ لم أسمح للأمر أن يزعجني على الرغم من الصدمة. كيف أفعل ذلك وأنسى كل اللطف والأمان الذي أحاطني به والذي لم اشعر به مع أي صديق ذكر آخر؟! تعرفت بحكم عملي الإعلامي القريب على أشخاص كثر مثليين ومن الجنس الثالث، معظمهم يصنفون في علم البيولوجيا كذكور كانوا يشقون طريقهم في الحياة مثل كل الناس. لكن بصعوبة أكبر. فأن تضمر شيئا خفياً طيلة الوقت وتعيش حياة مزدوجة واحدة في العلن وأخرى في الخفاء فهذا من أصعب ما يمكن أن يمر به إنسان، الانشطار أمام ساطور الاستبداد الديني والاجتماعي والقوانين السياسية التي تجرم هذه الهوية الملتبسة دون هوادة. يعرف هذا جيدا من اضطر لتخبئة سر لفترة طويلة، لكن حين تضع ثقتك بشخص ما لتعلن عنه لتتخفف وترتاح، ستكون أمام احتمالين إما أن يتم قبول بوحك وكتمان سرك أو ستتعرض لمحاكمة طويلة لا تنتهي تتمنى بعدها لو أن لسانك انقطع قبل أن تقول.

أتذكر نائل وروي، تعرفت عليهما مرة عند أصدقاء. لا أعرف التصنيف الجندري السليم لحالتهما، لكن نائل بشعره القصير وملامحه الصبيانية كان يتقصع بوركيه مثل كتلة غواية بدشداشة حريرية. أما روي فكان رجلا بشعر أشقر وعلى وجهه اخضرار طفيف، من أثر لحية خشنة مزالة بعناية، تحت طبقة سميكة من كريم الأساس. كان الاثنان شخصان طريفان، أحدهما يمتلك دلع أنثى، لو أجريت له بعض التعديلات لا يمكن أن تتذكر حتى أنه ذكر، فصوته يتسلل بغنج وضحكته لها رنين الخلاخيل. أما الآخر فكان يحاول بصعوبة أن يخفض نبره الأجش من بين شفتيه المحقونتين بالسليكون والمطليتين بالشفاف الوردي، ويزيد من زم فخذيه في جلسته ويترك يديه متصالبتين باسترخاء اثناء الحديث. وفجأة وضع أحدهما موسيقى أم كلثوم وقاما يرقصان. وكأنك ترى نجوى فؤاد وسامية جمال أيام العز تتباريان بالتلوي والخطو الرشيق على رؤوس الأصابع. سقطت أفكار الرجال الحاضرين في السهرة وامتزجت الغيرة بحقد ساخر في أعين النساء. تحرك حسي الصحفي وبدأت أستقصي عن الأسباب والدوافع لحالتيهما، كانا في منتهى المرونة في استلام السرد وجذب الرؤوس إلى الحديث غير المألوف، على الأقل علناً.

ولد نائل وحيدا بعد خمس أخوات بنات وكن يعاملنه مثل اللعبة يطلن شعره ويضعن له الأشرطة والبكلات الملونة، ويجربن عليه الفساتين. جهل الأم جعلها تجد هذا طريفا وتسوّق في دلع ولدها الوحيد. عندما كبر لم يتحرج من الاعتراف للعائلة بأن له روح فتاة ومشاعرها ومزاجها وهواها فهو يميل لاختيار الأقمشة الطرية الملونة، وتستهويه تصفيفات الشعر ووضع الماكياج، وحده العضو بين فخذيه كان ينغص عليه حياته. كان يشعر بمسؤوليتهم عن ذلك مما قوى له قلبه ووضعهم أمام الأمر الواقع. جن جنون الأم وحاولت أن تعيد الأمور إلى صوابها فالعائلة التي فقدت الأب ستفقد آخر سلطة ذكورية لها في المجتمع بخسارة ذكورة الابن الوحيد، دارت بين البيوت تبحث له عن خطيبة، امرأة تعيد ترميم ذكورته التي أفسدها كثر الاحتفاء. وحاول نائل جاداً أن يستعيد هويته الأصلية بمجاراتها، لكن الأوان كان قد فات، قال لأمه: "إيديي أنعم من إيديها". أما روي فكان ظرفه أصعب. أخبرنا أنه يتناول حبوب منع الحمل لأن تركيبتها الهرمونية في الجسد الذكوري تخفف ظهور الشعر في الوجه. لكن في الحقيقة كان كل ما فيه يدل على ذكورة مشوهة. اللحية، الصوت، العضلات المفصلة، الرقبة العريضة، الجذع المتخشب. والاسم الحقيقي، فبينما أمكن بسهولة على الجميع استبدال نائل بنائلة، كان من المستحيل تأنيث عبد القادر القدوري، فأطلق على نفسه إسم روي!

المجتمع لم يعترف بعد بالجنس الثالث ولا يتقبل أبدا بحكم العرف والعادات والتقاليد والدين هذا التصنيف للهوية الجندرية أوالعلاقات المثلية. ستدهشون لو سنح لكم الاطلاع على كثرتها. إنهم يملؤون كل حيز لا تتنبهون له.

في مجال العمل تعرفت على فهّودة. لديه تقريبا الحكاية نفسها التي يرويها بعض أفراد الجنس الثالث حول كثرة الأخوات والدلع المفرط. لكن فهودة كان جريئاً ولديه من الثقة ليرفع القبعة التي يرتديها طيلة الوقت ليريني طول شعره الذي يصل حتى منتصف ظهره. فهودة لا يملك من الأنوثة سوى الروح، يصر على أن تناديه الآنسات والسيدات في العمل (خالتي). كان يوقفنا في الممر ليشيد بماكياجنا وجمالنا وشعرنا مثل أنثى تمتلك الكثير من المحبة والود والثقة بالنفس، ويقدم الملاحظات حول شكلنا والنصائح التي يمكن أن تحمي بشرتنا المعرضة للإضاءة أو تحمي شعورنا من الاستعمال المتكرر لمجفف الهواء. مع الوقت لم نعد نتحرج من خالتي إذا امتدت يدها لتتلمس شعرنا أو وجوهنا، لم يعد لدينا أي إحساس بخشونة يده ذات الأظافر الطويلة. ربما لأن ميزة فهودة الأبرز والتي جعلته مقربا منا أكثر من باقي طاقم العمل التلفزيوني هو أنه "زكرتي" وله تصرفات الرجل الشهم حين يتطلب الأمر. فلا يمكن أن يسكت عن نظرة غير نظيفة لأحد الذكور في العمل لواحدة منا. وكنا نشعر حقيقة بالحماية حين يطلب من أحدهم أن (يكسر عينه) أو (يقصّر حسّه) أي يغض بصره ويخفض صوته أثناء الحديث مع السيدات. ولم يكن أحد منهم يجرؤ على مواجهة لسانه السليط. كان يتمتع بسلطتين معا، سلطة روح الأنثى التي يقدم نفسه بها، وسلطة الذكورة التي ولدت معه. وبمناسبة السلطة، فقد مر عليّ مسؤول يشغل منصبا كبيراً، وينحدر من أسرة مالكة، لم تؤثر ضبابية هويته الجندرية على سلطاته، فالمال والعائلة والمنصب، جعلت الجميع يتعامل معه على أساسها ويرضخون في كثير من الأحيان لطلباته التعجيزية في العمل ولغرابة أطواره خوفا من سلطته، بل وأكثر، كانت التعليقات كلها تحوم حوله همساً وسرّا ولم يتجرأ أحد على أن يطاله علناً بتعليق جارح كما كانوا يفعلون مع غيره.

تعرضت مرات قليلة للتعاطي مع مثليات (سحاقيات) أو بويات (غياب الهوية الجنسية الأنثوية). لكن في السنوات العشر الماضية لاحظت أنهن بدأن يصبحن أكثر جرأة، ويظهرن للعلن. فالعضلات والوشم وقصات الشعر الغريبة وأحيانا إطلاق الشارب. ومن الغريب والذي لم أستطع تفسيره حتى الآن أنني مع مرور الوقت استطعت تقبل الجنس الثالث والمثليين من الذين ولدوا في الأصل ذكورا بينما لم أستطع أبدا ولا في أي حال التعاطي مع البويات. على اعتبار أن السحاقيات أقدر على إخفاء ميولهن.

"مستحيل أبي يعرف كيف عايش أنا بالغربة وشو هيي الحقيقة بينجلط"، هكذا تحدث روي قبل أن يغيّر تعامله معي ويقرر استعدائي مثل أنثى غيورة. فقد كان خبيراً في الماكياج واستعنت به لعملي التلفزيوني والحقيقة أنه كان فناناً في مجاله، وحولت له الكثير من الزبونات، كلما سألتني إحداهن عن شعري وماكياجي. لكنه لم يتفهم أبداً أنني لا أستطيع السعي لتوظيفه كماكيير في التلفزيون، فالقانون يمنع الرجال من العمل في هذه المهنة في البلد التي كنت

أعمل بها. وشرحت له هذا مراراً، أنا أعرف أنك لست رجلاً يا روي لكن الأوراق الثبوتية هي التي ستتسبب برفضك حين يطلبونها لتوظيفك.

بين الإعجاب والسماح، الاستنكار والإدانة، تعيش هذه الفئة بين الناس. قد لا أكون أنا ابنة المجتمع الشرقي وحدي من أخذت وقتا طويلا لتخف حدة دهشتها وصدمتها وتتقبل وجودهم الإنساني وتتفهم حقهم في حرية حياتهم، فكل عنزة معلقة من عرقوبها، كما يقول المثل. لكن أوبرا وينفري شخصيا في إحدى الحلقات عن المثليين لم تكن دهشتها أقل، خصوصا بعد أن وقف أحد الحضور ليخبرها أن بينهم لغة خاصة وأن بإمكانه أن يدل عليهم واحدا واحدا وأنها ستندهش من كثرة العدد بين الحضور، فرجته أوبرا ألا يفعل حرصا على من يريد الاحتفاظ بسرية الأمر. رؤساء وزراء، فنانون، مطربون، شخصيات شهيرة في العالم أجمع، بعضها استطاع إجراء عملية التحول وتغيير بطاقة الهوية، والبعض كانت لديه الشجاعة ليعترف بميوله متكئاً على الحرية التي يكفلها له مجتمعه. إلتون جون، جورج مايكل، إيلين دي جينيريس، رئيسة وزراء نيوزيلندا هيلين كيلار، ريكي مارتن... وغيرهم كثر.

لكن آخر صرعة هي المتحولة النمساوية المغنية كونشيتا فورست والتي فازت مؤخراً بجائزة يورو فيجن، وبمجرد فوزها حصلت على خمسة ملايين واربعمئة ألف تغريدة على تويتر بينما أدى هذا الفوز إلى موجة من الانتقادات الحادة والإساءات، وجهها سياسيون وفنانون روس تجاه المثليين جنسيا، لدرجة خروج احتجاجات في الشوارع، اعتراضا وبدأ الرجال يحلقون شواربهم أثناء الاحتجاج! كونشيتا لا تهتم فهي سعيدة بالشهرة التي سببتها صدمة الجمهور بشكلها الأنثوي ذي اللحية الكثيفة، فبمظهرها الذكوري قبل التحول لم يكن يعرفها هذا الجمهور العريض على الرغم من جمال صوتها. الآن هي تتمتع بسلطة منحها لها عالم الفن المادي الذي يجني الملايين من الضجيج والغرابة. بريطانيا، البرازيل، نيوزيلندا، الأوروغواي، الدانيمارك، ايسلندا، البرتغال، الأرجنتين، السويد، النروج، المكسيك، الولايات المتحدة الأميركية، واسكتلندا. سبعة عشر دولة شرعت بالقانون وبالتصويت البرلماني زواج المثليين. ودول أخرى كثيرة تبيح تحويل الجنس جراحياً.

عموما لا يشغل بالكم هذا التفصيل غير المهم فليس لدينا أي إحصائية في عالمنا العربي حول أعداد المثليين أو الجنس الثالث، ولماذا نشغل بالنا بهؤلاء وما زلنا نعاني من افتقارنا لقوانين ناظمة لحياة الأسرة والطفل والتمييز بين الجنسين ولحقوق المرأة والمواطن. وما زلنا لا نعرف كيف نضبط علاقات الزواج الطبيعية ومشاكلها الجمة. نحن الآن مشغولون بدمائنا المراقة وخاضعون لآلة الحرب التي تحصد الجميع بالجملة، ولسياسة عالمية لا ترانا. فليبق كل شيء يحدث في الخفاء.

أوراق الكتب

«فلاحو سوريا: أبناءُ وجهائهم الريفيين الأقل شأنًا وسياساتهم»: مدخل أساسيّ لفهم السلطة السياسية في نظام الأسد

صدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات كتاب "فلاحو سوريا: أبناءُ وجهائهم الريفيين الأقل شأنًا وسياساتهم" (٧٠٤ صفحة من القطع الكبير)، للمؤرخ والباحث الراحل حنا بطاطو (١٩٢٦-٢٠٠٠)، ويعتبر الكتاب مساهمة تحليلية مركزية لطبيعة السلطة السياسية القائمة في سورية، عن طريق العودة إلى الجذور التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية للفئات المشكّلة لها. بما يشمل تسليط الضوء على الجوانب العقائدية والمذهبية لتلك الفئات.

في هذا الكتاب نجح حنا بطاطو في رسم لوحة شاملة لطبيعة النظام السوري وتركيبته وسياساته، وتناول ذلك كله من جوانب وزوايا غير مسبوقة في الدراسات التي تناولت تاريخ سورية الحديث أو نظام الأسد على وجه الخصوص.

يأتي الكتاب في خمسة وعشرين فصلا، موزعة على أربعة أقسام، إضافة إلى ملحق وقائمة بالمصادر. قدّم بطاطو في القسم الأول (٤ فصول) "ظروف الفلاحين الاجتماعية والاقتصادية"، عرضا للشروط الاجتماعية والاقتصادية للفلاحين بما في ذلك التمايزات في ما بينهم من حيث العقيدة الدينية والملكية والخلفية التاريخية والارتباط بالأرض والاستعداد للقتال، وغير ذلك من التمايزات التي كان لها شأن في تشكيل وعي الفلاحين وسياستهم.

ويطرح المؤلف في القسم الثاني (٦ فصول) "أنماط الوعي والتنظيم والسلوك السياسي الفلاحي قبل البعث» عرضا لأنماط وعي الفلاحين وتنظيمهم وسلوكهم السياسي قبل تسلم حزب البعث السلطة في عام ١٩٦٣، فيعرض الأشكال المبكرة من التنظيم الحرفي للفلاحين، والأفكار الصوفية والمذهبية التي سادت بينهم، وثوراتهم وتمرداتهم على الحكم العثماني وفي فترة الانتداب الفرنسي، ومن ثم أشكال الوعي والتنظيم الحديثة، ويعرض تجربة الحزب العربي الاشتراكي بزعامة أكرم الحوراني بوصفه أول حزب فلاحي حديث منظم، وتجربة الشيوعيين والبعثيين.

وفي القسم الثالث (٣ فصول) "البعثيّة في جوانبها الريفية والفلاحية»، ينصبّ الاهتمام على الجوانب الريفية والفلاحية في عقيدة حزب البعث وسياساته، بما في ذلك الأصول الريفية لكثيرين ممن انضموا إليه، وأصبحوا قادته في ما بعد، ويبين انقسام التجربة التاريخية لحزب البعث إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى من البدايات حتى تسلم البعث السلطة في عام ١٩٦٣، وتمتد بعض خصائصها حتى عام ١٩٦٦. والمرحلة الثانية، وهي مرحلة انتقالية تمتد بين حركة ٢٣ شباط/فبراير ١٩٦٦ واستيلاء حافظ الأسد على السلطة في ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠، وتعود بعض خصائص هذه المرحلة إلى عام ١٩٦٣. أما المرحلة الثالثة فتبدأ باستيلاء حافظ الأسد على السلطة. ويبيّن بطاطو الاختلافات العميقة بين هذه المراحل، ليستنتج أن بعث حافظ الأسد يختلف تماما عن بعث المرحلتين الأولى والثانية، وهو اختلاف يصل إلى حد التناقض أحيانا.

أما الجزء الأكبر من الكتاب، القسم الرابع (١٢ فصلا) "حافظ الأسد أول حاكم لسورية من أصول فلاحية»، فيتناول مرحلة حافظ الأسد، الذي يعتبره المؤلف أول حاكم لسورية من أصل فلاحي. وفيه يعرض للنظام الذي بناه الأسد ومراحله وأزماته والشخصيات والأجهزة السياسية والعسكرية التي شكلت ركائزه وسياسته الداخلية والإقليمية والدولية. ويحلل بنيته الطائفية والعشائرية والمناطقية، ومستويات السلطة، في السياسة العامة للنظام.

يعتبر هذا الكتاب ذا فائدة جمّة للمعنيين بدراسة النظام الذي بناه حافظ الأسد، وتعتبر العودة إليه مشتملة المراجع والمصادر التي أوردها، ضرورية ولا بد منها لمن يبغي فهم هذا النظام المتميز بطبيعته وبنيته عن غيره من الأنظمة، مهما حمل من عناصر التشابه معها.

في هذا الكتاب واصل حنا بطاطو العمل على نهجه البحثي الذي امتاز به في أبحاثه عن العراق، تلك التي حققت له حضورا وشهرة واسعة في الأوساط الأكاديمية، ويتابع في هذا الكتاب المنهجية نفسها التي اتبعها في كتابه الشهير «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق»، وذلك من خلال العودة إلى الجذور التاريخية والاجتماعية والسياسية للفئات المشكلة للسلطة السياسية، مع الانشغال بالجوانب العقدية والمذهبية لها.

يضاف إلى ذلك عدم اكتفاء بطاطو بالمصادر المكتوبة والموثقة من كتب وصحف وتقارير وغيرها، بل يذهب أبعد من ذلك، ليلتقي الأشخاص الفعليين الذين كان لهم شأن في الحوادث التي يتناولها، أو الذين كانوا شهودا عليها، أو متأثرين بها، كلقائه فلاحين عاديين ليجمع شهاداتهم في المسائل التي يتناولها، التاريخية منها أو الحديثة التي تؤثر فيهم تأثيرا مباشرا. ثم يعمد إلى مقاطعة المعلومات والروايات المختلفة عن الحوادث لتكوين صورة متكاملة معقدة عن واقع هو ذاته معقد. ويذهب أحيانا إلى مقابلة الأشخاص الذين يرد ذكرهم في مصادر معينة ليطرح عليهم الآراء المختلفة ويقف على رأيهم فيها، ما اقتضى منه كثيرا من السفر في سورية وفي خارجها.

وحنّا بطاطو باحث وأكاديمي بارز، فلسطيني الأصل أميركي الجنسية، شُغل بالتأريخ والبحث الاجتماعي السياسي لعدد من بلدان الشرق الأوسط، خصوصا بالتركيبة الاجتماعية والحركات الثورية في تلك البلدان. ولد في القدس في عام ١٩٢٦، وعاش فيها حتى عام ١٩٤٨ حين هاجر إلى الولايات المتحدة، وهناك درس في مدرسة إدموند ويلش في جامعة جورج تاون. وفي عام ١٩٦٠ حصل على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة هارفرد، وكانت أطروحته بعنوان «الشيخ والفلاح في العراق ١٩١٧ - ١٩٥٨». بعد ذلك انتقل إلى بيروت وعمل أستاذا في الجامعة الأميركية بين عامي ١٩٦٢ و١٩٨٢. ثم عاد إلى الولايات المتحدة، ودرّس في جامعة جورج تاون حتى عام ١٩٩٤. وتوفي في الولايات المتحدة سنة ٢٠٠٠.

في عام ١٩٩٢، حصل بطاطو على إجازة تفرغ علمي من جامعة جورج تاون للقيام بدراسة عن الفلاحين في سورية ودورهم في السياسة. وقد نشرت الدراسة في عام ١٩٩٩ باللغة الإنجليزية تحت عنوان "فلاحو سورية: أبناء وجهائهم الريفيين الأقل شأنا وسياساتهم". وهذه النسخة العربية من الكتاب هي إصدار جديد للمركز العربي ضمن سلسلة ترجمان، التي تعنى بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية، بالإضافة إلى القارئ المختص وغير المختص، بالإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي.

الكتاب المساهمون في العدد

زينة أرحيم، إعلامية وناشطة سورية
خطيب بدلة، كاتب سوري
عزمي بشارة، مفكر عربي
عادل سعيد بشتاوي، كاتب فلسطيني
بشير البكر، كاتب وشاعر سوري
فرح بيرقدار، شاعر وكاتب سوري
سليم البيك، كاتب فلسطيني
غسان جباعي، مسرحي وكاتب سوري
نادي حافظ، شاعر مصري
سوسن جميل حسن، روائية وكاتبة سورية
عبد السلام حلوم، كاتب سوري
عبد الرحمن حلاق، كاتب سوري
ماهر حميد، كاتب سوري
عبير درويش، كاتبة من سوريا
محمد عناد سليمان، كاتب سوري
رامي سويد، كاتب سوري
راتب شعبو، كاتب سوري
هاشم شفيق، شاعر وكاتب عراقي
نسرين طرابلسي، كاتبة سورية
عبد الله صخي، كاتب عراقي
علي العبد الله، كاتب سوري

كريم عبد، شاعر وكاتب عراقي
عبد الله العتيبي، كاتب كويتي
هبة عز الدين، كاتبة سورية
فادي عزام، شاعر وكاتب سوري
أحمد عمر، كاتب سوري
ناصر فرغلي، شاعر مصري
محمد فطومي، كاتب تونسي
البرتينه لوكيليان، كاتبة ألمانية
حسام الدين محمد، شاعر وكاتب سوري
عبده وازن، شاعر وكاتب لبناني
هشام الواوي، كاتب سوري
حليم يوسف، كاتب سوري
إبراهيم اليوسف، شاعر وكاتب سوري